

..وماذا بعد عرب أكتوبر؟

د. أحمد كمال أبوالمجد

د. حسين مؤنس

أمينة السعيد

فتحى غانم

إبراهيم نافع

محمود عوض

حمدى عباس

يوسف السباعي

مصطفى أمين

محمد زكى عبد القادر

صلاح حافظ

صالح جودت

سعيد سنبل

الدكتورة طلعت الرفاعي

حلمى مراد

د. السيد أبو النجا



٦ أكتوبر ١٩٧٤

..وماذا بعد عرب أكتوبر؟

مصطفى أمين
د. أحمد كمال أبوالمجد
محمد زكي عبد القادر
د. حسين مؤنس
صلاح حافظ
أمينة السعيد
صالح جودت
فتحي غانم
سعيد سنبل
إبراهيم نافع
الدكتورة طلعت الرفاعي
محمود عوض
حلمي مراد
حمدي عباس
د. السيد أبو النجا
يوسف السباعي

.. وماذا بعد عرب أكتوبر؟



دار المعارف بمصر

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

الناشر : دارالمعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ٢٠٠٤ ع.

مقدمة للمشرف العام على دارالمعارف

.. وماذا بعد حرب أكتوبر؟





معركتنا مع إسرائيل في ٦ أكتوبر الماضي كانت نهاية مرحلة وبداية مرحلة ،
أوهى خط فاصل بين عهدين : عهد كانت فيه قضيتنا قد خمدت نهائياً في
مجلس الأمن ، وانتهت فيه مخاوف المحافل الدولية من أن تتحول القضية إلى حرب
ساخنة تقلق أمن العالم ، واختفت فيه الآراء التي كانت تحذر من ردود الفعل
إذا لم يحصل شعب فلسطين على حقوقه المشروعة ولم تَجُلْ إسرائيل عن الأراضي
التي احتلتها بعد حرب ١٩٦٧ . . وبين عهد أفاق العالم فيه على جيش مصري عبر
قناة السويس ويحطم خط بارليف ، وعلى جيش سوريا يتقدم في مرتفعات
الجولان بشجاعة وبطولة ، ويكبد العدو خسائر جسيمة في الأنفس والمعدات ،
وقد برهن الجيشان على قدرتهما على التخطيط العسكري الحديث ، واستخدام
الأسلحة المتطورة ، وبرهن العالم العربي على تماسكه في مواجهة الخطر ، وتعاون
كل بلد منه مع دولتي المواجهة في حدود إمكانياته واستعداد الجميع للتضحية
والبذل بمجرد أن وجدوا القيادة الحكيمة التي تريد أن تأخذ بأيديهم إلى حيث
ينتصرون .

هذه المفاجأة قضت على نظرية الأمن الإسرائيلي ، وخلقت للعرب سلاحاً

جديداً هو صعوبة تنبؤ إسرائيل بردّ الفعل عندهم كلما نشأت حرب جديدة ، وبالتالي نوع الاستعداد ومداه الذي يجب أن توفره لنفسها في مواجهة هذا الرد . أما أمريكا وروسيا وهما العملاقان اللذان يتنافسان على أقدار العالم فقد أدركا فجأة أن في العالم العربي قوة ذاتية كافية لا تستمد وجودها منهما . والدليل على ذلك أن رئيس جمهورية مصر أنهى مهمة المستشارين السوفيت حين لم يجد من دولتهم التعاون المطلوب ، ودخل الحرب من غير أن يستأذنها ، وأن السعودية والجزائر والعراق والكويت وليبيا وإمارات الخليج وتونس والمغرب وعدن قد وقفت كلها مع مصر وسوريا غير عابئة بمصالحها مع الدولتين الكبيرتين ولا مترددة بسبب تباين أنظمة الحكم فيها ، أو متخلفة بسبب الخلافات التي كانت قائمة فيما بينها .

صحيح أنه قد نشأت خلافات أخرى في أعقاب المعركة بين مصر وسوريا ، بين مصر وليبيا ، بين مصر والعراق ، بين مصر والأردن ، بين مصر والمقاومة الفلسطينية ؛ ولكن هذه الخلافات أمر طبيعي مادامت مصر هي التي تقود ، وهي التي تأخذ على نفسها مسئولية القرار ، على أن الخلافات التي استجدت هي مجرد ذبذبات في الخط العام الذي رسمه أنور السادات ليصعد إلى أمل ولا ينزل إلى هزيمة . وآية ذلك أن الخلاف مع العراق قد تحوّل إلى تعاون ، وأن الخلاف مع الأردن قد اختفى ، وأن الخلاف مع ليبيا قد تجمّد . والأمل كبير في أن يتمكن القائد بحكمته من أن يعلّي صوت المعركة فوق صوت كل خلاف .

والآن أين مكاننا وقد أصبحنا على خط جديد فاصل بين عهدين : عهد استرجعنا فيه بعض أراضينا وأثبتنا فيه وجودنا ، وعهد نريد أن نستردّ فيه باقي أراضينا المحتلة ونحصل على الحقوق المشروعة لشعب فلسطين ؟

إن موقف أمريكا من الشرق الأوسط كان يعبر عنه نيكسون وكيسنجر ؛ أما نيكسون فقد استقال تحت وطأة قضية ووترجيت ، وأما كيسنجر فقد خلقت أحداث قبرص الأخيرة شيئاً من عدم الارتياح إلى سياسته . وإذا كان الرئيس الجديد فورد قد أكّد غير مرة في تصريحاته حرصه على استمرار السياسة الخارجية للولايات المتحدة فإن هذا التأكيد قد يفقد حرارته بعد اجتياز فترة الانتقال .

علينا إذن أن نعتمد على أنفسنا . وقد نجحنا حتى الآن في فك الاشتباك مع أمريكا . ولعلنا ننجح بعد حين في تحييدها . إن أمريكا لا يمكن أن تفرط في إسرائيل ، ولكنها تؤمن بنوع من التعايش بين إسرائيل وبين العرب تؤمن به المصالح الاقتصادية والسياسية الأمريكية . وهيات أن يتحقق ذلك مادامت إسرائيل تحلم بالتوسع على حساب العرب ، ومادام العرب يرون في إسرائيل عدواناً على الفلسطينيين الذين أُخرجوا من ديارهم ليعيشوا مشردين .

وأمريكا لا تسمح لروسيا ولغرب أوروبا أن يسيطر أحدهما على الشرق الأوسط لأسباب استراتيجية وسياسية واقتصادية . ولذلك لا تسمح للاتحاد السوفيتي بالسيطرة عليه أو التدخل في شؤنه الداخلية ، وإن كانت من ناحيتها لا تهدد أمن الاتحاد السوفيتي بإقامة قواعد عسكرية في العالم العربي وفي إسرائيل مادامت هذه المنطقة متاخمة لحدود الاتحاد السوفيتي . أما غرب أوروبا فلا يزال الإنذار الأمريكي لإنجلترا وفرنسا وإسرائيل في سنة ١٩٥٦ ماثلاً في الأذهان بعد أن هاجم الثلاثة بورسعيد لاحتلال منطقة القناة .

هذا عن أمريكا . أما عن الجبهة الشيوعية - أقصد الاتحاد السوفيتي والصين - فإذا لم يوجد تعارض في المصالح الأساسية بين الصين وأمريكا فإن هناك تعارضاً بين مصالح روسيا وأمريكا في الشرق الأوسط . ولكن الفصل بين هذه المصالح المتعارضة لا يمكن اليوم أن يتم بالحرب الساخنة بعد الأسلحة النووية وإنما يكون بالحرب الباردة . ولم يكن القتال في فيتنام والانقلاب في قبرص ، وبين الباكستان وبنجلاديش إلا مظهراً من مظاهر هذه الحرب الباردة .

والانفتاح بين روسيا وأمريكا مع ذلك دعت إليه أسباب اقتصادية وتكنولوجية وسياسية . ولكن روسيا بدأت تخاف من تغلغل الاقتصاد الأمريكي في بلادها ، لأنه إقرار بتفوق الرأسمالية على الشيوعية ، ولذلك حدثت ردّة في هذا الانفتاح . ولكن الدولتين العظيمين لا تزالان تسعيان إلى التفاهم كلما بلغت حدة الاختلاف بينهما مبلغاً يدعو إلى التصادم .

إن أمريكا عرفاناً منها بالمكانة القيادية التي لمصر في العالم العربي ومنعاً لاحتكار

الاتحاد السوفيتي لها مرة أخرى قد بدأت تخفف من ضغطها الاقتصادي عليها ، وهي ترجو من وراء ذلك أن تصل إلى حل سلمي للقضية الفلسطينية . ولكن مصر تضع مصالح الفلسطينيين نصب عينها قبل أن توافق على شيء ، ولا شك أن هذا هو الذي يؤخر انعقاد مؤتمر جينيف .

وليس من الإنصاف في شيء أن نقرر أن مصر هي وحدها الحريصة على حقوق العرب ، فهي ليست أحرص من المملكة السعودية ، ولا شك أن الاستثمارات الأمريكية الكبيرة في المملكة ، وأهمية البترول السعودي في العالم ، والمكانة الروحية التي للمملكة في العالم الإسلامي لها وزنها الكبير فيما نرجو أن نصل إليه جميعاً من حلول . إن للملك فيصل موقفه الملحوظ في المعركة من أولها ، وله موقفه الحاسم تجاه القدس ، وعونه الحالي خلال المعركة مشكور ومقدور .

كذلك ليس من الإنصاف أن ننسى ما قدمته الجزائر والكويت وليبيا وإمارات الخليج وباقي البلاد العربية وإن كان بمقادير مختلفة . إن الموضوعية في قيادة المعركة تقتضي أن نتناسى الخلافات الطارئة وأن نذكر الأعمال وحدها .

ثم ماذا ؟

ثم إن إسرائيل لا تستمد وجودها من جيشها وحده ، ولا من أمريكا وحدها ، وإنما تستمدّه من تفوقها التكنولوجي ، من ارتفاع دخلها ، من تخطيط إنتاجها . وهي لا تتأثر بعطف العالم لأنها تهيمن فقط على وسائل الإعلام ، وإنما تحظى به لأن الشعب اليهودي في العالم كله بهيئته ومؤسساته يخاطب شعوب العالم بهيئاتهم ومؤسساتهم . إن العلماء يتفاعلون مع العلماء والأدباء يتفاعلون مع الأدباء ورجال الأعمال يتعاملون مع رجال الأعمال ، فتي يكون للعرب مثل ما لهم ؟

إن معركتنا مع إسرائيل طويلة ممتدة . ويخطئ من يظن أن المعركة ستكون دائماً على خط النار . فالقتال لا يفضها ولا يكسبنا النصر . وإنما الذي يكتب لنا البقاء هو حضارتنا . هو ما في أدمغتنا من علم ، وما في سلوكنا من تقدير . ولست بهذا أقلل من أهمية السلاح والمال وشجاعة الشجعان ، وإنما أبرز شيئاً كبيراً هو أن البقاء للأقوى ، والأقوى بلغة العصر لم يعد هو الذي يرفع كذا كيلو جراماً من الحديد ، وإنما هو

الذى يسخرُ الذرة ويطلق الصواريخ والأقمار الصناعية ويصنع الفانتوم والكونكورد .
 إن من يحمل فأسه في القرن العشرين لا يستطيع أن يتغلب على هؤلاء .
 من أجل هذا دعوت عدداً من أئمة الباحثين أن يكتبوا عن حاضرنا بعد حرب
 أكتوبر في نواحيه المختلفة ، ولعل أغفلت الناحية العسكرية عن قصد ، لأن
 كثيرين من إخواني الصحفيين قد أوفوها حقها من البحث والتحليل .
 والآراء التي أبدأها كل من هؤلاء الباحثين لا تعبر بالضرورة عن رأي دار المعارف ،
 وإنما هي محاولات للتفكير بصوت عال يتسق مع حرية الكلمة التي هي من خصائص
 هذا العهد .

مصطفى أمين

« كان » . . . فعل ماض !! ..





كان ذلك فى أواخر شهر مايو سنة ١٩٦٧ . وكانت صحف القاهرة تنشر بالخطوط العريضة المانشيتات الضخمة عن حشد الجيوش المصرية فى سيناء ، وعن الاستعدادات الهائلة للحرب ، وعن الخطط التى وضعناها لكسب المعركة واستدعانى مأمور سجن ليمن طرة لمقابلته على عجل . وجاء « النوبتجى » الذى يحمل الإشارة يتعجلنى لأن الأمر هام وسريع وأسرعت إلى مكتب المأمور ، فأجلسنى على مقعد ، وناولنى ورقة وهوىقول :

- هذه ورقة من رئاسة الجمهورية . والمطلوب منك أن توقعها فوراً وناولنى الورقة . وذهلت . إنها ورقة مكتوب عليها « أنا الموقع على هذا مصطفى أمين يوسف أقر وأعترف بأننى تنازلت عن شقتى رقم ٦٢ بالطابق السادس بعمارة وديع سعد ٨ شارع صلاح الدين بالزمالك ، بكل ما فيها من أثاث . وهذا إقرار منى بذلك . . . »

وسألت المأمور فى عجب : ما هذا ؟

قال المأمور : رئاسة الجمهورية تطلب منك أن توقع هذا .

قلت : أنا أقيم فى هذه الشقة منذ عام ١٩٤٩ ، وأدفع إيجارها بانتظام ،

فكيف أتنازل عنها ؟

قال : هذه هي الأوامر .

قلت : ولكنى لن أوقع !

قال : أنصحك أن توقع . . . حتى لا تغضب رئاسة الجمهورية .

قلت : وماذا تستطيع رئاسة الجمهورية أن تفعل أكثر مما فعلت ؟!

أنا محكوم على بالأشغال الشاقة المؤبدة !

قال : إن أحد كبار ضباط الجيش تفرّج على شقتك ، وأعجب بها .

قلت : كيف يدخل شقتى وهى مغلقة ومفتاحها معى ؟

قال : ليس من حقلك أن تسأل هذا السؤال .

قلت : كيف لا يكون من حقى وهذا بيتى ؟

قال : أنت الآن تعارض فى قرار جمهورى !

قلت : أعطنى الورقة . .

وأعطانى الورقة ، وكتبت عليها بخط يدى :

« أرفض أن أتنازل عن شقتى . وأنا فى دهشة أن أقرأ فى الصحف أن الجيش

المصرى يحتشد للاستيلاء على إسرائيل ، وأجد أحد كبار ضباط الجيش المصرى

يحتشد للاستيلاء على شقتى ! وبدلاً من أن يكون الآن فى غرفة العمليات فى سيناء

يضع الخطط للاستيلاء على إسرائيل أجده فى شقتى فى الزمالك يضع الخطط

للاستيلاء عليها . . . »

ووقعت على الورقة بإمضائى ، وسلمتها للمأمور !

وعدت إلى زناتى وأنا قليل الثقة بما سوف تحقّقه قيادة الجيش المصرى

فى إسرائيل ، مادامت مشغولة فى الوقت نفسه بأمر أكثر أهمية ، وهو الاستيلاء

على شقة مواطن ، مسجون فى السجن ، مقيد الحركة ، لا يستطيع أن يقاوم . .

« الغزاة » الذين أخطأوا فى معرفة عنوان ميدان القتال !

وقلت لنفسى إنه من غير المعقول أن يحدث لى وحدى هذا الذى حدث .

إن معى فى السجن ألوفاً من المسجونين السياسيين والمعتقلين السياسيين ، ولا بد أن

كثيراً من بيوتهم قد اقتحمت ، باعتبارها « قلاع الأعداء » ، ولا بد أن بعضهم اضطر للتوقيع تحت الضغط والوعيد والإرهاب . واستنتجت من هذا العبث الذى حدث معى ، أنه دليل على أن ما يقال عن الاستعداد للهجوم على إسرائيل هو كلام يقال للاستهلاك المحلى . وأن الغرض منه انتهاز هذه الفرصة للاستيلاء على شقق الناس وبيوتهم باسم المعركة ، والقبض على خصوم أصحاب مراكز القوى بحجة حماية أمن الدولة فى أثناء القتال . . ومضت الأيام تسير متاقلة إلى آخر مايو . . وامتلات الصحف قبيل المعركة بأنباء وتصريحات تعلن النصر فى المعركة . . . وكنت جالساً مع عدد من زملائي المسجونين فى عنبر واحد بسجن ليمان طرة . وكنا نتحدث عن الحرب ، وسألنى المسجونون ما رأى فى هذا الحشد العظيم ؟ قلت : إننى ضد هذا الحشد ، ولا أوافق عليه ، وأتوقع أن تكون نتيجته أن تنقض علينا إسرائيل وتهزمنا شر هزيمة !

ونزل كلامى كالصاعقة على المسجونين . وانتهى الحديث وعدت إلى زنزاتى . وبعد دقائق أقبل على أحد الضباط مهرولاً يدعونى إلى مقابلة مأمور السجن على الفور .

وسألت الضابط عن سبب هذا الاستدعاء ، فقال إنه لا يعلم . وذهبت إلى مأمور السجن الذى بادرنى بقوله : هل قلت للمسجونين إنك غير موافق على الحشد ؟ قلت : نعم ! قال المأمور : هل قلت لهم إن الجيش سيهزم ؟ قلت : نعم . قال : ألم تقرأ الصحف ؟ قلت : أقرأها . قال : ألم تقرأ فى الصحف أن الجيش المصرى سيهزم الجيش الإسرائيلى فى بضعة أيام ؟ قلت : قرأت ! قال : ألم تقرأ أن أم كلثوم ستغنى فى تل أبيب أول يوم خميس فى الشهر القادم ؟ قلت : قرأت ذلك . قال المأمور غاضباً : كيف تقول بعد كل هذا إن الجيش المصرى سيهزم ؟ ! قلت : لأننى أعرف قيادة الجيش المصرى ، وأعرف حقيقة الحالة . قال المأمور : أرجوك ألا تكرر هذا الكلام حتى لا يصل إلى الجهات العليا . قلت : إننى أريد أن يصل كلامى هذا إلى الجهات العليا ، وسوف أكرره إلى أن يصل إلى الجهات العليا . وسوف أستمع أعارض قيام الحرب ، إلى أن تدخل بلادى الحرب ؛

وبعد خمس دقائق من دخولها سوف أعلن تأييدي للحرب ، لأننى سأعرف عندئذ أن إنذارى وتحذيرى لم يفعل شيئاً ؛ وواجبنا فى وقت الحرب أن نقف جميعاً صفّاً واحداً مع بلادنا مهما كان رأينا فى الحرب نفسها . . .

وأمر مأمور السجن بإعادتى إلى الزنزانة ، وأصدر أوامره بمنع اختلاطى بالمسجونين أو التحدث إليهم .

وكان مأمور السجن ينظر إلى كأتنى مجنون ، وتصور أن سنوات السجن أثرت على قواى العقلية حتى إننى أصبحت أتوقع الهزيمة على حين أن الدنيا كلها تؤكد النصر !

وعشت بضعة أيام معزولاً عن المسجونين . . .

وفى يوم ٥ يونيو وجدت حركة غير عادية فى السجن . أغلقت فجأة جميع الزنازين . أعيد المسجونون من العمل . وبعد ساعات أقبل الصاغ محمد كمال الدين أركان حرب اللمان ، وفتح باب زنزاتى وحدها دون جميع الزنازين . وقال لى : المدير أمرنى أن أفتح باب زنزانتك ، وأخبرك أن الجيش المصرى اقتحم إسرائيل ، وفى طريقه إلى تل أبيب ، وأنا أسقطنا ٣٨ طائرة . . .

قلت فى هدوء : هذا غير صحيح !

قال فى انفعال : كيف لا يكون صحيحاً . هذا بلاغ رسمى !

قلت : ولو !

قال : وأذيع فى الإذاعة . .

قلت : ولو !

قال : كيف تعرف أن البلاغ الرسمى غير صحيح ، وأنت فى داخل

زنزانتك فى السجن ؟

قلت : لأننى أعرف كيف تكتب البلاغات الرسمية !

وهز الصاغ محمد كمال الدين رأسه فى حزن وأسى لأن صحفياً كبيراً

فقد عقله فى الزنزانة !

ومضت الأيام والزنزانة مغلقة ، وإذاعة السجن تنقل عن إذاعة القاهرة

وإذاعة صوت العرب أنباء الانتصارات التي حققناها !
وفي يوم ٨ يونيو فتحوا باب زنزاتي ، وجاء أحد الحراس يبلغني أن المأمور يريد أن يراني على الفور. ودخلت مكتبه ووجدته يلطم وجهه بكفيه ويقول :
- كيف عرفت ؟ .. كيف عرفت ؟

قلت : لست وحدى الذى كان يعرف هذه الحقيقة !
قال : لماذا لم يقولوها ؟
قلت : حتى لا يحدث لهم ما حدث لى !
قال المأمور : تصور ليس عندنا بندقية واحدة من القناة إلى القاهرة . ليس عندنا عسكرى واحد ! تصور أن الهزيمة شاملة كاملة ! هل هذا معقول ؟
قلت : هذا هو المعقول . إن واحداً زائداً واحداً يساويان اثنين . إن معلوماتى أننا كنا نعدّ جيشاً ليحافظ على النظام ، ولا نعدّ جيشاً ليحارب . الضباط الذين أرسلناهم فى بعثات إلى الكليات الحربية فى روسيا وأمريكا وإنجلترا ويوغوسلافيا نعينهم رؤساء لمجالس إدارات شركات الصابون والسردين وتعمير الصحارى . . . وعندما يجلس المحاربون فى المكاتب سترك مهمة القتال للمدنيين !
وتركت المأمور وهو شبه محطم ، واتجهت إلى زنزاتي وأنا أجرح قدمي . . . ووجدت نفسى أترمى على فراشى . ودخل جارى فى الزنزانة السجين أنور زعلوك ، ووجدنى أبكى ! وذهل . وقال لى : كيف تبكى من الهزيمة وقد كنت أنت أول من توقعها . . . قلت : كنت أتمنى لو كنت مخطئاً ، وأن يكون الذين سجنونى على حق .
وأعترف أن الهزيمة كانت أكبر من كل تشاؤمى ! وكانت أفدح من كل توقعاتى . وعشنا فى السجن أياماً طويلة فى جنازة مستمرة ! كأننا نشيع نعشاً . وكان خصوم الدولة من المسجونين السياسيين أشبه بالشكالى ، يمضون أيامهم فى الندب والعويل !

وتمنيت أن نستفيد من هذا الدرس . فإنى أومن بشعار يقول « لا بد من الاستفادة من الكوارث » . . ثم فوجئت بمن يحاولون أن يقلبوا الهزيمة النكراء إلى نصر مصنوع . . . وسمعت الإذاعة تقول إننا خسرنا الأرض ولم نخسر النظام ! وعجبت . . .

إن في رأيي أن خسارة شبر واحد من أرض الوطن أهم من ألف حكومة ! فما بالك وقد خسرنا ثلث مساحة مصر كلها ! ثم لاحظت أن محاولات تبذل لتغطية الهزيمة ولتصغير حجمها ، ولتبريرها . وكان من رأيي أنه لا أمل في النصر إذا لم يعرف الشعب سبب هزيمته . . . وأنه لا يمكن أن نحقق النصر بنفس الرجال الذين حققوا الهزيمة . .

ولم يسكت الشعب . . بدأ الشعب يقاوم بالنكت . . وكانت النكت أعجب أسلحة المقاومة . . وقد كانت النكتة أحياناً أقوى من القنبلة ! وبدأ الشعب يطالب بالتغيير . .

وبدلت محاولات ضخمة لخنق مطلب الشعب ، ولتجميع التغيير . . ولكن الشعب استمر ينادى بضرورة التغيير . .

وكنت أشعر في زنزاتي بعدم الجدية . وكان الشعب يحس معي بهذا الإحساس . كنا قرأنا قبيل الحرب عن اجتماعات طويلة يعقدها القواد . وكان آخرها اجتماعاً دام سبع ساعات برئاسة المشير عبد الحكيم عامر نائب القائد الأعلى وحضور الفريق عبد المحسن مرتجى قائد الجيش والفريق صدقي محمود قائد الطيران والفريق سليمان عزت قائد الأسطول !

وقالت الصحف يومها إن الاجتماع الهام لم يعقد لبحث خطط الهجوم على إسرائيل وإنما عقد برئاسة المشير عامر بصفته رئيس اتحاد كرة القدم ، والفريق مرتجى باعتباره رئيس النادي الأهلي ، والفريق صدقي محمود باعتباره رئيس نادي الطيران ، والفريق سليمان عزت باعتباره رئيس النادي الأولمبي ، وأن البحث كان بسبب نقل اللاعب لمعي من نادي المنصورة إلى النادي الأهلي !

ولم يحدث في أي بلد في العالم أن رأس قواد الجيوش جميعاً أندية كرة القدم ، وشغلوا أنفسهم بالخلافات بينها ، واجتمعوا ساعات طويلة لبحث أمر لاعب تاركين شؤون أسلحتهم من أجل لاعب صغير اسمه لمعي ! !

وكان من الواجب أن نعرف كل أخطائنا لنعرف الطريق إلى النصر . . . ولكن الذي حدث أننا لم نكلف أنفسنا التحقيق في أسباب الهزيمة ، ولم نهتم بأن

نعرف أسماء القواد الذين أدخلوا بواجباتهم ، بل اتجه الاهتمام إلى تطهير الجيش من عدم الموالين ، وانشغلت البلاد بتحقيقات في محاولة المشير عبد الحكيم عامر العودة إلى قيادة الجيش المصرى بالقوة ، بعد أن أبعد عنه
وكانت التحقيقات والوشايات والبلاغات الكاذبة سبباً في إبعاد عدد من أكفأ قواد الجيش الشبان عن مناصبهم . واستبقى في الجيش القواد الذين لا خوف أن يقوموا بانقلاب عسكري ضد الحكومة

وأغلقتنا عيوننا عن الأسباب الحقيقية للهزيمة ، فلم يقل أحد إن من أول أسباب الهزيمة أننا نسينا الله ، فنسينا الله ؛ وأن الإلحاد انتشر بين من يسمون أنفسهم بالمتقفين ، وكان بعض قادة الرأى من أنصاف المتعلمين يتظاهرون بالإلحاد ليصبحوا من التقدميين ولم يقل أحد إن الإرهاب الذى انتشر فى كل مكان أشاع الخوف بين المواطنين ، وانعدمت الثقة بين الناس ، واختفى التراحم والخير . وسمعنا عن طالبة فى الجامعة تشى بأخيها وتقدم تقريراً ضد أخيها بأنه يهاجم الحكومة ، فتقبض الحكومة على الأخ ، وتقيم للأخت الواشية حفلة تكريم ! ولم تستطع جريدة واحدة أن تقول إن من أسباب الهزيمة هذه الألوف المؤلفة من المسجونين السياسيين والمعتقلين السياسيين ، وأنه لا يمكن أن ينصرنا الله وفى سجوننا هذا العدد الهائل من الأبرياء والمظلومين !

ولم نتعلم من دروس الهزيمة شيئاً !
وكان أكبر دليل على ذلك القرار الذى صدر بعزل جميع قضاة مصر ، وإعادة تعيينهم إلى مناصبهم بعد ٢٤ ساعة ، فيما عدا حوالى أربعمئة مستشار وقاض من أحسن قضاة مصر غضبت عليهم الحكومة لأنهم حكموا أحكاماً لم تعجبها !
وتولى الرئيس أنور السادات الحكم وأجريت انتخابات لرياسة الجمهورية . وفوجئ الشعب بأنور السادات يشكر الذين قالوا « لا » كما يشكر الذين قالوا « نعم »
وكان الناس قد توقعوا أن يأمر بوضع الذين قالوا « لا » فى المعتقلات والسجون ! وكانت هذه أول مرة تحترم فيها كلمة « لا » منذ سنوات عديدة . وكانت

كلمة أنور السادات هذه رد اعتبار لكلمة « لا » . . كانت دقة الناقوس بمولد عصر جديد !

وبدأت معركة خلف الستار بين الحرية والدكتاتورية . بين الحاكم الشرعى ومراكز النفوذ . .

وجاءت ثورة ١٥ مايو . ووقف الشعب كله بجوار أنور السادات . . واستطاع أنور السادات وحده أن ينتصر على نائب رئيس الجمهورية الذى يدير الاتحاد الاشتراكى ، ووزير الحربية الذى يقود الجيش ، ووزير الداخلية الذى يسيطر على المباحث وفرق الأمن والشرطة ، ورئيس مجلس الأمة ووزير القصر الذى يدير أجهزة رئاسة الجمهورية !

وأى حساب بين هذه القوى المجتمعة وبين رئيس الجمهورية وحده كان يؤكد أن النصر الحاسم سيكون لهذه القوى الجبارة . . .

ولكن الله كان مع أنور السادات ، وكان الشعب مع أنور السادات فاستطاع أن يقبض على هؤلاء الجبابرة جميعاً وكأنه يقبض على عدد من الفراخ ! وبدأ أنور السادات يضيء الأنوار . .

وأمر بإعادة القضاة والمستشارين المفسولين ، فأعاد لقضاء مصر كرامته . . وأفرج عن المعتقلين السياسيين ، وأغلق معسكرات الاعتقال . . وكان بعض المعتقلين اعتقلوا لمدة خمس سنوات لأنهم مشوا فى جنازة النحاس باشا ! ! وكان ألوف المعتقلين معتقلين بغير تحقيق وبغير تهمة وبغير محاكمة !

وأوقف التعذيب . .

وأفرج عن المسجونين السياسيين ، وبعضهم أمضى ٢٠ سنة فى السجن ! ورفع الحراسة . . وكانت الحراسة قد فرضت لأسباب شخصية أو لأسباب وهمية . . وكانت أسرة بأكملها قد فرضت عليها الحراسة لأن إحدى بنات هذه الأسرة رفضت أن تتزوج من ابن أحد مراكز القوى !

وأعاد الصحفيين إلى صحفهم . . وأعاد الطلبة المفسولين إلى جامعاتهم . .

وبدأ يقوى مصر بالدول العربية التي ناصبناها العداء ، وكانت أغلب خلافاتنا صبيانية !

فقد اختلفنا مثلاً مع السعودية ، واعتبر السذج أن السعودية سوف تخاف ، وتعود إلينا صاغرة !

ولكن الذى حدث أن الخلاف بيننا وبين السعودية قد تفاقم . وجاء أنور السادات ليضع حداً لتصرفات هذه الأجهزة التي كانت تحركها مراكز القوى . . . وقوى مركز مصر بالصفاء والصداقة والأخوة أكثر مما قوى بالشتائم والقنابل . ووقفت الدول العربية صفاً واحداً وعبرنا في ٦ أكتوبر وانتصرنا . . .

* * *

وسمعت السيدة الاولى جيهان السادات أن قاعدتين جويتين في أنشاص والمنصورة قامتا ببطولات ضخمة في الطيران في أثناء المعركة ، وأن قائدى القاعدتين قاما بعمليات فدائية مذهلة ، وضربا أرقاماً قياسية في عمليات الهجوم . وقررت السيدة الأولى أن تزور القاعدتين ، وبدأت بزيارة قاعدة أنشاص . وحيث الطيارين الأبطال ، وأقاموا لها حفلة شاي بسيطة ، وجلست وإلى يمينها قائد قاعدة أنشاص . . . وسألته : ما الذى جعلكم تحاربون بهذه البطولة ؟ ولماذا لم تحاربوا في سنة ١٩٦٧ كما حاربتم في أكتوبر ؟ قال القائد الشاب : كنا بالأمس نحارب ، وننظر خلفنا لنرى الذين يكتبون التقارير ضدنا . أما اليوم فحاربنا ونحن نشعر أننا أحرار .

قالت السيدة الأولى : وأنت لماذا حاربت بكل هذه الشراسة والفداء ؟ قال القائد الشاب : لأننى كنت مسجوناً في السجن ظلماً ، وأخرجنى أنور السادات من السجن ، وأعادنى إلى الجيش ، وسلمنى هذه القيادة . وأردت أن

أثبت أنني كنت مظلوماً . . .

وزارت السيدة جيهان السادات قاعدة المنصورة ، وأرادت أن تتجاذب
أطراف الحديث مع قائد المنصورة فقالت له :
- هل تعرف قائد أنشاص ؟

قال قائد المنصورة :

- كيف لا أعرفه . . . لقد كان معي في السجن !

لقد أثبتت حرب أكتوبر نظرية جديدة في منطقة الشرق الأوسط : أن
الأحرار ينتصرون والعبيد يستسلمون !
ومنذ أيام أقام الأمير سلطان وزير الحرية السعودية مأدبة عشاء في فندق
شيراتون . . .

ورأيت ضابطاً كبيراً يقبل على مبتسماً . وعرفت من صورته أنه الفريق
أحمد بدوي قائد الجيش الثالث الذي ناقشه الرئيس أنور السادات في اجتماع
مجلس الشعب عن أعماله البطولية وظهر في التليفزيون . . . وتحدثت عنه الدنيا .

وتقدم نحوي وهو يقول :

- ألا تعرفني ؟ لقد كنا زملاء ؟

قلت للفريق بدوي : هل كنت سيادتكم تعمل في الصحافة ؟

قال : لا . . . كنت في السجن !

ألم أقل لكم إن « كان » هي فعل ماض !

د. أحمد كمال أبوالمجد

الإعلام المصري وحرب أكتوبر





لم تعد أهمية دور الإعلام في الحياة المعاصرة محتاجة إلى مقدمات طويلة لشرحها أو إثباتها . يستوى في هذا أن يكون الحديث خاصاً بالإعلام داخل الدولة أو الإعلام الموجه إلى العالم الخارجى . وقد أصبح التسليم بهذا الدور أكثر شيوعاً - وأكثر منطقية في الوقت نفسه - في دول العالم الثالث التى يلعب الجهاز الإعلامى فيها دوراً خاصاً في عملية « بناء الأمة » والتغيير الحضارى الشامل للوصول إلى مستوى يليق بالعصر الذى نعيش فيه إلى جانب دول وشعوب بلغت مستوى متقدماً ومتزايداً في تقدمه بسرعة هائلة يكون فيها التوقف استمراراً للتخلف ، ويكون فيها التقدم بمعدلات أقل إبقاء عليه .

غير أن هناك عاملاً آخر يزيد من أهمية الإعلام ودوره في هذه المرحلة التاريخية ، تعنى به ما أصبح معروفاً في دراسات الرأى العام باسم « فجوة التصديق » ، وهو تعبير يشير إلى وجود هوة بين السلطة السياسية بكل ما تمثله أو ما يرتبط بها من أجهزة ومؤسسات وبين المواطن العادى . وقد شهدنا تطبيقات معاصرة لهذا في حالات مختلفة سواء في العالم الخارجى أو على المستوى العربى أوحى داخل مصر نفسها في ظروف معينة .

إن الإعلام بطبيعته لا يخلق شيئاً من العدم ، وإنما هو يسعى أساساً لنشر حقائق قائمة أو توضيح أمور يكتنفها الغموض أو اللبس بهدف تحقيق أى من الغايات التالية أو تحقيقها كلها - فى التصور الأمثل وهى :

- ١ - تثبيت مواقف أو اتجاهات موجودة بالفعل .
- ٢ - المساعدة فى تحويل مواقف واتجاهات مترددة أو غير ثابتة إلى مواقف واتجاهات ثابتة .
- ٣ - حصر المواقف والاتجاهات المعادية الشديدة التطرف منعاً لانتشارها وتوسعها على حساب المواقف الثابتة .

وفى كل هذه المجالات لا يمارس الجهاز الإعلامى وظيفته فى فراغ ، ولكنه يؤديها فى إطار أشمل يضم مؤسسات وتقاليده مختلفة ، ويرتبط بفلسفة معينة للعمل تحكم هذه المؤسسات ككل وتضبط ممارساته هو أيضاً . وبعبارة أخرى فإن الجهاز الإعلامى جزء من كلّ هو النظام السياسى والاجتماعى بكل مقوماته وظروفه وطبيعة العلاقة السائدة فيه - فى لحظة معينة - بين الدولة ومؤسساتها وبين الأفراد والشعب فى مجموعه . فإذا حدث خلل فى أى من هذه العلاقات ينشأ موقف يتسم باهتزاز الثقة ، وقد يتطور هذا الموقف عبر فترة من الزمن إلى « أزمة ثقة » أو « فجوة تصديق » أى إلى حالة عامة غالبية ، يكون ردّ الفعل الأول أو الغالب فى ظلها إزاء كل ما يصدر عن الدولة ومؤسساتها من بيانات أو معلومات أو وعود هو الشك أو التحفظ أو التردد فى التصديق .

والتعامل السليم مع فجوة التصديق هذه يجب أن يكون تعاملًا علميًا ، بمعنى أنه يسلم بوجودها إن وجدت ، وأن يحدد العوامل والسمات والعلاقات التى تؤدي إلى وجودها ، وأن تكون هذه المعرفة بعد ذلك مدخلا لحركة متكاملة مدروسة تستهدف تفادى وصول الأمور إلى هذا الوضع أو معالجتها والقضاء عليها إذا استفحلت . ولا بد أن نملك القدرة والشجاعة على مكاشفة النفس بأننا قد واجهنا مثل هذا الموقف فى مصر عقب حرب ١٩٦٧ ، إلا أن كلمات الآخرين وشهادة المراقبين الإسرائيليين أنفسهم تدلّ قبل أى شئ آخر على أننا قد استفدنا من الدرس ،

وأنا نسير في الطريق الصحيح . وسنعود إلى تفصيل هذه النقطة الهامة فيما بعد .
ثم يبقى أن نسجل - في بداية معالجتنا هذا الموضوع الهام - أن حرب أكتوبر كانت بداية الاختبار الحقيقي لجيش مصر وشعبها وللأمة العربية كلها ، وأنا قد اجتزنا الاختبار بنجاح فاق تصورات كل من لم يعرفوا طاقات هذا الشعب وجيشه وأمتة العربية . ولم يكن الإعلام المصري استثناء من هذا كله ، فقد شهدت حرب أكتوبر بالفعل أسلوباً إعلامياً جديداً أسهم قبل الحرب في الحشد وفي تعبئة الشعب من جانب ، والتمويه على العدو من جانب آخر ؛ وأسهم خلال الحرب في طرح الحجم الحقيقي للإنجازات العربية دون مبالغة أو تهويل ؛ وأسهم بعد الحرب في عرض الأبعاد الموضوعية كافة للموقف ولتحركنا السياسى من أجل السلام دون مزايدة أو صراخ .

والآن لتحدث بقدر من الإيجاز عن الماضى والحاضر والمستقبل .

أولا - دور الإعلام المصرى قبل أكتوبر :

ليس من المعقول فى شىء القول إن السجل الإعلامى العربى قبل أكتوبر ١٩٧٣ كان حالك السواد ، وإنه كان كذلك فى كل المواضع والمجالات والمراحل . فمثل هذا الزعم يتجنى على الحقيقة القائمة ، ويتجاهل جهوداً كثيرة قدمها أناس مجدون وشرفاء بذلوا فيها غاية ما يستطيعون وما أهلوا للقيام به أو ما مكنوا من إنجازه .
هناك على سبيل المثال حرب ١٩٥٦ ، وقد نجح الإعلام المصرى خلالها فى القيام بدور عظيم ، حيث ساهم بأوفر نصيب فى عملية التعبئة فى ظل ما يكاد يكون غيبة تنظيم سياسى جماهيرى يفترض فيه أن يتولى القيام بهذا الدور . وكانت أجهزة الإعلام المصرية حينئذ وسيلة جيدة التوصيل لتوجيهات القيادة السياسية بصدد عملية حشد الموارد البشرية والمادية ، كما كانت قناة ربطت مصر المستهدفة للعدوان بشقيقاتها العربيات ، إلا أنها لم تكن الرباط الوحيد فى هذا ؛ وأخيراً كانت أداة نقل مستمرة وفعالة لرسالة إعلامية لشعوب العالم كله ودوله الكبرى والصغرى دون استثناء ، قوامها أن مصر مستهدفة للعدوان ، ولكن شعبها يقاوم

بشجاعة وإصرار صاحب الحق وصاحب الأرض .

غير أنه يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار أن الصورة أيضاً لم تكن - من الناحية الإعلامية - ناصعة البياض ، وأن توصيف الواقع دائماً على أنه « حالك السواد » أو « ناصع البياض » وقوع في ازدواجية سقيمة ، فإلى جانب الإنجاز الإعلامي عام ١٩٥٦ كانت هناك مشاكل عديدة وقصور في صورة الإعلام قبل حرب أكتوبر . وليس هذا مجالا مناسباً لتناول هذه المشاكل بالتفصيل الذي تستحقه ، ولكن يكفي أن نشير إلى بعضها ، ومنه حداثة دخول الجانب العربي عامة إلى الحقل الإعلامي بمعناه التخصصي ، كوظيفة مستقلة لها تقاليد وأصولها ، إلى جانب ندرة عدد المتخصصين في هذا الحقل لدينا وفي دول العالم الثالث بشكل عام . ثم إن هناك أسباباً فنية بالمعنى الضيق للكلمة ، ونعني بها تخلف الأدوات والأجهزة المتاحة أمام العاملين في الحقل الإعلامي ؛ وأهم الأسباب - ولا شك - الأسباب السياسية ، ومنها عدم استقرار الخط السياسي في بعض الموضوعات عبر أي فترة معقولة من الزمن ، وخضوعه حتى في الزمن القصير لتقلبات حادة ، وهو الأمر الذي يترتب عليه - بعد تكراره أكثر من مرة - فقدان الثقة في الجهاز الإعلامي الذي ينقل للمواطنين مضمون هذه التقلبات ؛ ثم هناك أيضاً عدم اتساق مقومات الخط الإعلامي العربي ، فقد اعتاد العرب لفترة طويلة - وخاصة قبل أكتوبر ١٩٧٣ - أن يخاطبوا العالم بأكثر من منطق ، وأحياناً على نحو متناقض ، وهو الأمر الذي أوقع العالم الخارجي في حيرة معنا . بل أوقع جماهيرنا بدورها في هذه الحيرة :

أينا يصدقون ؟ أينا يمكنهم أن يتجاهلوا ما يصدر عنه باعتباره غير ممثل للموقف العربي ؟

ليس هذا - كما أشرنا من قبل - موضع معالجة تاريخية لدور الإعلام المصري ، ولكننا نريد التركيز أساساً على الخبرة الماضية فقط في الحدود التي تسمح لنا بتقييم الحاضر وتصحيح أي خطأ فيه وبالتنبؤ بالمستقبل ویرسم ملامحه كما نريد على أفضل نحو ممكن التنفيذ . وهذا ما يعود بنا إلى عام ١٩٦٧ .

لقد كانت المواجهة العربية الإسرائيلية الرابعة فى ذلك العام ، ومنذ نهاية المعارك العسكرية ، والتحقق الجماهيرى من وقوع الهزيمة ، بدايةً من الناحية الإعلامية لوضوح « أزمة التصديق » وتضخمها ، حتى لقد اعتاد بعضنا أن يستمعوا إلى أخبار وطنهم من الإذاعات الأجنبية ، وبخاصة تلك التى يستطيع أى عاقل أن يدرك نوع واتجاه المادة التى تبثها ، وأدمن آخرون ممارسة « تعذيب الذات » و« القسوة على النفس » كردّ فعل لما أصابهم من إحباط وانعدام ثقة فيما يقال ومن تزايد الهوة بين ما يقال وما يفعل . وأمام هذا الميراث من ضعف الثقة واهتزازها كانت الأصوات المدركة حقيقة قدرات هذا الشعب توصف بأنها متفائلة أكثر مما ينبغى فى معظم الأحوال ؛ وبرغم هذا كان من اللازم أن ننطلق فى استعدادنا للمعركة وتعبئة إمكانياتنا ، لأن جلال القضية وإلحاحها على الضمائر والقلوب والعقول والأرزاق كان لا يحتمل أى تأجيل ، ولم يكن فى استطاعتنا الانتظار حتى نتخلص من أزمة التصديق لكى نخوض بعدها مواجهتنا ضد العدو . بل لقد أشار الرئيس محمد أنور السادات فى لقاءاته خلال النصف الثانى من شهر أغسطس سنة ١٩٧٤ مع فئات مختلفة من قوى شعبنا العامل إلى أن الأوضاع الاقتصادية كانت أكثر حرجاً مما كان يبدو لأى مراقب خارجى مهما كان متشائماً .

ومن ناحية أخرى كان حرص الرئيس السادات على التعبئة النفسية للحرب وإلحاحه على حتمية النصر تعبيراً عن رؤيته الدقيقة التى ولدتها خبرة طويلة بهذا الشعب والطاقات الهائلة التى يجتريها . ومن ثم كان بث روح التفاؤل والثقة بالنصر ضرورة سياسية وإعلامية تستند إلى الرؤية الموضوعية ولا تتجاوز الواقع فى شىء .

أريد من كل ما سبق أن أؤكد أننا نبني على تراث له إيجابياته وسلبياته ، وأن على من يريد محاسبة الجهاز الإعلامى أن يأخذ هذا فى اعتباره ، وأن يدرك أن السلبيات - وهى عديدة - تحتاج إلى كل العلمية وأعظم الخبرات وبعض الوقت وقدر من طول النفس للقضاء عليها أو على الأقل لتحديد آثارها . ومع هذا جاءت حرب أكتوبر والأداء الإعلامى الذى شهد به العدو قبل الصديق دليلاً جديداً على قدرة الإنسان المصرى العامل فى حقل الإعلام على تخطى الصعاب

والتعامل بنجاح مع الواقع في ظل الإمكانيات المحدودة إذا توافرت الاتجاهات والمؤثرات السليمة والمستقرة في العمل الوطني المصري .

ثانياً - الإعلام المصري في حرب أكتوبر :

لعل من الأفضل أن نبدأ تناولنا هذه النقطة بالإشارة إلى رأى الإسرائيليين فيها ، فهو رأى لا شبهة للتحيز فيه لمصلحة العرب ؛ وهنا يكفى أن نشير إلى ما جاء في صحيفة دافار الإسرائيلية بتاريخ ١٠/١٢/١٩٧٣ في معرض تقييم الخبراء الإسرائيليين السيكلوجية والثقافة العربيتين حيث قال التعليق : « لقد استخفوا بالعرب ، وأحياناً ارتدى هذا الاستخفاف رداء علمياً . ماذا زعموا ؟ . إن العرب بسبب ثقافتهم الخاصة يتجاهلون الواقع ، ويقعون ضحية خيالهم ، وقدّموا أكثر من مرة إلى من طلب برهاناً على ذلك بلاغات الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨ وحرب الأيام الستة ، ولكن الحرب الأخيرة أثبتت أن هذا الادعاء ليس صحيحاً دائماً . هذه المرة كانت بلاغات الناطق العسكري المصري دقيقة للغاية » . أما عن الوضع على الجانب الإسرائيلي فيكفى مطالعة عدد صحيفة معاريف الإسرائيلية يوم ٢/٥/١٩٧٤ والذي جاء فيه أن الإذاعة والتلفزيون في إسرائيل لم يكونا على درجة مناسبة من الاستعداد للعمل في أثناء الحرب ، سواء من حيث البرامج ، أو من ناحية القوى البشرية ، أو مستوى استعداد الأجهزة العاملة ، أو من حيث تنسيق استخدام المواد المتاحة بالأقسام المختلفة في الإذاعة والتلفزيون .

وهكذا نجد أن الدروس المستفادة من الأداء الإعلامى المصرى خلال حرب أكتوبر هى في جوهرها العوامل التى جعلت هذا الأداء ممكناً وأهمها :

١ - المصارحة ومكاشفة الجماهير بالحقائق : لقد أثبتت التجربة دائماً أن إخفاء الحقائق عن الشعب أمر وخيم العواقب من نواح كثيرة ، ذلك أنه من ناحيةٍ تجاهل لحق الشعب في المشاركة والمعرفة ، ولأنه من ناحية أخرى يؤدي إلى إضعاف مستوى تعبئة الشعب واستعداده لمواجهة التحديات المختلفة . وقد كانت المصارحة هى الخط العام للأداء الإعلامى خلال حرب أكتوبر على نحو رأينا

أن العدو قبل الصديق قد اعترف به . إن منطق المصارحة ليس مجرد فلسفة ، ولكنه فلسفة سياسية وتربوية بأوسع معانى الكلمة ، لأنه تجسيد للإيمان بأن شعبنا هو صاحب القضية ، وبالتالي صاحب الحق الكامل فى الإلمام بتطوراتها كافة ؛ وفى هذا الإطار جاء قرار السيد الرئيس برفع الرقابة على الصحف لضمان ممارستها كامل وظائفها الإعلامية دون قيود سواء من حيث حرية التعبير فيما يتعلق بالحاضر أو من حيث استشراف ملامح المستقبل لمصر والأمة العربية . إن هذا القرار فى حقيقته ليس قراراً إعلامياً ، ولكنه قرار سياسى يكشف عن الإيمان بالشعب والثقة فيه والإيمان بأن الحرية هى الباب لمعرفة الحقائق وبناء السياسات على أساس صلب من التفاعل مع الواقع بكل ما فيه .

٢ - رفض الازدواجية : وكامتداد طبيعى للعنصر الأول يأتى منطق رفض الازدواجية الإعلامية . وقد كان من أهم مقومات النجاح الإعلامى فى أكتوبر تجنب مخاطبة الشعب فى الداخل بلسان ومنطق ، ومخاطبة العالم الخارجى بلسان ومنطق آخر ؛ وانطلاقاً من هذا يركز خطنا الإعلامى الآن على الحديث بلسان واحد ومنطق واحد بغير ثنائية أيّاً كان الغرض منها ؛ ذلك أن الثنائية أو الازدواجية هى فى أحسن الأحوال مظهر لقصر النظر . ويستتر خلف هذا الخط - خط رفض الازدواج - إيمان قوى بوعى هذا الشعب الذى خاض التحديات وقدم التضحيات ، والذى أسفر فى كل المناسبات عن درجة هائلة من الوعى وإدراك ثاقب البصيرة لمرامى كل خطوة وأهداف كل تحرك وتفهم لماهية الهدف الاستراتيجى وما هى الخطوات والأدوات اللازمة للوصول إليه .

٣ - رفض المهاترات : قبل أكتوبر ١٩٧٣ واجهت السياسة المصرية حملات متتالية ومكثفة من التشكيك من جانب جبهات متعددة ، وتركزت هذه الحملات فى الادعاء بأن مصر غير عازمة على القتال أو غير قادرة عليه . وقد جاءت شرارة أكتوبر وتركت هذه الدعوى التى ارتكزت عليها حملات التشكيك مهلهلة ضعيفة ، وبرغم ذلك فإن مصر فى تصديها لحملات التشكيك لم تلجأ لتبنى أساليب من وجهوا إليها هذه الحملات ، ولم تستخدم التجريح والسباب والشتائم والتشهير ، وإنما

اكتفت بالعمل والحركة الإيجابية ، ورفضت منطق المهاترات والمزايدات . وكان توجيه الرئيس السادات المتكرر لأجهزة الإعلام أن تلتزم الموضوعية والهدوء ، وأن تبتعد عن المبالغات وحروب الشعارات . ولا يزال خطنا الإعلامى بعد أكتوبر مستمراً فى الالتزام بتجنب المهاترات ، والحرص على التضامن العربى ، وعلى إقامة أفضل العلاقات مع جميع القوى الدولية ، فى ظل مراعاة كاملة ومتبادلة لمقتضيات مفهوم الحوار مع من يختلف معنا ، ومع عدم اشتراط التطابق فى الآراء مع من يشاركنا الرأى فى موضوعات بعينها . وهذا الأمر على مستوى العمل الإعلامى ؛ والالتزام أجهزة الإعلام المصرية به هو فى الواقع مساهمة فى إرساء قيمة مسئولية الكلمة دون التعدى على حريتها .

ثالثاً - مهام المستقبل :

إن هذه القيم التى جعلت من إنجاز الإعلام المصرى فى أكتوبر حقيقة ممكنة التحقيق يمكن أن تكون منطلقاً لإنجاز مهام المرحلة القادمة . والإعلام لن يقوم فى المستقبل - وفقاً لأى تصور علمى - بدور منفرد ، بل إن دوره يتحدد فى إطار الاستراتيجية الحضارية الشاملة التى طرحها ورقة أكتوبر ، ولتنفيذ المهام التى حددتها الورقة والتى نالت موافقة وتأييد جماهير الشعب ، وقد تضمنت المهام تأكيداً على ضرورة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ومحو الأمية ، والقضاء على الهوة بين الريف والمدينة ، وتحرير المرأة ، وبناء الإنسان الجديد الذى هو هدف التنمية ووسيلتها وضمانها . وأعتقد أنه لا خلاف على وجود دور كبير لأدوات الإعلام فى هذا كله بالتنسيق الكامل مع الأجهزة والمؤسسات الأخرى التنفيذية والسياسية حتى تأتى الأدوار مكتملة بعضها بعضاً وليست جهوداً منفصلة الحلقات تسهل بعثرتها فى الهواء .

إن مجرد اختفاء ظاهرة الأمية يعنى مزيداً من مراكز البحث العلمى وقلاع التقدم الاقتصادى ، ومزيداً من مشاركة المرأة فى الحياة العامة بفاعلية ، وأجيالاً جديدة تحمل الراية وهى مؤهلة بالعلم والمعرفة والخبرة . والإعلام المصرى لابد

أن يشارك في هذا كله ، وفي خلق الإنسان القادر على إنجاز هذه المهام جميعها .
ثم الارتفاع إلى مستوى اهتماماته ؛ ويترتب على هذا ضرورة الارتفاع بمستوى
المادة الثقافية ومزيد من الاهتمام بالأقاليم في الإعلام المكتوب بصفة خاصة ، وهكذا
فإن أى تفكير في مهام المستقبل بالنسبة لأدوات الإعلام لابد أن يأخذ في الاعتبار
مستوى المخاطب وطبيعة العصر .

وإذا تركنا هذا المستقبل ، وتحدثنا عن المستقبل القريب ، فإن لأدوات
الإعلام المصرية دورها الأکید في إعداد الشعب لمواجهة مقتضيات المرحلة التي
يمر بها نضالنا الوطنى الآن ، وهى مرحلة صعبة يقترن فيها استكمال مهمة التحرير
مع مهمة التعمير إلى جانب الإعداد للتنمية الشاملة .

والضمان الأکید لنجاح الإعلام فى هذه المهمة هو محافظته الكاملة على السمات
الإيجابية التي حققها مع انتصارات أكتوبر . موضوعية ودقة فى تصوير الواقع ،
وتجنب لاذع واجبة اللغة فى مخاطبة الجماهير . . واستفادة بكل ما توصل إليه علم
الاتصال من فنون مخاطبة الإنسان وتوجيهه ودفعه لتحقيق أهدافه . . .

محمد زكى عبد القادر

الحركة الدائبة فى داخل المجتمع





المجتمعات البشرية في حالة تغير مستمر ، وما يبدو عليها في بعض الأحيان وبعض الحالات كأنه الركود أو التوقف أو التجمد ليس إلا مظهراً لا يدل على الحقيقة . . والحقيقة أن حركة التغير دائبة ودائمة ، تظل تعمل في أعماق المجتمع أشبه بالتيارات التحتية في البحار لا تظهر على السطح ، ولكن انعدام ظهورها لا يعني أنها غير موجودة . وكما أن تيارات الأعماق في البحار تبدو أحياناً ، إذا بلغت النضج ، على صورة أمواج وهزات على السطح ، كذلك تيارات الأعماق في المجتمعات متى بلغت النضج ، بدت على السطح على صورة هزات في المجتمع . وقد تكون هذه التغيرات تعديلاً في تكوين المجتمع وطبقاته وتقاليده وعاداته وعلاقات أفرادهم ببعض البعض الآخر ، وقد تكون في وسائل الإنتاج أو الاستهلاك أو في الأفكار والمعتقدات أو في صور الحكم وأساليبه . وقد تكون جذرية تتناول المجتمع من أساسه فتقلبه رأساً على عقب ، وقد تكون تغيرات تتناول السطح ولا تبلغ الأعماق ، تبعاً لما إذا كانت عامة أو خاصة ، ضعيفة أو قوية ، تغيرات دينية أو ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية .

والمجتمع الراكد لا وجود له ، لأن الركود مخالف لطبيعة الحياة ، والحياة

ليست إلا الحركة . وقد تسمع بعض الناس يقولون لك إن هذا المجتمع أو ذاك مجتمع راكد . وهم يعنون مظهره الواضح على سطحه ، ولكنهم لا يعنون الأعماق المستكنة في داخله ، فإنها لا يمكن أن تكون راكدة لا تتحرك . . قد تكون حركتها بطيئة أو متعثرة متمهلة ، ولكنها لا يمكن أن تكون ميتة لا تتحرك .

وقد روى التاريخ قصة مجتمعات تدهورت أو تبددت أو بادت بالغزو أو القهر والتسلط ، وفناؤها هذا لم يجئ من داخلها ، ولكن جاء من قوة خارجة عنها لم تستطع الصمود في وجهها ومقاومتها ، ومع ذلك فإن كثيرين من المفكرين ينكرون فناء المجتمع ، أى مجتمع ، على هذه الصورة ، ويرون أنه إذا كان قد تبدد كمجتمع متميز ، فقد ذاب في غيره من المجتمعات واستأنف مسيرة الحياة في صورة جديدة ، وطبقاً لهذا الرأي فإن الحضارات لا تموت ولكن تذوب في غيرها أو تنتقل إليها .

على أن هذا بحث فرعى لا مجال له فيما نحن بصددده وقرنناه آنفاً ، وهو أن الحركة الداخلية في أى مجتمع إنسانى لا تتوقف ، وأنها حركة دائبة مستمرة . تستمد قوتها من بيئة المجتمع وتكوينه ومن تفاعله مع الظروف المحيطة به من الخارج ، وأنه حتى في الفترات التي يبدو فيها كأنه ميت لا ينبض ، جامد لا يتحرك ، يكون في واقع أمره نابضاً بالحركة سائراً في طريقه إلى التغيير والتطور .

ونخذ الطبيعة والظواهر الطبيعية مثالا ، فإنها هي الأخرى في حركة دائبة مستمرة خفية في أكثر الأحيان ، ظاهرة في بعض الأحيان ، الزلازل والبراكين والعواصف والزوابع والأمواج العاتية التي تفاجئنا في وقت نحسب فيه أن كل شيء هادئ ، هل وقعت من غير مقدمات ؟ الزلزال الذي هز الأرض ودمر المساكن ، البركان الذي اشتعل فجأة فأحرق وأرسل الحمم ، العواصف والزوابع والأمواج التي أعقبت فترات سكون شامل غامر ، هل كل هذه الظواهر وقعت فجأة كما يبدو ، أو أنها جاءت تتويجاً لتحركات قديمة في باطن الأرض أو في أطباق الجو ، ربما بدأت منذ أشهر أو منذ سنين ؟ الجواب الصحيح الذي يشبه العلم ، أن هذه الظواهر حصاد عمليات دقيقة كثيرة شاملة تمت في خفاء إلى أن آت لها أن تظهر . وكذلك الأمر في المجتمعات البشرية ، تقوم فيها الثورات والانتفاضات

والحركات الشعبية وتبدو كأنها ابنة ساعتها ، والواقع أنها حصيلة عملية طويلة بطيئة معقدة تمت في المجتمع ، في داخل المجتمع ، بين طبقاته وأفراده ، وأخذت تنمو شيئاً فشيئاً إلى أن بلغت مداها فكان الانفجار .

إن نواميس الحياة واحدة لا تتخلف ولا تختلف ، تجري على الطبيعة ، كما تجري على الكائنات الحية : الإنسان والحيوان والنبات ، وتأمل كيف يتسلل المرض إلى الجسم ، وكيف يظل فيه خفياً يفعل فعله ، ثم يظهر فجأة على صورة ألم أو ضعف أو عجز . . تأمل كيف تسرى الصحة والعافية في هذا الجسم نفسه شيئاً فشيئاً . إن أيهما لا يظهر فجأة ولا يبلغ مساره في لحظة أولحظة ، ولكن يحتاج إلى وقت ، المرض كالعافية ، كالنمو بالنسبة للأطفال في الإنسان وبالنسبة للنبات في مملكة النبات . والعواطف نفسها ، كالحب والكره والانتقام والغدر والخيانة ، وما شئت من سائر العواطف تنمو داخل النفس والقلب كما ينمو سائر الكائنات الحية ، فإذا بلغت المرحلة التي لا بد لها فيها أن تعبر عن نفسها ، ظهرت وجداً وهياماً أو سهداً أو غيظاً وحقدًا أو تفكيراً في الانتقام والغدر . كل شيء ينمو في بؤرته ، والمجتمع بؤرة تموج بالكثير من الانفعالات والانتفاضات يكبت بعضها ، لأن الظروف لا تسمح بغير الكبت ، ويأذن لبعضها بالظهور لأنه لم يعد يتحمل المزيد من الكبت .

ولئن كانت النواميس العامة التي تخضع لها المجتمعات البشرية واحدة ، إن مسيرة كل منها تختلف عن مسيرة الآخر تبعاً لظروف نشأته وتكوينه ووضعه الجغرافي ومدى استجابته للحوادث والأحداث ، ومدى ما ثبت فيه بمرور الزمن من صفات وخصائص ، كسبها من الجنس الذي ينتمي إليه والمناخ الذي يعيش فيه ، والموقع الجغرافي والحضارى والثقافى الذى كان من حظه أن يوجد فيه ، فالشعب الذى عاش فى سهل زراعى منبسط يكتسب خصائص وصفات غير الشعب الذى نشأ وعاش فى الصحراء وعلى قمم الجبال ، والشعب الذى عاش راحلاً لا استقرار له جرياً وراء الخضرة والرزق ، غير الشعب الذى عاش مستقراً يجد رزقاً يفيض عليه باستمرار ودون انقطاع من زراعة ميسرة أو صناعة ناجحة . . والشعب الذى تقع أرضه فى طريق الغزوات ، واضحة فى الدنيا مطمعا للطامعين ،

غير الشعب الذى وجد فى ركن بعيد عن الغزوات والمطامع . . . وهكذا دون مزيد من ضرب الأمثلة تتكون للمجتمع شخصية وتنشأ لأفراده صفات وملكات وخصائص ترجع إلى ظروفه الطبيعية والجغرافية والسياسية .

وقد رأينا كيف أدى اكتشاف البترول فى بعض المناطق إلى إحداث تغييرات كبيرة فى مجتمعها ، أصابت الأخلاق والسلوك والتصرف والعادات الاجتماعية والدينية والمعتقدات السياسية والاقتصادية . . . إن المجتمعات حساسة كالرادار ، وأى تغيير يقع على سطحها سرعان ما يتسلل إلى أعماقها ، وأى حادث خارج منها أو بعيد عنها سرعان ما يترك أثره فى داخلها . . . وقد أصبحنا فى عصر تقاربت فيه الشعوب واقتربت وتداخلت وتعارفت بالسياحة والإذاعة والتليفزيون والصحافة والكتاب والسينما ، بل أكاد أقول وبالحروب أيضاً ، بالاتفاق والاختلاف ، منبر « الأمم المتحدة » فى نيويورك يجمعهم من شرق ومن غرب ، فلم يصبح أى مجتمع من المجتمعات بمنأى عن التأثير بأى حادث فى العالم ، وإن بدا بعيداً عنه . . . الأفكار السياسية والاقتصادية ، والاتجاهات الثقافية أياً كانت تترك طابعها على المجتمعات ، تتأثر بها بصورة أو بآخرى وبأسرع مما كان التأثير والانفعال فى العصور السابقة .

إن ما يحققه مجتمع فى مجال التطور والتغيير فى هذا العصر يتم فى زمن أقرب وأسرع عشرات المرات مما كان يتحقق فى عصر مضى ، وليس من المحتم أن يتم التغيير بالثورة العنيفة والتصادم بين الطبقات بعضها ببعض الآخر ، بل يقع فى بعض الأحيان أو فى أحيان كثيرة بالتغيير الهادئ دون ثورة أو عنف . وانظر إلى علاقة المرأة بالرجل ومقاييس الحب والزواج والسفور ونزع الحجاب والاختلاط بين الجنسين والمصارحة والمكاشفة بالعواطف والنظر إلى الجنس . . . تأمل أية تغييرات حلت بالمجتمعات فنقلتها من اليمين إلى اليسار ، ومن المحافظة الشديدة إلى التحرر والانطلاق . . . كانت المرأة فى بعض البلاد محجبة من رأسها إلى قدمها ، فأصبحت اليوم متحررة من الحجاب وغير الحجاب . كانت لا تظهر فى المجتمعات والطرقات ، فأصبحت تغشى المجتمعات والطرقات . كانت

لا تعمل ، بل كان العمل عليها محرماً وكان عاراً تحاذر أن تقع فيه ، فأصبحت اليوم تعمل في كل مجال وكل مكان . وكان التعليم محرماً عليها فأصبحت الآن تبلغ أعلى درجات العلم والتعليم ؛ وقد ترك هذا أثره على مناهج السلوك والتصرف وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ومقاييس الفضائل والردائل ، كما ترك أثره على العادات والتقاليد ، فغير منها وعدل وألغى وأحل محل ما عدل أو ألغى عادات وتقاليد جديدة .

وهذا مثل من التغيرات المستمرة المتدرجة في المجتمعات والتي تبلغ ما تبلغ في هدوء ومن غير ضجة أو ثورة أو تبلغها بضجة أو ثورة لا تبلغ مرحلة العنف العنيف . وهناك أمثلة أخرى على التغيرات المستمرة في المجتمعات تتناول علاقات الإنتاج والاستهلاك والروابط الأسرية والأخلاق والعلاقات بين الحاكم والمحكوم . وفي عبارة موجزة تتناول كل صور الحياة في الداخل والخارج .

وقد يصعب على أي مراقب ينظر من بعيد أن يرى شيئاً من هذه التفاعلات والتغيرات ، ولكن يستطيع أن يحسها ويقيسها إذا عرف مجتمعاً من المجتمعات في فترة معينة ثم غاب عنه لأي سبب من الأسباب ، عشرين أو ثلاثين سنة أو حتى عشر سنوات ، وعاد إليه لكي يرى ما صنع الله به ، إنه سيرى حتماً فرقاً بين ماضيه وحاضره ، وسيرى التغير واضحاً ، وهو ما لم يكن ليراه لو عاش هذه السنوات العشر أو العشرين أو الثلاثين ملازماً إياه لا يرحه ، تماماً كما ترى طفلاً في الرابعة من عمره ثم لا تراه إلا بعد خمس سنوات أو عشر سنوات ، فإنك ستراه حينئذ قى تغير في كل شيء وما كان في استطاعتك أن تراه في نموه المستمر البطيء غير المحسوس لو عشت معه هذه السنوات الخمس أو العشر .

وكما أن بنية الطفل ووزنه ووراثاته وصحته والبيئة التي يعيش فيها والعناية التي يلقاها أو الإهمال الذي يكون من حظه أن يلقاه ومقدرته على التفاعل مع النمو الطبيعي بمرور الزمن أو التأثير بالحوادث الخارجة عنه والطارئة عليه ، كل أولئك يحدد مساره والتغيرات التي تحل به ، كذلك المجتمع فإنه شبيه به لا بد من حساب مكانه في الدنيا والظروف التي عاش فيها والثروات التي وهبتها إياه الطبيعة والصفات

التي كسبها أو اكتسبها مع مضي الوقت أو ميراثاً من أسلافه الخالص ، أو ممن طراً عليه من الغزاة أو الوافدين أو المهاجرين ، كل أولئك متفاعلاً مع نوع الحكم الذي خضع ويخضع له مفروضاً عليه أو باختياره وإرادته ، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى متعاوناً معها أو في حرب أو خلاف بينه وبينها ، وقدرته على الامتصاص أو عجزه عنه وجنوحه إلى التقدم أو إصراره على الرفض - لا بد أن نضع في الحساب كل أولئك ونرجع إليه أو نقيس به ما طراً عليه من تغير وتطور جذري أو سطحي ، عميق غامر شامل ، أو مقصور على طبقة معينة أو طبقات .

وقد حاول بعض العلماء والمفكرين أن يقسموا المجتمعات البشرية تركيزاً على الجنس واللون ورأوا أن الجنس واللون يحمل كل منهما لأصحابه سمات وصفات ومميزات معينة ، وأنه لذلك يمكن القول إن هناك جنساً أرقى من جنس ولوناً أقرب إلى التقدم والحضارة والتطور وأدنى إليه من لون آخر ، ولعل النازيين في ألمانيا هم أكثر من روجوا لهذه النظرية في الثلاثينيات من هذا القرن واعتمدوا كأحد مراجعهم في هذا الشأن كتاباً ألفه الكونت « آرثردي جوبنيو » في منتصف القرن الماضي أطلق عليه اسم « عدم المساواة في الأجناس البشرية » *The inequality of Human races* ادعى فيه أنه قادر على التمييز بين ثلاثة أنماط من الأجناس : الأسود والأصفر والأبيض ، وراح ينخص كلا منها بصفات وأخلاق وقسمات وجه وجسم معينة . إلا أنه سرعان ما ثبت فساد هذا الادعاء ، وأضحت وجهة النظر العلمية المعتمدة في هذا الشأن تلك التي عبر عنها جولييان هكسلي و أ . ك هاودن في كتابهما نحن الأوروبيين *We Europeans* وأولهما عالم في الأحياء والثاني متخصص في علم الأجناس ، وجاء فيه أن مسألة الأجناس التي اعتبرت بعض الإنجازات الهامة في القرن العشرين ، منسوبة إلى اكتشافات العلم ، لم تكن إلا أكذوبة علمية .

فإذا أهملنا مسألة الجنس واللون عند الحديث على التغيرات في المجتمعات وتطورها ، فنحن نفعل ذلك اعتماداً على البحث العلمي وليس انسياقاً وراء العواطف أو الانتماء ، على أن إهمالنا الجنس أو اللون بحسبان أيهما يستتبع خصائص أصيلة ، لا يعني أننا نهمل أثرهما بحسبانهما كانا ولا يزالان سبباً أوقع بالأجناس

الملونة من القهر والكبت ووضاعة النظر إليها من الجنس الأبيض ما عوق التطور والتغيير في مجتمعاتها ، وكان عبثاً عليها وثقلاً في أقدامها .

نخلص من ذلك إلى أن كل تكوين اجتماعي يتأثر في تغييره وتطوره ، إلى جانب حركة النمو الطبيعية التي أودعت في كل الكائنات الحية ، بالكثير من العوامل يمكن إجمالها فيما يلي :

- ١ - الموقع الجغرافي والاستراتيجي والمناخ والثروات الطبيعية وكثافة السكان .
- ٢ - الحرفة الغالبة وما إذا كانت الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو الرعي أو الصيد أو خليطاً من هذا وذاك ، وما إذا كانت الأرض سهلاً مستوياً ، أم جبلاً وتضاريس ، وما إذا كانت تعتمد على النهر أو على المطر منفتحة على العالم أو متروية في ركن منه .

- ٣ - التطور الحضاري والثقافي والديني والسياسي والاجتماعي الذي مرت به .
- ٤ - تاريخها القديم والوسيط والحديث وصلاتها بما حولها ومن حولها وتفاعلها معه ومعهم .

وعلى ضوء هذه العناصر نتحدث عن مصر وما أصابها من تطور أو أصابته من تطور في تاريخها الطويل العريق القديم قدم الحضارة الإنسانية نفسها حتى أضحت ما هي عليه اليوم .

وقد نشأ العمران أول ما نشأ في الدنيا في أحواض الأنهار ، وفي أحواضها نشأت الحضارات ؛ فصر تعد ، بهذه المثابة ، من أقدم البلاد في الدنيا ، ويقدر الباحثون أن الثورة الزراعية بدأت منذ عشرة آلاف سنة والمقصود بالثورة الزراعية المرحلة التي بدأ الإنسان فيها يستنبت أغذيته من الأرض ، أعني بدأ يعرف الزراعة ، بعد أن كان فيما قبلها مجرد جامع للطعام من الأشجار والنباتات ومجرد صائد من المياه والأنهار يأخذ منها ما كان يصادفه دون عمل أو مجهود أو تفكير أو تنظيم ، ثم بدأ يزرع الأرض ويسيطر عليها ويتحكم فيها . وهذه ثورة من أعظم الثورات أثراً في العالم ، بل تعد أول ثورة فيه ، ومع ذلك تمت في هدوء وتلقائياً من غير صدام أو عنف .

وإذا صح هذا التقدير ، كانت مصر من أقدم البلاد إن لم تكن أقدمها جميعاً في معرفة الزراعة وتحقيق ما سمي بالثورة الزراعية في العالم ، فتاريخها المعروف يمتد سبعة آلاف سنة ، نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . وفي هذا الزمن السحيق عرفت مصر الزراعة والرى وتنظيم ماء النهر وجمع المحصولات وإقامة المدن والقرى ، أعنى عرفت الحياة المدنية المحكومة بالقوانين والعادات والتقاليد ، وأنشأت مجتمعاً متكاملًا ، قائماً على معرفة الحق والواجب والنظام وعرفت الحكومة صاحبة السلطة والحاكم الذى تخضع له وتدين بالولاء . وعرفت الدين والعبادة وأقامت الهياكل والمعابد ، وصحت لها أولى الرؤى في العالم على الحياة وما بعد الحياة ، ومن فراعينها القدماء من اهتدى إلى فكرة التوحيد قبل أن تجيء بها الأديان السماوية بآلاف السنين . وفي القصة المصرية والأدب المصرى القديم والعبادات المصرية القديمة ، نرى الوصايا والعظات والاتجاهات السلوكية والأخلاقية وفكرة الثواب والعقاب .

وعرفت الحرب والسلام ، غزت من حولها وغُزيت ممن حولها ، وكانت منذ تاريخها القديم منفحة على العالم بما لها من سواحل على البحرين المتوسط والأحمر ، وبما يجتازها من طرق برية تصل بينها وبين الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وطوع لها موقعها الممتاز وحضارتها القديمة ونهرها ووجدانها الدينى العميق وثقافتها الضاربة في أعماق الزمن أن تكون الرائدة في المنطقة ، تؤثر فيها وتتأثر بها ، ثم إن موقعها الاستراتيجى الممتاز جعلها مطمعاً للغزاة من المغامرين والقاتحين ، فتتابع عليها الهكسوس واليونان والرومان ، ثم كان الفتح الإسلامى فدخلها الإسلام ، وكانت المسيحية من قبل صاحبة أديرة وكنائس وقسس وكهنة ، وكانت الإسكندرية مناراً يشع على العالم حينئذ المعرفة والفكر .

وما من بلد حوى من الآثار ما حوته مصر ، وما من بلد اجتمعت فيه الأديان والتقت الحضارات كما اجتمعت والتقت في مصر ، وإنك لتستطيع أن تراجع تاريخ العالم كله على ثراها ، تاريخ حضارته وأديانه ، تاريخ علمه ومعرفته . . . الحضارة المصرية القديمة ، الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية ، والحضارة القبطية

والحضارة الإسلامية ، والحضارة الحديثة .

وبعد الفتح الإسلامى ودوله ومذاهبه ومساجده ومعاهده وثقافته وروحه ووجدانه ، جاء الفتح العثمانى بحكامه وأحكامه ، وجاءت الممالك ، ثم كان الغزو الفرنسى ومحمد على ودولته وحروبه وانتصاراته التى بلغ بها سوريا وفلسطين وكاد يبدق أبواب الآستانة ، فتحركت أوروبا تصد هذا المارد وتكبته وترده عن التوسع ، لا كراهية فى التوسع ولكن خوفاً من إمبراطورية تتزعمها مصر ، فتردّ الغزو الأوروبى عن الشرق وترد الاستعمار الأوروبى عما كان يعد له من الاستيلاء على مصر وعلى الإمبراطورية العثمانية أو ما بقى من أطرافها المشتتة فى الجزيرة العربية وشمال أفريقيا والسودان .

وجرت الحوادث بعد ذلك متأنية تارة ومتعجلة تارة ، وجاء الخديو سعيد وبعده إسماعيل وتم حفر قناة السويس ، فازدادت أهمية مصر ، وأصبحت مطمعاً أكثر مما كانت فى كل تاريخها القديم ، وأصبح من يملكها أو يسيطر عليها ، إنما يملك ويسيطر على أغلى بقعة فى العالم تفتح أمامه مغاليق الشرق والغرب ؛ وكان الاحتلال البريطانى والمنافسة الحادة العنيفة بين فرنسا وإنجلترا والحسد العنيف الحاد من الدول الأوربية الأخرى الطامعة - كانت مقدمة هذا الاحتلال أو ذريعته ودعواه الثورة العربية ، وأخذت الثورة واستسلم الشعب المصرى ، أو بدا أنه استسلم ، ثم جاء مصطفى كامل فأشعل الجذوة التى ظن الجميع أنها انطفأت . فى حين كانت تتوهج تحت الرماد . وقامت الحرب العالمية الأولى وأعلنت بريطانيا حمايتها على مصر ، وظنت أنها قضت على كل مقاومة ، وقال كرومر إن مصر لا تصلح إلا أن تكون تابعاً . . . وإن المصريين لا يصلحون لحكم أنفسهم ودهش العالم حينما قامت ثورة ١٩١٩ ، وقال بعض البريطانيين إنها شعلة تطفئها بصقة ، ولكن زعامة سعد زغلول استعصت على الإمبراطورية العظيمة ، فخضعت لها وألغت الحماية وأصبح زعيم الثورة أول رئيس مصرى خالص الدم والأرومة للوزارة ، وبعد جهاد طويل لم يتوقف طلباً للجلاء قامت ثورة الجيش فى سنة ١٩٥٢ فحققت الجلاء ، إلا أن المستعمرين حاولوا أن يعودوا

مرة أخرى بالاتفاق مع إسرائيل التي أقاموها رجاء أن تكون شوكة ، توقف نمو الشعب المصرى وتحربه ، فدبروا عدوان سنة ١٩٥٦ ، وكان إخفاقه صدمة قاسية أوغرت صدورهم ، فأعدوا إسرائيل للقيام بعدوان سنة ١٩٦٧ ، وكانت نكسة أصابت الشعب فى صميم وجدانه وكرامته ، وحسب الجميع أنها القاضية ، ثم كانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فارتد للشعب الإحساس بالعزة والكرامة .

وإنما أوجزنا فى هذا القدر القليل تاريخ مصر لكى ندل على أنه تاريخ حافل عجيب رهيب ، لم يسبق أن تعرض شعب أو تعرضت دولة لمثله أو لأقل القليل منه وخرجت منه كما خرجت مصر ، قوية عزيزة مشخنة بالجروح ، ولكنها لم تفقد إيمانها بنفسها وروحها ووجدانها الذاهب فى القدم أبعد مذهب .

وسنحاول أن نفسير التغيرات التى حلت بالمجتمع المصرى طوال هذا التاريخ ومراحله المتعددة . . إن الزراعة التى كانت حرفة المصريين منذ أبعد الأجيال ، ونهر النيل الذى لم يقف أو يتوقف طوال هذه الحقبة عن أن يؤدى الخير والنعمة للذين اعتاد أن يؤديهما لسكان هذا الوادى . . الزراعة والنهر جعلاً من هذا الشعب شعباً أصيلاً عريقاً ، يصمد ويصبر ولكنه لا يستسلم ، يكافح ويجاهد ، وينام ويستيقظ ويطاول الظالمين والمستعمرين ولكنه لا يجثو أمامهم . طرد الهكسوس بعد أن صبر عليهم وصابرهم ، وظنوا أنهم أسياده إلى الأبد ؛ وطرد اليونان والرومان والمماليك والفرنسيين والإنجليز والأتراك وظل كما هو ، امتص من امتص منهم وذهبوا وبقي بأصالته وتقاليده وآدابه وآماله وتطلعاته ورأسه المرفوع ، وطرد أسرة محمد على واسترد حقه فى حكم بلاده وهزم الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين حينما كانوا عصابة ، وهزم الاستعمار فى كل أشكاله بالصبر والصمود والإيمان .

امتص من كل الأقوام التى غزته وداست ترابه المقدس بأقدامهم كل ما لديهم من جديد ، ولكنه رفض أن يخضع لهم ولم يستطع أى منهم أن يترك طابعه فى روحه ومعتقداته ، بل جاءوا وذهبوا عنه وكأنهم أشباح الأساطير ، وليس معنى ذلك أنه لم يتأثر بهم ولم يأخذ عنهم أو يتقدم ويرتقى ، كلا ، إنه تفاعل مع الأحداث والحوادث ومع التغيرات القائمة فى العالم فى كل مرحلة من مراحل تاريخه . .

إن الغزو أو الاقتحام بالنسبة له ، أضحى لطول تتابعه عليه كأنه هزة من رقاد ، ولم يزد على أن أيقظ خصائص المقاومة والصمود مع الانفتاح لامتصاص الجديد الذى لا يمس جوهر الشعب ولا صميم وجوده وكيانه . . هذه بعض سمات المجتمع المصرى التى كسبها بالعراقة وطول الالتصاق بالنهر والزرع والحب الذى بلغ حد الإيمان والقناء فى الوطن وطول المعاناة مع الغزاة أو الفاتحين والطامعين ، ومع الحكام الظالمين والمستبدين .

وإلى جانب هذه الصفات والمميزات كسب من الأرض الزراعية أيضاً سماحة الخلق وبشاشة الترحاب والاستعداد للفهم والتقبل للغريب والجديد مع حرص على ذاتيته ووطنه ومقومات كيانه الخاص ، فإذا عجز عن مقاومة الغازى أو الحاكم الظالم المستبد أمهله أو أهمله وبدا كأنه مستسلم للقدر ، ولكنه فى واقع الأمر ، شأنه معه شأنه مع الأرض ، يحاورها ويداورها إلى أن تجود بالثمر ، ومع الطبيعة التى هى عنصر أساسى فى الزراعة يصبر عليها ويرجوها ويدعوها إلى أن تفيض بالخير والبركة ، فإن أصمت أذن صبر إلى أن يشاء الله بالخير والبركة . . والمتأمل فى تاريخ المجتمع المصرى يرى هذه السمات ظاهرة واضحة ، ويرى فيها تفسير كل ما يبدو غريباً أو غير مفهوم عند المراقبين فى الخارج ممن لا يعرفون سر هذا الشعب ولا عراقة ما ثبت فيه على طول الزمن السحيق الذى عاشه ، وكاد أن يعايش الدهر فيه : انتفاضه ضد الغزاة حتى طردهم ، امتصاصه الأديان والمعتقدات وتقديسه الإيمان بالله موجد الأرض والسموات ، انفتاحه على العالم حوله دون تعصب أو تحيز أو انحراف نحو القسوة والدم . . . وجدت فيه المسيحية أرضاً ، ووجد فيه الإسلام أرضاً ، وعاشت فيه اليهودية فى سلام لم تعرف مثيلاً له فى أى بلد من بلاد العالم . وبعض سر هذا الوطن أنه امتص الطارئى عليه ، فاتخذوه وطناً ، ولم يستطع أحد منهم أن يحوله عن مسيرته أو يأخذه لصفه .

الأتراك والمماليك ومحمد على وأسرته ، على الرغم من أنهم كانوا مسلمين ، ينتمون إلى دين الغالبية الكبرى من أهله ، وأقاموا به دهرًا طويلاً ، أنشأوا المدن والمساجد والقصور والتكايا وتقربوا إلى الشعب بكل أسباب التقرب -

ظلوا في وجدانه غرباء عنه لأنهم نظروا إليه كأنه الأدنى وهم الأعلى ، فظل بهم يداورهم ويسايرهم ويحاورهم ، ويقاومهم كلما أتاحت له الظروف أن يقاومهم ، إلى أن انتصر عليهم بالصبر والسخط والرفض . . . سر هذا المجتمع هو الرفض الظاهر أو الخفي ، الهادئ أو العنيف ، الرفض بالسلب أو بالإيجاب ، ولكنه في كل الحالات لا ينسى حقه ولا وطنه ولا كرامته ، مهما يطل الأمد .

وانظر إليه حينما قاوم الحملة الفرنسية ، وظل بها يداور ويحاور ويسكت ويضج ويهدأ ويثور إلى أن تخلص منها وخرجت صفر اليدين . . وفي هذه الحملة وأمثالها رفض الشعب التسلط والقهر ، ولكنه قبل منها ما اتصل بها من تنوير وفتح للعقول على الجديد الذي لا يتعارض مع إيمانه وتقاليده وآدابه ومناهج سلوكه .

وانظر إليه حينما قامت الثورة العرابية ووقع الاحتلال البريطاني ، وبدا كأن الشعب فقد القدرة على المقاومة أو الرغبة فيها . . هل حدث هذا أو ذاك ؟ الجاهلون بطبيعة هذا المجتمع وظروفه وتكوينه ونشأته وتاريخه ظنوا هذا وذاك . . ولما قامت ثورة ١٩١٩ دهش البريطانيون خاصة ، والأوروبيون عامة ، وراحوا يبحثون عن عشرات الآلاف التي أشعلت هذه الثورة دون أن يهتدوا إلى السبب الحقيقي لها . ولم يكن سوى ما ركز في هذا الشعب من خصائص ومميزات وأسلوب للاحتجاج والرفض وإحساس دائم واضح ، أو غير واضح ، بالغضب والسخط إلى أن وافته الفرصة وأدرك بسليقته أنها الفرصة التي يجب ألا تفوت ، فهبّ وكأنه يستيقظ من رقاد ولم يكن هناك رقاد ولا استيقاظ ، إنما كان إصراراً خفياً دائماً ظل يفعل فعله في واقع المجتمع وكيانه إلى أن انفجر ، أشبه بالزلازل ينمو شيئاً فشيئاً تحت الأرض إلى أن يرج سطحها .

وحينما قامت ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ ، دهش الكثيرون كيف وقعت وكيف كسبت منذ اللحظة الأولى تأييد الجماهير وتحمسها ، ولم يكن هناك مجال للدهشة إلا لمن لا يعرفون طبيعة هذا المجتمع وطبيعة العوامل التي تتفاعل في داخله .

ووقعت الثورة في أخطاء ، وهو أمر طبيعي ، وقعت فيها كل ثورة ، وأحس بها الناس وتحدثوا عنها ، ولكنهم كتموا الحديث والإحساس حتى ظن البعض

أنهم قبلوها أورشوا بها . ولكنها في الواقع ، جرياً على طبيعة المجتمع المصري ، ظلت تسرى بينهم كالتيار إلى أن تهيأت الفرصة للتصحيح ، فلما أعلنه الرئيس أنور السادات كانت الفرحة الغامرة التي دلت على أن شيئاً لم يفت الشعب ، وأنه لاحظ الخطأ وقاومه ، إن لم يكن بالضجيج والإعلان فبالصمت والسخط ، وهذه سمة واضحة من سمات المجتمع المصري . لا شيء يقع إلا ويترك أثره فيه . . . ولا خطأ ولا اعتداء ولا عدوان يقع دون أن يتسرب إلى أعماقه ويفعل فعله في المدى الطويل . . . وما يبدو عليه أحياناً كأنه انتفاضة مفاجئة ليس إلا إنضاجاً لإحساسات ومشاعر وانفعالات قديمة واستجابة لأحداث وحوادث وقعت وظن الجاهلون أو من يأخذون الأمور بظواهرها كأنها مضت وانقضت ولم تترك أثراً ، ولا ينتظر أن تترك أثراً .

وقد أنجبت مصر قادة وزعماء من الطراز الأول مدنيين وعسكريين قادوها في الأوقات العصيبة ، أنضجتهم على طول تاريخها القديم والوسيط والحديث ، والانتفاضات والثورات الحديثة أوضح مثل على التجاوب الأصيل الأمين بين الشعب وزعمائه . حتى لا يكاد الإنسان يعرف من الذي أخذ أو أعطى أكثر ؟ من الذي أيقظ الآخر ؟ هل هو الشعب أو الزعيم ؟ . . . كانت عملية امتزاج بارعة بين المجتمع الذي ماج بتيارات عميقة أمداً طويلاً أو قصيراً حتى إذا آن للبخار المكثوم أن ينفجر تولاه الزعيم أو القائد الذي اختاره القدر ليتم التفجير على يديه . . . لم يكن شيء يأتي من خارج المجتمع . . . لا الزعيم ولا القائد أتى بشيء دخيل على المجتمع ، ولا المجتمع تفاعل واتفجر بشيء دخيل عليه . كل منهما : الزعيم والمجتمع ، ينتمي إلى أرومة واحدة ، إلى غرس واحد ، كان صوت الزعيم في ارتفاعه وصفائه ونفوذه ، آخذاً في الارتفاع والصفاء والنفوذ من الشعب ، فيه اجتمعت القوة والعزة والشجاعة والتضحية ، ليست منه ولكن من الشعب ، وحتى إذا كانت في الظاهر منه فقد نمت فيه كما نمت في الشعب ، كان أشبه بالغرس يرتفع عن الأرض ويطاول السماء علواً ، وليس فيه شيء لم يأخذه من الأرض التي أنبتته وكفلته وغذته .

أحمد عرابي والشيخ محمد عبده وعبد الله النديم ومحمد كريم ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وجمال عبد الناصر وأنور السادات ، لا أحد منهم إلا وهو ينتمي انتماء خالصاً كاملاً لهذا المجتمع وتربته . تكامل معه وكمل به . وفي أوقات المحن ، في أوقات الضمور والخوف والاستكانة والسكون ، كان الجاهلون يظنون أن الشعب مات ، وأن المجتمع عقم ، وأن السكون سكون القبر ، والخوف خوف العجز ، والاستكانة استكانة التسليم ؛ ثم يتبين لهم ولغيرهم أن المجتمع كان يغلى من الباطن ، ويضطرم اضطرام الماء تحت النار المحرقة ، لا أحد يسمع الصوت ولا يحسّ الرّكز ، حتى إذا بلغ الماء درجة الغليان كان لا بد أن يبعث له عن متنفس . . المقدمات هي التي تغير المجتمع وليس الحادث نفسه ، أما هذا الحادث سواء كان ثورة محدودة أو ثورة شاملة ، أو كان انتفاضة محدودة أو انتفاضة شاملة فأثره يأتي فيما بعد ، وهو لا يأتي في يوم ولا في شهر ولا في سنة ، إنه يمتد عبر زمن أطول يستمر تفاعل المجتمع خلاله شيئاً فشيئاً .

سبق ثورة أحمد عرابي سنوات من الكبت والازدراء للشعب وسوء المعاملة والتفريق فيها هي التي أدت إلى تغير المجتمع ، ف وقعت الثورة ؛ وما سبق ثورة سنة ١٩١٩ ، سنوات الضغط والقهر والظلم والاعتداء على كرامة الوطن وإذلاله هي التي أدت إلى تغير المجتمع ف وقعت الثورة . . أما أثر الثورتين فتلاهما ، واستمر يظهر من وقت إلى آخر على طول سنوات عدة . . ثورة أحمد عرابي - على الرغم من أنها لم تؤت الثمرة المرجوة منها ، بل أدت إلى نكسة أليمة - كانت هزة عنيفة رجّت المجتمع رجاً ، استمرت آثارها خفية تحت الكبت وتسلط الاستعمار إلى أن كان الانفجار الوطني بظهور مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان الكلام عن الاستقلال الاقتصادي وتغيير الأخلاق والسلوك والتعليم وإنشاء الجامعة الأهلية والدعوة إلى إنشاء الجمعيات التعاونية وبقظة الشعور بالكرامة والاتجاه إلى الحضارة الجديدة في أوروبا . وثورة سنة ١٩١٩ - على الرغم من أنها لم تحقق كل أغراضها - بثت في الشعب روحاً قوياً ظل ينمو وينمو ويشمل الميادين الاقتصادية والثقافية والاجتماعية كافة ، فكان من آثارها إرساء أول حجر في الاستقلال الاقتصادي ،

وإرساء أول حجر في تحرير المرأة وتحرير العقول ، وبداية التخلص من الأساطير والخرافات وتنقية الدين مما دخل عليه وشابه ، وانتشار الوعي وإدراك حق الشعب والمطالبة الدائمة بالديمقراطية والدستور والمناداة بالمساواة بين الجميع والدعوة إلى العدل الاجتماعي ، وكانت بذرة المذاهب الاشتراكية والانفتاح على العالم المتحضر من غير قيود وكثرة البعثات إلى الخارج ، وكان الصراع الدائم بين القصر والشعب طلباً للدستور وحداً من الحكم الأوتوقراطي ؛ ولا ريب أن ثورة سنة ١٩١٩ ، بما بثته في الأمة من رأى وفكر وإحساس بالكرامة وشعور عميق بالحاجة إلى تقليل الفروق بين الطبقات ، كانت إيذاناً وإرهاصاً بثورة الجيش في سنة ١٩٥٢ .

وكانت هذه الثورة أيضاً تغييراً في بناء المجتمع وبنيته ، لم تحدث من فراغ ، ولكنها جاءت ثمرة السنوات الطويلة التي سبقتها ، ثم استأنف المجتمع مسيرته بعدها متأثراً بها متفاعلاً معها ومع ما في داخله من تطلعات وما يستطيعه وبتأييده من إمكانيات . . . ثم جاءت هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ فكانت رجّة عنيفة أصابته في الصميم ، وحملته على أن يعيد النظر في الكثير . وجرت في داخله وتحت السطح تيارات متعددة ، ظلت تعمل وتعمل إلى أن كانت الحرب في أكتوبر ١٩٧٣ ، فبدأت أصالة الشعب وقدرته على امتصاص الهزيمة والمحنة وارتفاعه فوقها . . إن حرب أكتوبر لم تكن حادثاً غير المجتمع ، ولكنها كانت حصيلة تفاعل طويل استمرست سنوات ، وكان حصادها أن استرد المجتمع ثقته بنفسه وقدرته على تخطي الهزيمة . . أما آثار حرب أكتوبر فلا تزال باقية لم تبلغ مستقرها بعد ، وقد تمتد إلى سنوات طويلة ؛ وكما أن آثار ثورة سنة ١٩١٩ ، وثورة سنة ١٩٥٢ وثورة التصحيح في ١٩٧١ لا تزال تفعل فعلها في المجتمع ، كذلك آثار حرب أكتوبر لا تزال تفعل فعلها في المجتمع . . وليس صحيحاً أن المجتمعات تتغير بين يوم وليلة ، وليس صحيحاً أن حادثاً أو ثورة أو انتفاضة أو نصراً أو هزيمة ، تغير المجتمع بين يوم وليلة ، ولكن الصحيح أن هذه الحوادث الخطيرة تكون قمة تغير أو تطور لما سبقها من زمن وما أرهص به من مقدمات ، وتصبح في ضمير الشعب والمجتمع عاملاً جديداً للتقدم والتغيير . . . إن المجتمعات تتغير في بطاء

شديد ، وأحياناً بصورة غير منظورة ، ولكن التغير والتطور كلاهما سائر في طريقه لا يتوقف ، ولا شك أن الحوادث الكبيرة تسرع بحركة التطور ، ولكنه لا يمكن أن يحدث بين يوم وليلة ، فلا بد له أن ينضج في بطن حتى إذا جاء التغير ثبت على أرض صلبة ولم يكن عرضة للنكسات .

وقد اعتبر الجنس البشرى نفسه منفرداً بين الكائنات وأن هناك بوناً شاسعاً بينه وبين الحيوان ، فلإنسان نفس وليست للحيوان نفس ، وهو يمتلك الذكاء وليس للحيوان مثله ، وهو متكلم والحيوان مخلوق أعجم ، ومع ذلك فإن كل هذه المميزات يمكن أن تكون موضع جدل ونقاش ، فمن الحيوانات ما يحس وله وجدان وفيه ذكاء ، ومنه ما يكاد يتحدث . . وإن كان الإنسان ينفرد بأنه مخلوق اجتماعي ، ورد الاعتراض بأن الحيوانات تتميز في بعض صفاتها بروح الجماعة والقطيع .

والحق - كما يقول كنجسلي ديفد - أن الشيء الوحيد الذي ينفرد به الإنسان أنه وحده بين الكائنات الذي له ثقافة ، ومن هذا المنطلق تتعدد سائر الاختلافات والفروق بينه وبين الكائنات الأخرى . فذكاءه يمكن أن يضرب عشرات المرات بتمتعه بميزة الثقافة ، وقدرته على الحديث ليست إلا فرعاً أو تفرعاً على ثقافته ، وحياته الاجتماعية تحكمها الثقافة . . فالثقافة هبة أصيلة تتفرع وتتشعب وتتسلل في حياة الإنسان بالفضائل والمزايا التي تنفرد بها ، وتضيف بعداً جديداً للوجود وتجعل الإنسان شيئاً آخر غير الحيوان ، وهي تتشابك وتتفاعل بل تصنع كل مسالك الفكر والسلوك ، تتلقاها وتنقلها عبر أجيال من الأسلاف ، وتسلمها عبر المستقبل إلى أجيال قادمة ، انتقال دائم بالتصرف والعمل وليس بالوراثة ، إنها ما تتعلمه من الآخرين بالخطاب والحركة والمقال وليس عن طريق الوراثة . إن عش الطير الذي يبنيه نتاج الوراثة ، أما المباني التي يقيمها الإنسان فتحدها الثقافة .

وبهذه المثابة كانت مصر طوال تاريخها مجتمعاً مثقفاً ، تطور وتغير بمقاييس ثقافية عريضة ، عرف منذ نشأته كيف يتبادل مع الآخرين العلم والمعرفة وكان له في أدوار التاريخ الإنساني دور الإنسان الأكثر تسامحاً والأكثر استقراراً والأكثر إيماناً .

د. حسين مؤنس

عودة العربي إلى مكانه في التاريخ





ليلة السادس من أكتوبر ١٩٧٣ نامت مصر وأهلها على الحال الحزينة القلقة التي لم تعرف غيرها منذ يونيو ١٩٦٧ : العدو رابض على جزء كبير من أرض الوطن ، وقابض بيد من حديد على عنق قناة السويس ، ومدافعه موجهة إلى غربى القناة ، وجنوده متحصنون فى خط دفاعى قىل يومها إنه لا توجد على سطح الأرض قوة تستطيع أن تنال منه ، وقادة العدو هناك فى تل أبيب والقدس يخططون ويدبرون على أن قوة مصر - وقوة العرب تبعاً لذلك - قد تحطمت إلى الأبد ، وأن الوطن العربى أصبح بين يديه وكأنه كعكة لينة يقطع منها ما يريد وقتما يريد . .

ومن وراء العدو الإسرائيلى وقفت أمريكا بقوتها العسكرية الهائلة ، ترسل إليه الشحنة بعد الشحنة من أسلحة رهيبة لم يسبق استخدامها حتى فى فيتنام ، بما فى ذلك القنبلة التليفزيونية وصاروخ T.O.W. المضاد للدبابات وصواريخ وول - آى ومافريك وستاندارد وشرايك ، وما إليها مما كان الأمريكان يظنون أن أحداً لا يستطيع أن يقف أمامها . ولهذا اعتبر القوم فى إسرائيل أنفسهم القوة الوحيدة الجديرة بالذكر فى الشرق الأوسط ، واستقر فى نفوسهم أن ذلك يجعلهم سادة المنطقة الفعلين ، وأن مصيرها فى أيديهم ، ولا يمكن أن يجرى فيها شىء إلا بإذنهـم وما يوافق

هواهم . بل لقد قال الكاتب الإسرائيلي وولتر لاكير (بعد حرب أكتوبر) :
« كانت إسرائيل تعتقد أنها القوة العسكرية الوحيدة فيما بين فرنسا والهند » .

وكان العالم كله قد سلم بهذه « الحقيقة » ، واعتبر قضية الشرق الأوسط قضية
منتهية ، برغم الضجيج الكثير الذى يثيره العرب ، فهو ضجيج شعب مغلوب لا يريد
أن يواجه الحقيقة أو يحاول تغيير ما حدث ، وسيخفت يوماً بعد يوم هذا الضجيج ،
ثم يقبل العرب رافعين راية الاستسلام ، فيوقعون الشروط التى يملئها المنتصر . وفى هذا
المعنى قال موسى ديان - وكان إذ ذك فى أوج مجده الزائف بعد حرب يونيو ١٩٦٧ -
« إنها الحرب التى أنهت كل الحروب ، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقابلة
لتقديم فروض الطاعة ، ولا سيما أنهم يعرفون رقم التليفون والعنوان : ٢١ شارع
كابلان ، القدس ! » . وهذه واحدة من كلماته الساخرة اللاذعة التى كان مولعاً
بإلقائها شمالاً ويميناً ، وكان يحسب نفسه إذ ذاك فى طليعة القواد العظام الذين
لن ينسأهم التاريخ . .

حتى هيئة الأمم ، وهى الهيئة التى خلقت لتحرس السلام على الأرض وتحول
دون الاستيلاء على الأراضى وضمها بالقوة ، سلم معظم أعضاء مجلس الأمن بأن
الصورة التى صنعتها إسرائيل (وأمريكا) للمنطقة بعد حرب يونيو صورة نهائية
وغير قابلة للتغيير . وصرح أحد مندوبى الدول الكبرى قائلاً : غريب أمر هؤلاء
العرب ! لقد انهزموا هزيمة قاصمة ، وأمثال هذه الهزائم لا بد أن يعقبها الاستسلام ،
فماذا ينتظرون ؟ وفى أى وهم يهيمون ؟ . . ألم يقرءوا شيئاً من التاريخ ليتعلموا
منه شيئاً ؟ . .

وهذه قالة مريرة ، ولكنها تبدو طبيعية لمن لا يعرف العرب . ولقد صدق هذا
الرجل إذ قال إن أمر هؤلاء العرب غريب ، لأنه فى الحقيقة لا يعرف العرب ،
ولم يحاول أن يعرفهم ، لقد نشأ بينهم ولكنه لم يعيش معهم ، لأنه كان صهيونياً
قحاً ، والصهيونية عقيدة يهودية سياسية تزعم أن اليهودية قومية قائمة بذاتها ، ومادامت
قومية فلا بد أن يكون لها وطن ودولة ، وهذه الدولة لا تكون إلا فى فلسطين قلب
بلاد العروبة ، ولا بد أن تتوسع فى بلاد العرب حتى تزيلهم أو تجعلهم فى مراتب

الأرقاء والمستضعفين في الأرض ، فهي إذن حركة لا عربية : قامت للقضاء على العرب والاستيلاء على ديارهم ، ولباب العقيدة الصهيونية هي كراهة العرب واعتبارهم جنساً يملك أراضى وثروات لا يستحقها ولا بد لليهود من انتزاعها من أيديهم وتملكها .

تحت هذا الحجاب الصهيوني السميك نشأ موسى ديان ودافيد بن جوريون وموسى شرتوك ومناحم بيجين وإيجال آلون وجولدا مائير ودافيد أليعازر وشمعون بيريث ، ومن إليهم ممن رصدوا حياتهم لتنفيذ مشروع الدولة الصهيونية الخادع ، الذي صاغه من مادة الحقد على العرب صحفي فيناوى محموم عاش في أسر هذا الوهم البغيض هو تيودور هرتسيل الذي قضى أيامه يجرى لاهثاً بين فيينا ولندن وباريس وبرلين والآستانة ، ومات بهذا الوهم آخر الأمر كما يموت الإنسان بداء عضال .

وعندما تفكر في الموضوع ، وفي الظروف التي عمل فيها تيودور هيرتسيل وتربى فيها تلاميذه الذين ذكرنا بعضهم ، نجد أن هناك ما يفسر لنا لماذا نشأت في ذهن هيرتسيل وماكس نور داو فكرة الاستيلاء على فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها . فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهو القرن الذي نشأ فيه هيرتسيل وعمل ، كان الوجه الحقيقي للعرب - أصحاب فلسطين - قد اختفى وراء ركام الحوادث المتوالية التي تعاونت على إخفاء الوجه الحقيقي للعربي وانتهت بإخراجه من مسرح التاريخ ، وطرده إلى الصحارى أحياناً ، أو عبوديته في أراضيه أحياناً أخرى .

لكي نفهم هذا نرتد إلى الوراء بضعة قرون لنمسك بالخيط من أوله . ذلك أن العربي الأصيل - عربي الجزيرة - الذي يبهنا بشخصيته وبسالته وملكته الشاعرية في العصر الجاهلي ، ثم يبهنا أكثر بما قام به من أعمال البطولة والذكاء والقدرة على القيام بالعجائب ، عندما دخل في الإسلام وحمل رايته ونشره « من غانة إلى فرغانة » ، كما يقول كتاب العرب ، أو من بلاد الموروس (الأندلس) إلى بلاد الموروس (جنوبي الفيليبين) - هذا العربي الذي ساد الشعوب الساكنة في تلك الأقطار الشاسعة ، بالإيمان والشجاعة وروح السيادة

في أكثر الأحيان ، وبالحرب في أقلها ، هذا العربي الذي بلغ من عمق الأثر الذي تركه في النفوس أن جعل معظم هذه الشعوب تنسى أصولها ولغاتها الأولى وأديانها الأولى وتتحول إلى شعوب جديدة ممن يمكن أن نسميهم العرب الجدد Neo-Arabs : عرباً عراقيين وعرباً شاميين وعرباً مصريين وعرباً بربراً وعرباً أندلسيين ؛ بل في وقت ما في منتصف العصر العربي نشأ عرب إيرانيون وعرب ترك - ثم انتهى بأن جعل هؤلاء جميعاً عرباً فحسب : تمثلهم في كيانه الصغير بعملية ميثامور فونيس فريدة في نوعها في التاريخ ، هؤلاء العرب وصلوا في أواخر العصر الأموي إلى حالة إعياء مفرط : استنفدتهم الحروب وأكلتهم البلاد المتباعدة ، حتى أصبحت جزيرتهم قاعاً صفصفاً تقريباً ، كما يقول ابن خلدون . وعندما قامت الدولة العباسية (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) على أيدي عرب خراسان - لا على يد الفرس كما يظن - كان هذا آخر جهد قام به ذلك العربي المجيد ، الذي شاد من صروح التاريخ ما لم يشده شعب آخر ، برغم أنه كان في هيئته إنساناً صغير الحجم معروق الوجه نحيل الساقين كأنهما عصوان ، ولكنه كان يضم في صدره - الذي كان قفصاً بلا لحم - قلب أسد لا يهاب الموت ، ويضم في رأسه الصغير - نسبياً - حكمة باهرة وذهناً صافياً كأنه سماء الصحراء ، استقر فيه الإسلام فيضاً من النور والفهم لا يفنى ، وتجارب السنين القاسية السعيدة في حياة الصحراء التي علمت الضب الحكمة وعلمت الجمل الصبر والحلم واحتمال المتاعب حتى كان يأكل الشوك ، وجعلت من الحصان صانعاً من صنائع التاريخ . .

قام العربي الأصيل بدوره العظيم وانفق معظم نفسه فيه ، وبقيت من العرب الخالص جماعات صغيرة في البلاد المفتوحة لم تلبث أن اندرجت في السكان ، وبقيت بقية أخرى انسحبت إلى الجزيرة العربية وعاشت متناثرة في أرجائها الواسعة ، وخرجت من ميدان التاريخ واندرجت تحت من نسميهم في تاريخ الإسلام بالبدو أو الأعراب ، وسيكون لبعضهم ظهور جديد على مسرح التاريخ ، كما نرى في هجرة بني سليم وبني هلال إلى مصر ثم إلى المغرب ، حيث قاموا بالتغريبة المشهورة التي أكملت عروبة المغرب ، فأدت بذلك خدمة جليلة لم يدرك أهميتها ابن خلدون

ولهذا حمل عليهم .

وفيما عدا تغريبة بنى سليم وبنى هلال تلك - وقد بدأت من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى - لم نعد نسمع للعرب الخلف ذكرًا حتى مطلع العصر الحديث .

ولكن العربى عندما انتهى دوره وانزوى ، خلف فى الميدان أبناءه العرب الجدد ، الذين استعربوا لغةً وحضارةً وأسلوبَ حياة ، حتى الذين لم يدخلوا فى الإسلام منهم وظلوا محافظين على أديان آبائهم ، استعربوا - كغيرهم - وانتسبوا إلى شجرة العروبة ، وساهموا فى بناء حضارتها بنصيب كبير .

ولكن هذه الشعوب العربية الجديدة - من العراق إلى ساحل المحيط الأطلسى وامتداداتها فى صقلية والأندلس والسودان الغربى والسودان النيلى - كانت فى حاجة إلى وقت طويل حتى تستم تحوّلها وتتمثل الروح العربية السليمة وينصلح تكوينها . لأن التحول كان شاملاً وعميقاً يتناول الشخصية القومية كلها . فمصر - مثلاً - بدأ الإسلام ينتشر فيها لأوائل الفتح ، ولكنها لم تصبح بلداً إسلامياً عربياً - أو مستعرباً - إلا فى أواخر العصر الفاطمى (أوائل القرن السادس الهجرى / منتصف الثالث عشر الميلادى)

خلال العصور التى استغرقها الدخول فى الإسلام والاستعراب ، خضع العرب لنظم سياسية غير سليمة أو غير شرعية . فلا دولة بنى أمية ، ولا دولة بنى العباس ، ولا واحدة من الدول المحلية ، التى ظهرت ابتداءً من النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، وصلت إلى الحكم أو سارت فيه على الأسس الشرعية الذهبية التى قررها الإسلام ، وهى الشورى وإقامة العدل ورعاية مصالح الأمة والذيادة عن حياض الإسلام والعمل على نشره فيما يلى حدود دار الإسلام ، فهى دول كانت تصل إلى السلطان بالعنف وتحكم الناس بالقهر والقسر ، ولا تخدم إلا أفراد البيت المالك ومن التف حوله من أنصار .

ولكى يستطيع المستبد أن يصل إلى السيطرة الكاملة على الناس ، عن طريق العنف والإرهاب ، لجأ إلى استخدام الجند المرتزق ، الجند المأجور الذى يعمل

لحسابه ، فاشترى الرجال الأشداء من أجناس عرفت بضخامة الأجسام والضرارة في الحروب ، من الترك والسودان والرقيق الأوروبي المسمى بالصقالبة ، واشترى الأطفال الأجانب أو أخذهم بالقوة ورباهم تربية عسكرية ونشأهم على الإسلام ليكونوا جنداً له ؛ وبهذا أصبح السلطان وجنده في جانب والشعب المحكوم في الجانب الآخر . وحرص السلطان في كل بلد إسلامي على ألا يجند من أهل بلده ، خشية أن تدفع الجند العصبية القومية إلى العطف على مواطنيهم .

وهكذا نشأت الشعوب العربية في ظل الإرهاب وعاشت فيه ، ونظرت إلى الحاكم - دائماً - على أنه عدو ، ونظر إليها الحاكم على أنها « رعية » أي قطع من الغنم ، ينبغي أن تعيش كما يعيش قطع الغنم ، وتتصرف على أنها غنم ، فإذا رفض واحد من الرعية أن يكون في جملة الماشية قضى عليه في الحال على أنه ثائر أو خارج على الطاعة أو متمرّد . ولم ينبج من هذا المصير الأسود إلا الشعوب التي عاشت في بلاد فقيرة لا مطمع في ثروة فيها مثل جزيرة العرب ، وتلك التي عاشت في مناطق جبلية يصعب على جند الحاكم السيطرة عليها ، وشعوب الأطراف التي كانت تستطيع الفرار إلى المجاهل عند اقتراب جند الدولة .

هذه الظروف السياسية خلقت أوضاعاً اجتماعية وخلقية سيئة نجدها في كل بلد إسلامي في العصر الوسيط ، مثل النفاق واحتمال الظلم في استكانة واستسلام ، والتهافت على الشيء القليل والتواكل والأنانية والكسل ، وخدمة الأقارب على حساب المال العام ، وعدم الشعور بالمجموع وما إلى ذلك . وكل هذه ليست صفات أساسية في الخلق العربي أو الإسلامي ، ولكنها وسائل لجأ إليها الإنسان العربي لينجو بنفسه من مظالم قوم من الطغاة الجبابرة ، ممن سيطروا على خيرات البلاد وتقاسموها بالقوة ولم يتركوا للناس منها إلا الفتات ، فعم الفقر الناس ، ومن الفقر نشأت أخلاق الفقر التي ذكرنا بعضها ، وهي أسوأ من الفقر نفسه .

وحرص أولئك الطغاة على أن يحرموا المواطن العربي من شرف الخدمة العسكرية ، زاعمين أنهم هم - وحدهم - الذين خلقوا للحرب ، ولهم - وحدهم - الحق في نيل شرفها ، أما العربي فقد زعموا أنه لا يصلح للحرب ، ناسين أن سيوف العرب هي التي

فتحت بلاد أجدادهم وأخضعها ، وأدخلتهم في ميدان الحضارة وفتحت لهم سبل التقدم .

وبلغ الأمر ذروته عندما قبض المماليك على أزمة الحكم في مصر والشام والعراق ونواح شتى من عالم الإسلام ، فقد استأثر أولئك المماليك بالحرب ، ووضعوا قوانين تحرم على العربي ممارستها ، بل كان المماليك في مصر والشام لا يسمحون للمواطن باقتناء سكين كبير أو هراوة غليظة ، بل بلغ من انحطاطهم الخلق وأنانيتهم أن اشترطوا أن يكون السلطان أجنبياً عن مصر غير مولود فيها ، بل هناك أمراء ممالك لم يؤيدهم الأمراء في الوصول إلى السلطنة لأنهم ولدوا في مصر أو الشام . .

والقصة طويلة ، وتحليلها والكشف عن حقائقها ميسور ، ولكننا نختصر القصة الطويلة وننتهي إلى خاتمتها التي تقول إن المماليك عندما اصطدموا بالأتراك العثمانيين انكشف أمرهم عن عجز عن الحرب وجبن وخيانة وكل ما يشين شرف المحارب . وتحت سنايك الخيل في ميدان مرج دابق - شمالي حلب - مات آخر سلاطين المماليك قنصوة الغوري ، ذلك العجوز الظالم المغرور الذي تستطيع أن تقول إنه آخر رؤساء عصابة الطغاة التي حكمت قلب العالم الإسلامي ، على صورة هبطت بأغنى بلاد الله - إلى ذلك الحين - إلى درك أفقر بلاد الله ، وجعلت العربي - وهو من أعظم الفاتحين في التاريخ - غير جدير بحمل السلاح . . ولكن البذرة الأصلية كانت ترقد في أمان . .

تحت ركाम الفقر والظلم والهوان التي فرضها المماليك ، رقدت جذور العربي الأصيل سليمة صافية يرويها أهل العلم والسير والتاريخ بماء الذكرى والأمل . وفي كيان العربي الذي خضع لحكم المملوك الصعلوك ، والعثماني الذي وهبه الله صفات جميلة نادرة ولكنه حرمه من نعم السياسة وبعد النظر وفهم الشؤون الاقتصادية . . في كيان ذلك العربي ظلت كامنة ذكريات أجداده الميامين أبطال الفتوح الكبرى . ومع هذه الذكريات ، وبين شتى البذرة السليمة ، استكنت أيضاً صفات العربي الأصيل ، من بسالة وأريحية وأنفة وإيمان بالله ورسوله ، رمز خير ما وهب الله البشر من صفات وشمائل . ولقد أكثر الناس عندنا من الكتابة في السيرة النبوية

الشريفة والفتوح ابتداءً من القرن الخامس ، وهذه السير الكثيرة التي بقيت لنا من العصور المتأخرة إنما هي الأوراق التي ظلت البذرة الكامنة ترسلها إلى النور لتحفظ بها كيانها .

وفي القرن الرابع الهجري فتن الناس بشعر أبي الطيب الحسين بن أحمد المتنبي لأنه كان زهرة رائعة أطلعتها البذرة العربية الكامنة ، فكان شذاها يحيي الألوف بعد الألوف من الأجيال التي ذكرنا أنها نشأت في ظلال اليأس والألم والحرمان . وعلى تلك الأوراق وتلك الزهرة وأمثالها ظلت بذرة العربي المقاتل الباسل الشهم الأبى حية لم يمسسها أذى ، في انتظار اللحظة التي يأذن الله - سبحانه وتعالى - لها فتخترق طباق الثرى وتخرج للناس شجرة وارفة الظلال . .

ولقد أتيت لها هذه الفرصة في أثناء عصور الظلم أكثر من مرة ، ولكن الحكام الظالمين كانوا يسارعون إلى إطفاء الجذوة قبل أن تصبح لهباً . وإذا كنا نقول إن الذين طردوا الصليبيين كانوا رجال اليقظة الكبرى من أتابكة الموصل ، ثم عماد الدين زنكى وابنه المجيد نور الدين محمود وخليفته العبرى الفذ صلاح الدين يوسف بن شادى ، فاعلم أن أولئك جميعاً لم يقوموا في حرب الصليبيين إلا بالجزء القليل الظاهر الذى سجله لهم المؤرخون ، وهم من صنائع السلاطين . أما الذى ضعفت قوى المستعمر الصليبي وأنهكه وأتى على خيرة رجاله ، فهو المجاهد العربى المجهول الذى قام بأكثر من النصف فى التمهيد لنصر حطين ، وظل يلهب ظهور المماليك ويذكرهم بواجب الجهاد الأقدس ، فلم يجد بيبرس ومن بعده مناصباً من مواصلة الجهاد ليصبحوا أهلاً للحكم .

وعندما اجتاحت العالم العربى موجة المغول ، كان المجاهدون العرب هم الذين صمموا على خوض المعركة الكبرى عند عين جالوت ، فى حين كان بكوات المماليك يفكرون فى الانسحاب إلى مصر ، حتى خجل السلطان سيف الدين قطز ووبخ فرسان المماليك على جبنهم وقال كلمته المشهورة : « تأكلون خبز المسلمين ولا تذبون عن ديارهم ؟ ! » ورمى بقلنسوته إلى الأرض وقرر دخول المعركة إلى جانب المجاهدين ، فخجل المماليك ودخلوا المعركة بعد أن كان المجاهدون

المجهولون قد كسبوا نصفها . ولهذا لم يغفر المماليك لقطز هذا التصرف برغم انتصاره في المعركة ، وقرروا قتله قبل أن يدخل القاهرة ، فاغتالوه في بلبيس ، لأنه كان قد قرر الانتقام منهم والتخلص من شرهم إذا دخل مصر .

ثم دالت دولة المماليك ، ودخل الفرنسيون مصر في صيف ١٧٩٨ ففضوا على أسطورة المماليك في ساعات ، وتطاييرت بقاياهم هباءً تاركين المصريين في وجه العدو ، فقبل المصري التحدي متردداً أول الأمر ، ثم واثقاً من نفسه بعد ذلك . .

وبينا كانت شراذم المماليك تحاول الاتفاق مع الفرنسيين على مقاسمتهم احتلال البلاد ، قام أهالي القاهرة بثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، وساروا لحرب الفرنسيين بالهراوات والعصى ، فقتلوا حاكم القاهرة الفرنسي ، وأثبتوا أنهم أصحاب البلاد وأهلها الحقيقيون . ولقد استنكر عبد الرحمن الجبرتي ثورة أهل الحسينية على الفرنسيين ، لأن طول عشرته للمماليك جعلت جزءاً من نفسه مملوكياً ، أو قل إنه - برغم ذكائه - كان يأخذ بأخلاق الفقر الرذيلة التي ذكرناها ، ومنها الخوف والجبن والنفاق والتضحية بكل شيء في سبيل سلامة الجلد . ولكن ثورة القاهرة هدت الكيان الفرنسي في مصر ، فاتخذ رجال الاحتلال سياسة جديدة هي التقرب من المصريين وكسب ودّهم ، وبدعوا الحوار معهم في « الديوان » والنظم الحديثة الأخرى التي استحدثها الفرنسيون وتحدث عنها رفاعه رافع الطهطاوى في « مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية » فأحسن الحديث ، وكتابه هذا كله أمل وإشراق ، لأنه أحس أن البذرة قد أطلعت النبتة وأنها تشق طريقها إلى الهواء . .

ومضت أيام الفرنسيين ، ولكن المصري رفض أن يعود إلى غياهب العصر التركي ، وما لبثنا إلا قليلاً حتى رفعنا بأيدينا إلى العرش رجلاً شق طريقه بملكته فأيدناه ، وبتأييدنا قام بإنشاء دولة عربية حديثة فاقت في سنوات قليلة كل ما فعله غير العرب في سنوات كثيرة ؛ وشقت النبتة الأرض ، وظهرت شجرة العربي الأصيل مرة أخرى إلى النور .

وحاول محمد علي الأرنؤوطي وريث مئات السنين من الحكم الأجنبي أن يستجلب الجند من السودان ليكون له - هو أيضاً - جيش مرتزق ، فلم يوفق .

ونصحه الكولونيل سيف مستشاره العسكرى بأن يجند من المصريين قتردد ، ثم قبل وهو موثق بأن المصرى - أو « ابن العرب » ، كما كان يقول - لا يصلح للقتال . ولكن ابن العرب حطم الأسطورة وانتصر على التركى فى معارك كبرى - من نصيبين إلى كوتاهية - واحتل بروسة ووقف على أبواب الآستانة . ومن أغرب ما يحكيه مؤرخ فرنسى كتب كتاباً بديعاً عن « التاريخ الحربى لمحمد على وأولاده » أن محمد على كان يشعر بالأم عندما تبلغه انتصارات المصريين على الترك ، مع أن المصريين كانوا يحاربون تحت رايته ! وعندما قص عليه ابنه إبراهيم أن المصريين الجرحى فى مستشفى أزمير غادروا أسرهم وذهبوا ليشاركوا مع زملائهم السائرين نحو بروسة أنكر الحكاية إنكاراً شديداً ، بل غضب على ابنه إبراهيم وشمته قائلاً : « لقد أصبحت ابن عرب ! » وحسب أن هذه إهانة لا تعدلها إهانة ، ولكن إبراهيم لم يتأثر ، فقد كان لطول عشرته لجنوده المصريين - أو الفلاحين - قد أصبح ابن عرب بالقلب والروح .

وهؤلاء الفلاحون - أو أبناء العرب - هم الذين أنشأوا إمبراطورية مصر فى الحجاز والسودان أيام محمد على ، وإمبراطورية حفيده إسماعيل التى شملت وادى النيل كله من أوغندا إلى البحر المتوسط ، وضمت الصومالات وقبضت بيد على باب المندب وباليد الأخرى على باب الخليج العربى فى أقصى جزيرة العرب شرقاً . هنا ارتد العربى إلى معدنه الأصيل ، ونشرت شجرة العروبة فروعها وعادت تقاليد العسكرية العربية إلى الظهور فى ثوب حديث . ومن أوائل القرن الماضى قامت المدارس العسكرية المصرية ذات التقاليد الباهرة فأخرجت ضباطاً من الطراز الأول ، وفى أواخر أيام إسماعيل كان الجيش المصرى يقارب نصف مليون جندى ، وكان - بالفعل - من كبار جيوش العالم فى ذلك العصر . ولكن إسماعيل ابن إبراهيم لم يكن من نسيج أبيه ، بل كان من نسيج سلفه : عمه سعيد ، وهو نسيج ضعيف غير أصيل لحمته تركية وسداته أوروبية ، فاستمع لنصحائه من رجال الاستعمار الأوروبى - وكان ذلك الاستعمار فى أوجه - وأخذ يستخدم فى القيادات أترাকা وشراكسة ونمساويين وإيطاليين وإنجليزاً ، وحرص على ألا يسند قيادة كبرى

لمصرى خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى زوال عرشه ، حتى إمبراطورية مصر في إفريقية عهد بها إلى ذئاب من أمثال صمويل بيكرورودولف سلاتين واشفاينفورت وتشارلس جوردون ، فلم يكن لهم دأب إلا قطع الطريق على المصرى وإيقافه عند رتبة الضابط الصغير مهما بلغت ملكاته .

ومثل هذه السياسة كان الأوروبيون يتبعونها في بقية بلاد العروبة التي أراد لها الحظ العاثر أن تقع تحت أيديهم ، لأن الأوروبي لم ينس أبداً أن العربى مقاتل عنيد إذا ملك أدوات القتال ، وكما كان المملوك يجرى المصرى حتى من السكين ، حرص الفرنسي في الشمال الإفريقى على أن يجرى أهل المغرب من شبابهم المقاتل بنقلهم إلى معسكرات فرنسية لتدريبهم ، ثم إرسالهم إلى مستعمرات فرنسية بعيدة مثل الهند الصينية لمحاربة أهلها . ووقفت أوروبا كلها إلى جانب إنجلترا عندما تجردت للقضاء على ثورة أحمد عرابى ، ولم يهدأ لها بال حتى قضت على شوكة جيش مصر واحتلت البلاد ، وقامت بعد ذلك بالقضاء على الحركة المهدية وهى توأم الثورة العرابية . وتعاونت فرنسا وإسبانيا في القضاء على حركة الأمير عبد الكريم الخطابى ، بعد أن قضى الفرنسيون وجنود الفرقة الأجنبية على حركة المجاهد العظيم عبد القادر الجزائرى ؛ وأعلنت إيطاليا حرباً شعواء على الحركة السنوسية .

وهكذا عادت أسطورة العربى غير المقاتل إلى الظهور ، واطمأن بال أوروبا ، واجتهد رجالها في تضخيم هذه الأسطورة وترويجها ، بحيث استقر في عقول الناس أن العربى هو بالفعل إنسان غير مقاتل وغير قادر على احتمال مضانك الحروب ، وأن كل هم في الحياة هو الاستمتاع والاسترسال في الملاهى ، وأنه - لهذا - إنسان لا يخشى بأسه ، وأن أرضه - نتيجة لذلك كله - ينبغي أن تكون من حق ناس آخرين أو شعوب أفضل - في رأيهم - تستطيع الانتفاع بأراضي العرب ومركزها الجغرافى الممتاز وما تضمه هذه الأرض من خيرات .

تلك كانت الفكرة عن العرب حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وهذا ما يفسر لنا لماذا طمع اليهود في فلسطين ، ولماذا تمسكوا بها دون غيرها زاعمين أنها أرض الميعاد

بالنسبة لهم وأن ذلك منصوص عليه في التوراة ، ولا حقيقة لشيء من ذلك ، وإنما الحقيقة أنهم حسبوا أن أراضي العرب أراض بلا صاحب ، لأن أهلها غير مقاتلين وهم - بالتالي - غير قادرين على الدفاع عنها ، فهي - على هذا - لقمة سائغة . . وهذا يفسر لنا - أيضاً - لماذا كان الإنجليز يعدون العرب بأن ينشئوا لهم مملكة عربية كبرى ، تشمل الحجاز والشام وبقية أراضي الوادي الخصيب ، في الوقت نفسه الذي أعطى فيه بلفور وعده المشهور لليهود في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ .

لقد كانت مفاوضاتهم مع العرب لهواً وتسلية ، ريثما يتمكنون من خداعهم وإقناعهم بالانقلاب على الأتراك ، ثم تكون أرض العرب بعد ذلك قسمة بين إنجلترا وفرنسا واليهود

وهذه الفكرة - فكرة أن العرب شعب غير مقاتل وغير مستعد للدفاع عن أراضيهم - هي التي جعلت الإنجليز يستهينون بثورة ١٩١٩ في مصر ، وجعلت الفرنسيين لا ينظرون نظرة جدية لثورة سوريا عليهم ، ولم يقتنع هؤلاء وأولئك بأن العربي يضم في إهابه رجل حرب من الطراز الأول إلا بعد أن هزت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كيان الإمبراطورية البريطانية ، وبعد أن قامت تلك الثورة بتحدى الغرب وقوته الاستعمارية تحدياً لم يسبق له مثيل ، عندما أمتت مصر قناة السويس وأسقطت بذلك هيبة الغرب ، وفتحت باب الاستقلال لشعوب إفريقيا وآسيا . هنا أحس الغرب أن العربي المقاتل قد عاد إلى الميدان ؛ وجدير بالذكر أن أوروبا لم تعرف طوال العصور الوسطى أعداء أخطر عليها من العرب والمسلمين ، حتى يمكننا أن نقول إن معظم تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى كان صراعاً مع العرب أولاً ثم الأتراك العثمانيين ثانياً ، وإلى نهاية القرن الماضي كان البحر المتوسط كله ميدان صراع بين أوروبا من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى .

وتأكدت هذه الحقيقة عندما سار العرب في طريق الوحدة وعقدوا العزم على استعادة كل حقوقهم من المستعمرين ، وقد تجلى ذلك في ثورة الجزائر التي انتصر فيها شعب الجزائر الباسل ، بعد سبع سنوات من قتال مرير استشهد فيه نحو مليون شهيد جزائري ، ووقف العرب جميعاً إلى جانب الجزائريين يساعدهم

بأقصى ما استطاعوا .

كل هذا جعل الأوروبيين يعيدون النظر في موقفهم من العرب ، ولكن الوهم القديم - وهم العربى غير المقاتل - ظل يراود نفوسهم فاجتهدوا فى تحطيم عزيمة العرب مستعملين فى ذلك إسرائيل ، فأعطوها من السلاح ما لم يقدموه لأعز حلفائهم ، لا حباً فى اليهود ولكن كراهة للعرب . وصالت إسرائيل وجالت ، وانهزت فرصة خلو يد العرب من السلاح الحاسم وكسبت انتصارات ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وظنت أن انتصارها سنة ١٩٦٧ نهاية الصراع بينها وبين العرب . وخلف خط بارليف وتحصينات الجولان - التى ظنوا أنها سور الصين - استناموا إلى النصر وأخذوا يرسمون بالاشتراك مع حلفائهم - خريطة الشرق الأوسط ، على اعتبار أن هذه المنطقة أصبحت منطقة نفوذ إسرائيل وحلفائها ، وأن أحداً فى المنطقة لن يرفع رأساً إلا بإذنها .

ثم جاء السادس من أكتوبر ، وإذا بالدنيا تنقلب رأساً على عقب . .
المصريون يعبرون قناة السويس فى ساعات ، ويقاتلون كأبسل ما يقاتل الأبطال . .

والجندى المصرى - الذى كانوا يحسبون أنه مجرد فلاح لا يفك الخط - يستخدم أعقد الأسلحة الحديثة بمهارة لم يصل إليها اليهود . .
ونخط بارليف - الذى قالوا إن قوة ما على الأرض لا تستطيع أن تتخطاه - اقتحمه المصريون واستولوا عليه فى بسالة وتضحية وإحكام ، أعادت إلى الأذهان ذكريات اقتحام خالد بن الوليد « لحديقة الموت » المعقل الأخير لمسيلمة الكذاب أيام البطولات العربية الأولى . .

وتحصينات الجولان تهاوى أمام فيالق الجيش السورى الباسل . .

وتصدعت أركان إسرائيل . .

واهتز كيان أوروبا كلها . .

لقد عاد العربى المقاتل الباسل إلى الميدان ، وبدأ يستردّ حقوقه الضائعة . .
واتحدت صفوف العرب وقلوبهم ، ووقفوا صفّاً واحداً ، واستخدموا سلاح

البترول بمهارة أوقعت الغرب كله في ذهول . .

في كلمات قلائل : لقد تغير الوضع السياسي في العالم كله ، عندما عاد العربي المنتصر إلى الميدان يوم ٦ أكتوبر وانتزع راية النصر وسار في الطريق . .
وأخذت أمواج اليأس تتلاشى من قلوب العرب ، وأشرق عليهم عصر جديد .
عصر العربي الأصيل المقاتل الباسل صانع التاريخ . .

وفي كل ناحية من نواحي بلاد العرب سرت موجة النهوض ، وفتح العرب عيونهم على حقائق حاضرمهم ومستقبلهم ، ووضعوا أيديهم على أسرار التكنولوجيا . وعقدوا العزم على أن يستخلصوا آخر شبر من أراضيهم بقوة السلاح . .

تلك هي عبرة حرب أكتوبر ١٩٧٣ / رمضان ١٣٩٣ . .

إنها ليست مجرد نصر ، إنها ميلاد عصر جديد . .

عصر يعود فيه العرب إلى مكانهم في صدارة الأمم ، وهو بالنسبة لأوروبا أمر بالغ الخطورة ، وبالنسبة لإسرائيل والصهيونية نهاية الحلم الكاذب ، وبالنسبة لروسيا تغير شامل في ميزان القوى ، وبالنسبة لأمريكا حكم بضرورة إعادة النظر في كل السياسة الأمريكية بالنسبة للشرق الأوسط ، على أساس أن هذه المنطقة منطقة العرب ، لا سيد غيرهم فيها ، ولا تنتقل فيها قدم عن قدم إلا بما يرون . .
لقد عاد العربي إلى مكانه الجدير به في التاريخ ، وبدأت بعودته صفحة جديدة جداً في تاريخ العالم كله . .

صلا ح حافظ

مستقبل بلا معجزات !





لو كان السادس من أكتوبر « معجزة » ، كما يقال ، ما كان لنا بعده مستقبل !

إن قيمة الحدث التاريخي أنه يجرى حسب طبائع الأشياء ، لا عكسها ؛ في حين أن المعجزة تجري عكس هذه الطبائع ، ولهذا لا تكون إلا حدثاً عارضاً ، ولا يكون لها من بعد أثر أو مستقبل .

عندما أراد العقاد - في كتابه عن عبقرية محمد - أن يدل على نبوة الرسول جعل في مقدمة الأدلة أن العصر كان في حاجة إلى نبي ، وكان محتملاً أن يظهر .

وينطبق هذا القول بحذافيره على أى حدث تاريخي آخر .
فالثورة الأمريكية غيرت وجه التاريخ لأنها جاءت في اتجاه حركته الطبيعية ، حركة الاستقلال القومي . والثورة الفرنسية فعلت الشيء نفسه ، لأن الإقطاع الذي قامت ضده كان من طبائع الأشياء أن ينتهى حكمه . والثورة السوفيتية لم تهز العالم إلا لأن الاشتراكية هي المستقبل الطبيعي لتطور المجتمع الإنساني . ولو كان انتصار أى من هذه الثورات معجزة لما تغير بها شيء ، ولما ذكرها التاريخ إلا على

هامشه كحادث ثانوى عارض .

ونحن فى أيامنا هذه نقرأ مئات الأخبار كل يوم ، ثم ننساها . ولكننا لا ننسى حين يكون الخبر - على سبيل المثال - استقلال الجزائر ، أو هزيمة غزوكوبا ، أو إطلاق أول قمر صناعى ، أو اكتشاف دواء حاسم للسرطان . لا لأن كلاً من هذه الأخبار معجزة ، ولكن لأن كلاً من هذه الأخبار كنا نتوقعه ، وكان حكم التاريخ أن يحدث ذات يوم ؛ فلما حدث شعرنا أن التاريخ خطا إلى الأمام ، وأطلقنا عليه تعبير « الحدث التاريخى » !

بهذا المعنى كانت ثورة يوليو تاريخية ؛

وبهذا المعنى أيضاً كان ٦ أكتوبر يوماً تاريخياً .

كان حكم التاريخ أن يحطم شعب مصر أسوار هزيمته ، وأن يعبر لاسترداد أرضه . ولولم يحدث هذا فى أكتوبر لحدث بعد شهر ، أو سنة ، أو جيل ؛ لأن طبائع الأشياء أن الشعوب لا تقهر ، وأن العدوان لا يدوم ، ولأن طاقة شعب مصر ، والشعوب العربية ، أقوى ألف مرة من طاقة العصابات العسكرية فى إسرائيل . . . مهما كانت مدججة بالسلاح .

ولهذا فإن ما يستحق أن يوصف بالمعجزة ليس انتصار أكتوبر ، وإنما انتصارات إسرائيل السابقة عليه ، فكلها كانت عكس منطق التاريخ ، وكلها - ولهذا السبب - كانت مؤقتة ، ولم يكن لها مستقبل ، ولم تغير شيئاً فى تاريخ المنطقة .

لقد احتلت إسرائيل سيناء كلها عام ١٩٦٧ ، ومع ذلك ظل العالم هو العالم ، لم يتأثر اقتصاده ، ولا تناقضاته ، ولا أساليب تسليحه ، ولا موازين القوى . فيه .

ثم زحف الجيش المصرى فى أكتوبر ، واحتل شريطاً من سيناء . . . فإذا بكل موازين العالم تحتل ، تنهار فيه أحلاف عمرها ربع قرن ، وتتغير استراتيجيات عسكرية وسياسية ، وتؤدى أزمة الطاقة إلى ظهور قوة عالمية جديدة اسمها العرب ، و . . . و . . . إلخ .

لماذا ؟

لأن احتلال سيناء عام ١٩٦٧ كان « معجزة » إسرائيلية . والمعجزات لا تغير التاريخ ، في حين كان استرداد شريط من الأرض في أكتوبر من طبائع الأشياء ، وكان وقوعه إعلاناً بأن التاريخ بدأ يستأنف مسيرته الحتمية ، وبأن الباب قد فتح لتطورات أخرى ، ومستقبل جديد ، مختلف .

إن هذه المقدمة الطويلة كانت ضرورية قبل أن أصوغ تصوري لمستقبلنا بعد ٦ أكتوبر .

فأنا أبني هذا التصور - ببساطة - على اتجاه الحركة الطبيعية للتاريخ . وأعتبر أن مجد أكتوبر هو أنه حرر هذه الحركة من « سجن هزيمة يونيو » ، وقال للتاريخ : تقدم ، واصل مسيرتك !
وفي اعتقادي أن المستقبل الذي فتح أكتوبر الباب أمامه له أكثر من وجه .
وأن كلا من هذه الوجوه يستحق أن نتأمله على حدة . . .

الوجه الأول : فلسطين الديمقراطية

فليكن الوجه الأول فلسطين ، باعتبارها رمز القضية ، ومصدرها ، وشعارها .
إن المستقبل الفلسطيني ، كما يحتم التاريخ ، هو الدولة الديمقراطية التي تجمع كل الأديان . فانفصال الناس دُولاً على أساس أديانهم لم يعد يسمح به العصر . وإسرائيل ، من الناحية التاريخية ، نكسة إلى الوراء . أو مطباً على طريق التاريخ لن يلبث حتى يضيق به العالم ، إن لم يضق به أصحابه أنفسهم .
وقد فتح أكتوبر باب هذا المستقبل عندما أثبت أن إسرائيل اليهودية العنصرية المتعصبة قابلة للهزيمة ، وأنها ليست الحل الذي يضمن الأمن والسلام لليهود العالم .

وقد كان في إسرائيل منذ إنشائها تيار يرى أن « الدولة اليهودية » ليست حلاً لمشكلة اليهود . . مهما تسلحت ، ومهما بطشت ، ومهما استعانت بالقوى اليهودية العالمية ؛ ولكن هذا التيار كان دائماً خافت الصوت ، وكان موضع السخرية .

والآن جاء انتصار أكتوبر يجبر الإسرائيليين على الإنصات إليه ، ويتيح له أن يكون هو المستقبل .

وفي اعتقادي أنه سيجيء يوم يزور فيه العرب تل أبيب وحيفا وبئر سبع ، في دولة فلسطين الديمقراطية ، وسيدكرون يومها أن البداية كانت ٦ أكتوبر !

الوجه الثاني : مصر الاشتراكية

أما الوجه الثاني للمستقبل ، فهو في اعتقادي : مصر الاشتراكية .
إن الاشتراكية هي تيار التاريخ . وفي مصر ابتليت الاشتراكية بأخطاء التصقت باسمها ظلماً . وقبل أكتوبر اتهمت بأنها سبب هزيمة يونيو ، وكاد يكرهها حتى المستفيدون منها ، وكاد زحفها يتجمد إلى الأبد .

لكن أكتوبر أعاد فتح الطريق لها .

فالنصر الذي حققه ثبت أنه كان مستحيلاً لولا وجود القطاع العام ، ومساهماته ، وخضوعه لتخطيط الدولة وتوجيهاتها وتكليفاتها .

وكل ما قاتل به الجيش المصري من أسلحة ومهمات - غير الواردة من الخارج - كان من صنع العمال ، وتوفر للمقاتلين بفضل تضحيات هؤلاء العمال ووطنيتهم وفدائيتهم .

والقوات المسلحة التي حققت النصر كان معظمها من أبناء العمال والفلاحين ، وما كان يمكن أن تنتصر لولا أن العلم أتيح لها مجانياً ، ولولا أن الثورة رفعت مستوى وعيها السياسي والاجتماعي ، وحولتها من أدوات خاضعة إلى قوى حرة شاعرة بكرامتها ومدركة مسؤولياتها الوطنية . وقبل الثورة كان الجندي المصري فرداً في قطيع يساق برغم أنفه إلى قتال لا يفهم سببه . وما كان يمكن أن يتغير هذا الوضع بغير الثورة والاشتراكية .

إن تجربة أكتوبر - باختصار - قد أنصفت الاشتراكية . وأكدت أنه لا بديل ، لكي نستكمل النصر ، من مواصلة الطريق الاشتراكي والتمسك بإنجازاته المادية والبشرية .

الوجه الثالث : مصر العلم

وجه آخر ، ثالث ، لمستقبلنا بعد أكتوبر . . يمكن أن نطلق عليه اسم :
مصر العلمية !

إن اتجاه التاريخ هو العلم . ولم يعد ممكناً أن يحلّ إنسان العصر قضاياها إلا بواسطته . وكل يوم يمضي يكتسب العلم أرضاً جديدة ، ينتزعها من سلطان الخرافات المتخلفة ، والعلم أصبح يفرض نفسه على الحياة اليومية حتى الذين يشككون فيه ، ويعادونه . بفضلهم يأكلون ويشربون ويلبسون ، وإليه يلجأون في الصحة والمرض ، وفي الغنى والفقر . ومهما خطبوا ضده فإن كلا منهم يجاهد لكي يسلّح أولاده به ، ولا يطمئن - في أى تصرف شخصي - إلا إلى أحكامه .

وقد جاء أكتوبر يدفع عجلة هذا التطور العلمي دفعة هائلة إلى الأمام . .
عندما أثبت أن حلم العبور الذي كان مستحيلاً صار ممكناً بالتخطيط العلمي .
درست القيادة ، علمياً ، امكانيات سلاحنا وسلاح العدو ، وأعدت لكل سلاح يتفوق به العدو سلاحاً مضاداً يشلّ فاعليته .

درست خطة الهجوم ، وظروفها ، وموعدها ، على ضوء علمي بحث .
واختارت الموعد بعد حساب علمي دقيق لظروف العدو ، وظروف الجو ، وظروف تيارات الماء في القناة ، وظروف الخط الحصين الذي سيكون على جنودنا اقتحامه . . إلخ .

درست كل شيء بعقلية علمية ، لا تترك شيئاً للمصادفة ، ولا تترك شيئاً للحظ ، أو الأوهام .

وبينما أنصار الجهل والخرافة يهاجمون العلم على أساس أنه ضد الإيمان ، جاء أكتوبر يثبت أنه السلاح الأول للإيمان ، وأنه لا انتصار للدين بغير علم ، ولا قيمة لجهاد إذا كان لا يتسلح به .

ولأن انتصار أكتوبر ما يزال مهدداً ، والعدو يستعدّ كل يوم لمحاولة إجهاضه ، فإن الحاجة إلى العلم صارت أكثر مساساً مما كانت قبل أكتوبر .

ومع كل تطور جديد في قوات إسرائيل العسكرية أصبح علينا أن نتسلق في العلم إلى مستوى أعلى .

ومعنى هذا أن مصر بعد أكتوبر قد صار قدراً عليها أن تعيش العلم أكثر فأكثر ، وأن أكتوبر قد فتح الباب أمامها إلى اللحاق بالعصر ، بل أرغمها على ذلك . . من أجل أن تحتفظ بانتصارها .

الوجه الرابع : مصر الديمقراطية

كسبت مصر حرب أكتوبر دون أن تعلن أحكاماً عرفية ، ودون أن تستخدم السلطة فيها أى قانون من القوانين الاستثنائية .

وقبل هذا كانت القاعدة أن تحكم مصر بالسلطة المطلقة . وكانت هذه القاعدة عكس اتجاه التاريخ ، الذى يقضى بأن الشعوب فى النهاية هى السلطة العليا ، وبأن المستقبل ، فى النهاية ، لديمقراطية الشعب الفقير الكادح . لكن اتجاه التاريخ ، وحكمه ، لم يتح لهما قط أن يفرضا سلطانهما فى مصر .

وثورة يوليو أعظم حدث فى تاريخنا الحديث تمسكت بأن تكون من أعلى ، وبأن تحقق إنجازاتها التاريخية بإدارة القادة وحدهم . واستخدمت عدداً من القوانين الاستثنائية ، والأجهزة غير القانونية ، مما لم يسبق مثله فى تاريخنا كله . وكانت تتصور طول الوقت أنها إذا تخلت عن هذه الأسلحة الباطشة فسيخذلها الشعب ، ويسير مع أعدائها ، وسيتدرج إلى الوقوف ضدها وضد نفسه !

وقد كان هذا التصور المصدر الحقيقى لكل سلبات يوليو وهزائمه ، بما فى ذلك هزيمة ١٩٦٧ ؛ فبالخوف من الديمقراطية حكمت مراكز القوى ، وفرضت على الشعب زعامات « ثانوية الجانب » لا تمثله ، ومنحت السلطة للذيول بدلاً من الأنصار ، بل إنها سجنّت مئات من أنصارها لأنهم « خطرون » ، يؤيدونها من موقع الحرية !

وكانت ثورة يوليو تبرر هذا الخوف من الديمقراطية بمبررات كثيرة ، تحولت مع الزمن إلى نظرية متكاملة . . هى التى قادت فى النهاية إلى هزيمة يونيو القاتلة .

لم يدحض هذه النظرية إلا ٦ أكتوبر .
قبله ألغيت كل الإجراءات الاستثنائية ؛ وخرج المعتقلون من معتقلاتهم .
وأعيد الصحفيون المطرودون إلى أعمالهم . ثم بدأ القتال دون أن تعلن حتى الأحكام
العرفية ! فإذا كانت النتيجة ؟

لم يخلد المعركة أحد ، ولم تحدث محاولة انقلاب ، ولم يختل الأمن ،
ولم تختف السلع ، ولم ينتهز اللصوص المحترفون الفرصة ، وثبت أن الديمقراطية هي
الضمان الحقيقي لوجود جبهة داخلية متحدة ، متفاعلة مع جبهة القتال بصورة
إيجابية .

ومن يومها والديمقراطية في مصر تزداد نفوذاً ، والخوف منها يتراجع حتى يكاد
يختفي . وفي جو الحوار الدائر الآن حول مستقبل الاتحاد الاشتراكي ، والأحزاب ،
وتعديل الدستور ، يبدو واضحاً أن المستقبل في مصر قد صار - بصفة قاطعة -
في اتجاه الديمقراطية ، وأن وجه مصر الحقيقي الحر هو وجهها للمستقبل .

الوجه الخامس : مصر المصرية !

من وجوه المستقبل أيضاً ، بعد أكتوبر : مصر الساحة الدينية . مصر
المصرية .

إن حكم التاريخ هو أن تندثر في العالم فروق اللغة والعنصر والجنس والدين .
وقد حققت مصر في ثورة ١٩١٩ مستوى من الوحدة الوطنية ، والساحة الدينية ،
جعل القسس يخطبون على منابر المساجد ، والشيوخ يخطبون في هياكل الكنائس .
وسقط إلى الأبد ادعاء الإنجليز أنهم في مصر لحماية « الأقلية المسيحية » من
الأغلبية المسلمة !

كان الشعار وقتها : الدين لله ، والوطن للجميع .
لكن ثورة يوليو ، بخوفها من الديمقراطية ، واستنادها إلى السلطة وحدها . .
أتاحت للحاكمين ممارسة فرز المواطنين . فأصبح هناك « متجاوب » و « غير
متجاوب » ، « أهل ثقة » و « أهل كفاية » ، « خطرون » و « غير خطرين » ،

« شيوعيون » و « غير شيوعيين » . وكان حتماً أن تنتهى التقسيمات ذات يوم إلى « أقباط ومسلمين » .

فالنظام الذى يسمح بتقسيم أنصاره إلى فئتين لا مفر من أن يواصل التقسيم إلى أربعة ، ثم إلى ثمانية . ومصالح « الكواليس » التى تقوم بهذا التقسيم لا تتورع - ما دامت السلطة معها - عن اختراع مقاييس جديدة لفرز الناس كل يوم حسب أهوائها . ولا يعنيتها ما تصيب من وحدة الوطن ما دامت تضمن مصالحها الضيقة الخاصة .

وقد وصلت مراكز القوى فعلاً ، قبل سقوطها ، إلى حد استغلال لعبة « الأقباط والمسلمين » . واستخدمتها حسب مصالحها الخاصة . وروجت لها حتى كادت تجهض عملياً وحدة الأمة .

لكن أكتوبر جاء يعيد الأمر إلى نصابه .

عبر الجنود المسيحيون القناة وهم يصيحيون مع زملائهم المسلمين : الله أكبر ! وكان أول شهيد لهجوم الثغرة المضاد ، مسيحياً .

وعين الرئيس السادات ، بعد العبور ، قائداً مسيحياً لأحد الجيشين اللذين عبرا القناة .

توحدت الأمة مرة أخرى على أرض الجبهة . سجلت أرض أكتوبر - بالدم - أن النصر ليس قبطياً وليس مسلماً ، وإنما هو مصرى فقط .

ولا جدال فى أن مستقبلنا - بعد هذه التجربة - سيبدأ مما حققته ثورة ١٩١٩ . والدليل هو المحاولات المشبوهة التى نشطت فجأة ، بعد أكتوبر ، لاختلاق أية هوة بين جناحي الأمة . فهذا النشاط ليس إلا رد فعل - أو « حلاوة روح » - للعبة الاستعمارية التى أجهضتها تجربة أكتوبر . والتى أتوقع أن يكون إجهاضها هذه المرة أبدياً ، وإلى يوم القيامة !

الوجه السادس : مصر العربية

يبقى بعد هذا : الوجه الأخير ، والأكثر أهمية ، لمستقبلنا بعد أكتوبر .

إن مصر لن تعود دولة ، وإنما ستصبح إقليماً في دولة عربية كبرى .
 إن هذا مصيرها التاريخي الذي لا جدال فيه . وهو ليس من صنع أكتوبر ،
 أو يوليو . وإنما هو صنع الأمر التاريخي الواقع . فالعالم كله يتجه إلى الوحدة بين
 البلدان ذات المصلحة الواحدة . وشعوب العالم العربي عاشت متحدة اثني عشر قرناً .
 ولم تتمزق إلى دول متفرقة إلا على يد الاستعمار ، ولفترة لا تتجاوز قرناً ونصف
 قرن . وحكم التاريخ هو أن تعود لتتحد ، وتواجه العالم كقوة كبرى جديدة ، أو
 كقوة قديمة عادت تدب فيها الحياة .

إن حكم التاريخ هذا قد تعثر طويلاً ، وعرقلته تجارب فاشلة . ابتداء من
 سوريا وانهاء إلى ليبيا . وسيمضي بالتأكيد وقت طويل قبل أن يفرض نفسه ،
 ويتحول إلى أمر واقع .

لكن أكتوبر قد اختصر هذا الوقت بصورة حاسمة .
 ففي اللحظة التي اندلع فيها القتال نسبت كل البلاد العربية خلافاتها ،
 واتحدت وراء مصر وسوريا .

الجزائر أسرع إلى خط المواجهة ، ودفعت بكل ماتملك إلى مصر ، العراق
 دفع بجيشه إلى سوريا لكي يواجه الزحف الإسرائيلي المضاد . السعودية قادت حرب
 البترول ، وزودت مصر بأموال تمكنها من الصمود الاقتصادي بعد القتال .
 اليمن الجنوبية أغلقت باب المنذب بالتعاون مع الأسطول المصري .
 ليبيا بعثت بطائرات ، وبترول . لم تناقش أية دولة عربية وقتها أي خلاف
 لها مع مصر وسوريا ، أو مع أية دولة عربية أخرى . حتى الذين ناقشوا جعلوا
 المناقشة على الهامش ، ولم يعطلوا بها مساهمتهم في المعركة .

وهكذا . . . كان أكتوبر بمثابة « بيان عملي » يثبت للأمة العربية أنها في
 النهاية واحدة ، وأنها بالعقل الباطن لا تملك إلا أن تتحد وقت الخطر .

ثم إن أكتوبر فاجأ هذه الأمة بأن وزنها حين تتحد أكبر مما كانت تتصور .
 فجرد اتحادها هدد الوفاق الدولي ، ومزق حلف الأطلسي ، وفرض على العالم
 أزمة طاقة زعزعت صناعته ، وأرغم أمريكا على أن تغير - لأول مرة في

التاريخ - موقفها العدواني الذي يساند إسرائيل ، وتتحول من دور الخصم لنا إلى دور الوسيط .

لقد أيقظت ثورة يوليو في ضمائر العرب حلم الوحدة . ولكن أكتوبر أتاح أكثر التجارب إقناعاً بأنها ليست حلماً ، وإنما حقيقة .

والمستقبل بعد أكتوبر سوف يشهد في اعتقادي نمو هذه الحقيقة . ولا ينفي ذلك اشتعال الخلافات بعد أكتوبر ، ولا نقد كل بلد عربي لكل بلد عربي آخر . فهذا النقد دليل في حد ذاته على أن كل عربي أصبح يعتبر البلاد العربية الأخرى بلاده ، له حق نقدها ، والمشاركة في صنع سياستها ، والمعارضة إذا كانت هذه السياسة على غير ما يرغب .

* * *

هذه ستة وجوه للمستقبل الذي أتصوره بعد ٦ أكتوبر . وهو ليس مستقبلاً من صنع أكتوبر . وإنما هو المستقبل المكتوب سلفاً في كتاب التاريخ . والذي لا مفر منه لأنه حكم طبائع الأشياء .

وفضل أكتوبر هو أنه - بعد أن تجمد هذا المستقبل وتعثر في قيود الهزيمة - جاء يطلق سراحه ، ويحرره من قيوده ، ويقول له : تفضل يأيها المستقبل واصل طريقك . .

أمينة السعيد

المرأة من خلال دروس حرب أكتوبر





نشبت حرب أكتوبر ونحن في أشدّ قترات حياتنا تعساً وشقاء . .
فقبلها مضت بنا سنوات عجاف ، قضيناها على طول أيامها ولياليها السوداء
نحترق بلهيب الخزي الذي لحقنا بهزيمة ١٩٦٧ ، وتركنا بوجيعة العار والإذلال
نعيش كالمجانين ، ننكأ جراحنا بأظافرنا ونجتزّ الألم والعذاب . .
وفي خضمّ بحر الظلمات الذي أوشكنا أن نغرق فيه ، حدثت المعجزة ،
وجدنا قيادتنا الباسلة تخوض بنا معركة النصر ، بعد أن أثمت لها العدة ، ونحن
بيأسنا لاهون . .

وكان الله في عوننا ، فاستطاع جنودنا البسلاء أن يهدموا جدار الرعب بعبورهم
القناة التي لا تُعبر ، وقهّروهم الجيش الذي لا يُقهر ، وانتزاعهم عصا التأديب من يد
إسرائيل . .

ولست أدّعي أننا أحرزنا النصر النهائي . . فما زال طريق الكفاح أمامنا طويلاً ،
وحقل التضحيات واسعاً فسيحاً ، وقد يشاء قدرنا أن نمرّ بجولة أخرى أشدّ مرارة
وقسوة . .

لكن هذا الاحتمال القوي لا يغيّر من الحقيقة شيئاً . .

فحرب أكتوبر كانت - ولا شك - بداية رائعة ردت إلينا اعتبارنا ، ووضعتنا في الطريق الصحيح . ومادمنّا أصحاب حقّ وإرادة وعزم ، فالله دائماً نصير القادرين على إعلاء كلمته بالروح والجهد .

وروعة هذه البداية في أنها فجّرت حقائق خطيرة يتحتمّ علينا أن نتدارسها بمنتهى الصراحة والصدق ، مادمنّا حقيقة جادّين في تحديد مكاننا الصحيح من هذا العالم الكبير الذي يحيط بنا .

وقد اعتدنا فيما مضى أن نهرب من مواجهة أنفسنا بما لا يرضى غرورنا من أخطائنا ونقائصنا ، لكن الوضع تغير الآن ، وأصبح من الضروري أن تكون لدينا الشجاعة الأدبية على الاعتراف بأننا كنا على خطأ مبين ، وقد كلفنا ذلك ثمناً غالياً من كرامتنا وعزّتنا وأرواح أبنائنا ، وأن الاستمرار في خداع النفس بهذا الأسلوب الساذج هو عملية انتحارية تجلب الدمار النهائي . .

وفي اعتقادي أن أهم ما فجرته حرب أكتوبر من الحقائق الجديدة هو أن قضيتنا مع إسرائيل لم تكن في يوم من الأيام قضية خلاف على أرض فلسطين ، ولا مشكلة يهود يبحثون عن وطن بعد أن نبذهم العالم الغربي وشردهم من ديارهم . . لم تكن هذه سوى أعدار مفتعلة أريد بها تغطية الحقيقة الكبرى ، وهي أنها قضية حضارية بالدرجة الأولى . .

قضية عالم متحضر استطاع بتفوقه العلمي والاقتصادي والاجتماعي أن يحقق للمجتمع الإنساني انتصارات رائعة ، وكان في مقدوره أن يحقق مزيداً من هذه الانتصارات لولا وجود الشعوب المتخلفة مثلنا ، التي كرمها الله بثروات وموارد طبيعية هائلة ، لكنها بفعل جهلها وبداءتها عجزت عن المساهمة بها في خدمة المجتمع الإنساني ، وحوّلت نفسها إلى عبء ثقل يرهق كاهل العالم المتقدم ، ويعطل مسيرته في طريق الحضارة . . .

ويرى العالم المتقدم إزاء عجز الشعوب المتخلفة عن الاستفادة أو الاستفادة بمواردها الكثيرة ، أنها فقدت حقّ البقاء بمعناه الأدبي ، ولقد أصبح من واجب الأقوياء المتقدمين أن يرثوها وهي مازالت على قيد الحياة ، لكي يتولوا عنها مهمة تسخير

خيراتها العميمة في خدمة الحضارة . .

ولقد سُخِّرَت إسرائيل لتحقيق هذا الغرض ، بعد أن غلَّفت قضيتها بالمبررات المفتعلة ، بقصد إكساب دعواها شرعية مزعومة ، لا تقوم قطعاً على أى أساس من حق ، ولكنها يبريقها الزائف كفيلة بتحريك قلب الرأى العام العالمى . .

والدليل القاطع على صحة ما نقول ، هو موقف القوى الكبرى كلها من قضية إسرائيل ، وتصديها - على تباين نظمها وعقائدها - للدفاع عن وجودها ، واتفاقها - برغم اختلافها في كثير من الأمور الجوهرية - على ضرورة حمايتها بالحيولة دون تعرضها لهزيمة جذرية تهدد كيائها القائم في قلب العالم العربى . .

فمركتنا مع إسرائيل لم تعد تقبل الجدل في كونها صراعاً صريحاً بين التقدم والتخلف ؛ هذه الحقيقة المرة التى غيَّبت عنها أذهاننا عهود متتالية من خداع النفس والهرب من الواقع . .

ثم جاءت حرب أكتوبر المجيدة لتزيل الغشاوة عن أبصارنا ، وتضعنا أمام الحقائق وجهاً لوجه ، فأصبح لزاماً علينا أن نعيد النظر في أمورنا . . نتدارك ما فاتنا . . ونبدأ لفورنا في خوض معركتنا بالسلح الوحيد الذى يتفوق به أعداؤنا علينا وهو الحضارة ، وهى مهمة ليست بالهينة نظراً لضخامة المعوقات التى ظلت على مضى الزمن تباعد بيننا وبين ركب التقدم . .

والمسألة تحتاج بلا أدنى شك إلى دراسة أمينة وافية لنواحى تفوق أعدائنا ، ثم حساب دقيق لما لدينا من إمكانيات تفيدنا في إزالة المعوقات التى تعطل حضارتنا . . ولسوف نجد أننا في احتياج إلى التطوير الكامل لحياتنا العلمية والاقتصادية والزراعية والفنية . . إلخ ؛ ولكن قبل قيامنا بهذا التطوير ينبغى علينا أن نكون على بينة تامة بأن الحضارة في مضمونها موضوع إنسانى ، وأن الارتقاء الحضارى ليس عملية مادية فحسب ، إنما هو أيضاً عملية إنسانية باعتبار أن الإنسان هو الغاية ، وهو الوسيلة إلى بلوغ هذه الغاية ، ومن المتعذر أن نعتد عليه في تحقيق الارتقاء الحضارى قبل أن نرتفع به إلى مستوى القدرة على التجاوب مع روح التنمية المقصود . .

وهذا يضعنا أمام نوعية الإنسان الموكول إليه مهمة إقامة صرح الحضارة . .
ولقد واجهنا عدونا بشعب قوى في تقدمه العلمى وتفوقه الحضارى ؛ وسرّ
قوته أنه يستخدم كامل طاقاته ، فرجاله ونساؤه سواء من حيث القدرة التامة على
العمل والإنتاج . . في حين أننا لم نستطع في ردنا عدوانه سوى أن نستخدم نصف
قواتنا البشرية ، لأن النصف الآخر - وهو النساء - غاية في الضعف والهزال ، لوقوعه
تحت ضغوط الجهل والتخلف ، مما يقلل من فائدته الوطنية ويعطل حركة الحياة
الجديدة . .

ولا أظنى أتجاوز الحقيقة إذا قلت : إن الحالة العامة للمجموعة النسائية
عندنا تشكّل في صورتها الراهنة المعوّق الأكبر في طريق تحضّرنا . . وبالرغم من
الجهود الكثيرة التي بُذلت في سبيل النهوض بنسائنا ، والحقوق المختلفة التي حصّلت عليها
والدور الاقتصادى الكريم الذى يلعبه في اقتصادياتنا ، والرغبة الخالصة التي
أبدينا دائماً في نصرّة الوطن ، والخدمات القيمة التي قمن بها في الشدائد ،
والتضحيات البالغة التي قدّمنا لبلادهن في جميع المواقف الكبرى - بالرغم من كل
ذلك مازال أماننا طريق طويل جداً حتى يتأتّى لنا أن نصل بعموم نسائنا إلى
المستوى الملائم لروح العصر الذى نعيش فيه . .

ولسنا نجعل أن الرجال عندنا مازالوا في عمومهم دون المستوى الحضارى
الضرورى لموازنتنا بأعدائنا ، لكنهم - على علاقتهم - أكثر تقدماً من النساء ،
نظراً لأنهم كانوا دائماً أوفر حظاً منهن بتحيز المجتمعات الشرقية لهم ، ولم يستعبدوا
بالحجاب الذى ظل إلى عهد قريب يخنق حضارة المرأة ، ومازال إلى الآن يلقى
بظلاله على العقلية النسائية ويؤثر في درجة تقديرها لوجودها واحترامها لنفسها . .

ولقد نجم عن هذا الاختلاف الواضح بين وضعى الرجال والنساء نوع من
الاختلال العنيف في القوى البشرية ، الأمر الذى ظلّ على مضى الجهود يضاعف
أعباء الدولة إزاء التزاماتها ، ويعطل حركة مسيرها إلى الأمام .

ولسنا ننكر أن هذا التخلف النسائى ليس أصلاً في تاريخنا ، إنما ساعدت
على قيامه ظروف من التخلف والجهل ليست من ثقافتنا ولا حضارتنا . . ففي قديم

الزمن كانت المرأة الفرعونية والأشورية والبابلية تتمتع بمكانة مرموقة ، وتشغل مناصب الدين والسياسة . . ثم جاء الإسلام فكان أضخم ثورة اجتماعية في تاريخ البشرية ، فمن قبله لم تكن المرأة - حتى في أفضل المجتمعات - سوى كائن حي لا حقوق لها ولا احترام لآدميتها ، فإذا الدين الذي ظهر في منطقة صحراوية جرداء يسكنها قوم خشنون على الفطرة ، يقلب الوضع رأساً على عقب ، ويعترف للمرأة بكامل آدميتها ، ويسلحها بالاستقلال الاقتصادي على أوسع معانيه ، ويحررها من ولاية الرجل عليها في الحقوق الجوهرية ، ويشركها إلى جانب ذلك كله في شئون الدين والسياسة . .

وبينما كانت الأوروبية حينئذ تعيش على هامش الحياة تابعة للرجل وظلاله ، وجدنا أختها العربية المسلحة ، بنت الصحراء القاحلة والبيئة البدائية الخشنة ، تتمتع بكامل أهليتها ، وتمارس حقوق الرجل الجوهرية ، وتلتزم نحو مجتمعها بما يلتزم به من واجبات . . هذه المكاسب الرائعة التي لم تحرزها نساء الغرب إلا بعد قرون كثيرة ؛ فالاستقلال الاقتصادي ، وحق الإرث ، والمساواة في العلم والعمل ، لم تتضح معالمها في أوروبا إلا مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . . فالعرب في مجال المرأة كانوا البادئين . .

لكنهم مع الأسف وقفوا عند بدايتهم الرائعة ، ولم يطوروا أوضاعهم مع تطور الزمن ، ولم يبذلوا أدنى جهد في تحديد مفاهيمهم الروحية والاجتماعية بتجدد ظروف الحياة واحتياجاتها ، فخسروا الكثير . . .

ومن أصدق ما قاله المؤرخون في ذلك : أن نهضة المرأة الأوروبية بدأت من حيث انتهت نهضة المرأة العربية ، وأن نهضة المرأة العربية انتهت من حيث بدأت نهضة الأوروبية ، ومن هنا كان الفرق بيننا وبينهم . . نحن السابقون وهم اللاحقون . . إنهم سايروا الزمن في حين أننا وقفنا في مكاننا لا نبرحه ، فكانت النتيجة أن مربنا موكب الحضارة وسبقنا بمراحل واسعة . .

ويعزو المؤرخون تفوق الغرب وتحركه إلى أن قوانينه التي أخذها عنا كانت في نظره تشريعات وضعية سنّها الإنسان لتحقيق الصالح العام ، ومن ثم فليس

هناك ما يحول دون تغييرها كلما دعت الضرورة ، في حين أن التدهور الحضارى الذى أصاب المجتمع العربى دفع رجعية الفكر إلى العمل على حماية تقاليدها الاجتماعية بإكسابها مسحة من القداسة سلّحتها بلون من الحصانة لم يكن يقوى على المساس به سوى مجتمع رفيع فى تفتّحه الثقافى ، وهى المرتبة التى مازلنا إلى اليوم غير قادرين على بلوغها . .

هذا رأى المؤرخين الأصلاء ، وهو رأى صواب فى روحه ونصّه ، فمن أبرز خصائص التخلف العجز عن التكيف مع الأوضاع الجديدة التى تفرضها الاحتياجات الإنسانية المتطورة ، مما يجعل السلوك غير قادر على مسايرة روح العهد ، كما يجعل المنطق الاجتماعى مجرداً من القدرة على هضم القيم الجديدة ووضع المعايير الملائمة لها . .
والعادة أن يكون لذلك انعكاسه على المفاهيم الروحية والاجتماعية مما يخرج بها عن معانيها الأصيلة وفلسفاتها الصحيحة ، ولقد حدث ذلك عندنا مما أصابنا بإساءة بالغة وقع الجانب الأكبر منها على المرأة ، فأطاح بقدرتها على أداء واجبها الوطنى كما ينبغى ، وعطل نصف القوى البشرية عن العمل ، فكان التدهور الحضارى الذى أوقفنا من غيرنا موقف الضعف والعجز ، وأصابنا بالهزائم والنكسات ، ودفع بالأقوياء إلى معونة إسرائيل فى أن ترثنا ونحن مازلنا أحياء . .

إن حرب أكتوبر ، وما قامت به المرأة خلالها من خدمات ، وما قدمته من تضحيات ، قد رسمت لنا طريق حياتنا الجديدة ، وهدتنا إليه بما فجرته من حقائق دامغة من أهمها أن الإنسان هو صانع الحضارة والمتحكم فيها ، وأن مهمته فى صنع الحضارة تقتضى أن يكون قوياً بالقدر الذى يحميه من أطماع الأقوياء الآخرين . والمرأة عندنا بحالتها الراهنة تشلّ نصف هذا الإنسان ، وبقاؤها هكذا يطيح بجميع الجهود التى تبذل فى بناء صرحنا الحضارى . . لذلك ينبغى أن نبدأ بها خطة التنمية الجديدة ، وأن نحررها من ضغوط الجهل والتخلف وانعكاساتها على المفاهيم الدينية والاجتماعية . . ناظرين فى ذلك إلى ما طرأ على المجتمعات القوية من تغيرات خلال السنوات السبعين الماضية ، فى بحر هذه المدة تقدّمت حضارة العالم بدرجة مذهلة ، وانتقلت البشرية من عصر الدابة إلى عصر

الفضاء . . وبعد أن كان الناس يسافرون من مكان إلى مكان على ظهور الإبل أو بعربات تجرها الدواب ، باتوا وأصبحوا يطوفون الفضاء حول الأجرام السماوية بحثاً عن عوالم جديدة . .

ويرجع الفضل في هذا التقدم الهائل إلى التغير الشامل في مكانة المرأة ، وما ترتب عليه من انتقالها من مراتب التبعية والهامشية إلى مستويات المواطنة الكاملة .

ومن المؤرخين المعاصرين من يؤمن عن يقين بأن الحضارة الكبرى التي تجلت في القرن العشرين قد قامت أساساً على دعائمين متساويتين في القوة والأهمية ، هما اختراع الكهرباء وخروج المرأة إلى الحياة العامة . .

ونحن على ثقة تامة بأن قيادتنا الواعية قد عقدت العزم على خوض معركة التحضر كوسيلة لا غنى عنها في تحقيق الارتقاء الضامن لحمايتنا ، والحفاظ على وجودنا في مواجهة التحديات العنيفة الماثلة أمامنا . . ولكن الذي نرجو أن يكون واضحاً في هذه العملية الكبرى أن المرأة جزء رئيسي في التنمية الاقتصادية ، باعتبار أنها نصف القوى البشرية ، فمن الضرورات الحتمية أن تُهدم من طريقها المعوقات وأن تؤمن بالحريات والضمانات ، وأن يحدث ذلك في ضوء خبرة وتجارب المجتمعات المتقدمة . . ومادمتنا نؤمن بالحضارة فمن واجبنا أن نقتدى بأنماطها البناءة ، فالحضارة ضرورة للمجتمعات الإنسانية المتكاملة ، وهي ملك للجميع ، وليست وقفاً على أناس دون أناس ، واعتبارها تراثاً نوعياً أو إقليمياً يعرض عملية التحضر إلى نكسات قد تعيدها إلى أحضان التخلف مرة أخرى . .

وعملية تحرير المرأة والارتقاء بها إلى المستوى الحضاري الكافي للموازنة بينها وبين نساء العالم المتقدم ، ومنه أعداؤها ، لا تتحقق بالاختصار على فرض القوانين ، ولا الاكتفاء بالتوعية ، ولا الاعتماد على نشر التعليم ، فهذه كلها عوامل حضارية شديدة الترابط ، ولكنها بطيئة السير . . والدولة هي التي تنشطها وتعطيها السرعة

الواجبة . . فالدولة ملزمة بفرض الحضارة بقوة القانون ، كذلك ملزمة بحمايتها على مختلف المستويات ، وهو عبء ضخم ، ولكنه عبء واجب باعتبار أن الحكومة هي الجزء المتقدم من المجتمع بل الأكثر قدرة على تصور الأوضاع الجديدة وتحديد احتياجاتها ، وبناء عليه فهي ملزمة ومضطرة بأن تسبق المجتمع المحلي ، وأن تدفعه دفعاً إلى الحالة التي يرجى وصوله إليها .

صالح جودت

ورقة عمل . . . للأدب والفن





دار حوار بين صحفية شابة متفتحة ، وبين قاصصنا الاجتماعي اللامع نجيب محفوظ

قالت : ماذا تكتب الآن ؟

قال : لا شيء

قالت : ولماذا ؟

قال : لأنني لا أستطيع أن أكتب وأنا مرتاح النفس . وأنا مرتاح النفس بالفعل منذ النصر الذي حققناه في السادس من أكتوبر . والفنان لا يبدع إلا إذا كان واقعاً تحت تأثير انفعال عنيف ، كالاتفعال الذي عايناه بعد محنة ١٩٦٧ وأحسب أن نجيب محفوظ صادق كل الصدق في هذا القول . وليس معنى هذا أنه لن يكتب عن حدث السادس من أكتوبر ، ولكن ليس الآن . . . بل بعد حين ، بعد أن تستقر الأحداث وترسو على مرفأ في نهاية شاطئ المعركة . . كما فعل توفيق الحكيم من قبل ، حين سجل انفعالاته بثورة سنة ١٩١٩ في رواية « عودة الروح » التي كتبها في سنة ١٩٣٦ ، أونحوذلك

ولعلني أروي هذه الحكاية ، لأقول إن الانفعالات القاسية تهز شجرة الفنان

لتطرح ثمارها ، أكثر مما تهزه الانفعالات السعيدة
 وأعود إلى نجيب محفوظ ، وأضرب المثل بمجموعته القصصية « تحت المظلة »
 التي لم يفهمها أكثر من قراءها ، في حين اعتبرها أنا من أعظم أعماله .
 لم يفهمها أكثر من قراءها ، لأن نجيب محفوظ استعان فيها بالرمز المغرق ،
 إذ كتبها في عصر أسود - هو عصر النكسة ، وما قبلها مباشرة ، وما بعدها مباشرة -
 وهو عصر لم يكن الحاكم فيه يسمح لقلم أن يقول ما يريد ، فلم يجد نجيب محفوظ
 بداً من الالتجاء إلى الرمز الذي لا يفهمه الحاكم ، ولا يفهمه المقربون إليه والهامسون
 في أذنه ، تماماً كما لم يفهمه أكثر القراء
 ولو فطن القارئ الذكي إلى سطر مكتوب بخط دقيق على بعض صفحات قصة
 « تحت المظلة » يقول إن أحداث هذه القصة قد وقعت بين شهرى كذا وكذا
 سنة ١٩٦٧ ، لقفز إلى ذهنه لأول وهلة ، وبمجرد وقوع نظره على هذا الرقم المشوم ،
 أنه لا بد أن يكون وراء هذا الرمز كلام . . وكلام له معناه الكبير
 ودعوني أحاول . . لا أن أفك هذا الرمز ، بل أن أقربه ، مجرد تقريب ، إلى
 ذهن كل قارئ

فالناس الذين وقفوا تحت مظلة الأوتوبيس في مستهل سنة ١٩٦٧ ، في انتظار
 الأوتوبيس الذى لا يأتى أبداً ، هم الشعب . . الشعب الذى ينتظر وسيلة للحركة
 تنتقل به ولو محطة واحدة إلى الأمام . . والوسيلة لا تلوح فى الأفق أبداً
 والرجل الذى يخرج من حارة ويعبر الميدان ويدخل الحارة المقابلة ، والناس
 حوله يعدون صارخين « حرامى . . حرامى » . . ثم لا يلبث الرجل أن يخرج من
 الحارة ويغنى ، والناس - الذين لقبوه بالحرامى من قبل - يخرجون وراءه ويغنون
 معه ويصفقون له . . هم أنفسهم الذين قال فيهم شوقى من قبل . . فى رواية مصرع
 كليوباترا :

انظر الشعب . . ديون كيف يوحون إليه
 ملأ الجو هتافاً بحياتى قاتليه

أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ياله من يغاء عقله في أذنيه

والسيارتان اللتان اصطدمتا وسط الميدان ، وراح في الحادث كثير من الضحايا
التي كست دماؤها الأرض بالأرجوان ، هما القوتان المتعاديتان اللتان تصارعتا في ذلك
التاريخ ، وسقط في صراعهما من جانبنا عشرون ألف قتيل
والرجل الواقف في الشرفة المطلّة على الميدان ، يلوح لامرأة واقفة في الشرفة
المقابلة ، يسألها أن تهبط للقاءه ، وتستجيب له ويتم لقاؤهما فوق البساط الأرجواني
المصنوع من دماء الشهداء . . هذا الرجل ، غفر الله له ، كان يستطيع أن يغير
وجه المأساة . . لولا أنه كان مشغولاً بالمرأة الواقفة قبالة في الشرفة . .
والشرطي الذي يظهر في نهاية القصة ، ويطلق الرصاص على الجميع . .
الجميع بغير استثناء . . هو التاريخ . . الذي حكم على كل هؤلاء . . على اللص
المغنى . . . وعلى المرأة . . . وعلى عشيقها . . . وحتى على الناس الواقفين في انتظار
الأوتوبيس في سلبية وجمود . حكم عليهم جميعاً بالموت . . لعل جيلاً جديداً
أفضل منهم يقوم من بعدهم ، ويستدعي الأوتوبيس ، ويواصل به مسيرة
التقدم . . . المسيرة التي تقف الآن عند محطة السادس من أكتوبر . . وتأهب
لمزيد من السير

* * *

هذا حديث ليس في السياسة ، ولكنه في سيد العلوم الإنسانية ، وهو الأدب
والعلوم الإنسانية هي المحرك للأدب في كل زمان ومكان
فلو تأملنا مسرح « أوزبورن » . . . مثلاً . . لوجدنا أن خلاصته هي قول
أوزبورن : أريد للإنسان أن يشعر . . لا أن يفكر
وإذا كان أوزبورن يعالج مشكلة الفرد . كأساس للمجتمع ، فإنه خادماً

آخر من خدام المسرح ، مثل « آردن » . . . يعالج مجموعات الناس ، ويرسم بهم صورة المجتمع الذى يريد أن يعالجه ، فهو حين يرى الفساد فى المدينة ، يركز الفساد فى سرّة المدينة - التى هى بلديتها - ويقدم لك النماذج الفاسدة فى مستشار البلدية ، ومحاسب البلدية ، ومهندس البلدية ، وموظفى البلدية بيد أن الرجلين يلتقيان فى أن فساد الفرد ، سواء بذاته ، أو بأمثاله ، هو سبب الضلال فى المدينة

ولكن شكسبير يلخص الرايين فى رأى واحد ، فيقول لك إن الملك هو رأس المجتمع ، وصحة الملك الجسدية والنفسية هى التى ترسم حالة المجتمع ، وتقرر نصير المجتمع

وليت القارئ يجتهد فى هذا « التطبيق » . . . كما كان يفعل فى دروس المدرسة الثانوية . . . فيطبق هذه المذاهب جميعاً على قصة « تحت المظلة » ليفك رموزها ويعرف فى أى عصر كنا نعيش

* * *

المهم . . . أن الرمزية كانت لغة الأعمال الكبيرة فى ذلك العهد ، لأن الكاتب لم يكن يملك إلا أن يلجأ إليها

وإذا كانت الرمزية لغة من لغات الانغلاق فى عصور الانغلاق ، لم تسد القصة وحدها ، بل سادت الشعر أكثر مما سادت القصة . . . والرواية والمسرحية أيضاً . . . فإنها لم تستطع أن تخدم قضايا الشعب لقصورها عن الإفصاح والتوضيح

أما الأعمال الفنية التى تكتب فى ظلال الحرية ، فهى وحدها التى تستطيع أن تخدم قضايا المجتمع

خذ مثلاً رواية « العدالة » للكاتب المسرحى الكبير جولز ووردي فى هذه المسرحية فصل كامل لا نظير له فى أى عمل فى تاريخ المسرح

فصل كامل لرجل متهم في جريمة ، محكوم عليه بالحبس الانفرادى في زنزانه .
ويرسم لك المؤلف - طوال هذا الفصل - تأثير الحبس الانفرادى على إنسانية
الإنسان . . . الذى ينقلب بين لحظة وأخرى من قرد إلى أسد إلى هر إلى ثعلب
إلى أرنب إلى ثعبان إلى . . . إلى أن يرتد إنساناً مسكيناً مغلوباً على أمره فى أشقى
وأتعس صورة بشرية

هذه المسرحية ، حينما عرضت فى لندن ، ودعى إليها الناس لمشاهدتها ، اجتمع
مجلس العموم البريطانى على وجه الاستعجال ، وقرر إلغاء الحبس الانفرادى
هذا هو النوع من الأدب الواضح المفصح الذى يستطيع أن يخدم قضايا
المجتمع ، ويحل مشاكله

* * *

جدّ بنا الحديث . . .

فهل جدّدنا معه ؟

بصراحة ، لقد وقفنا بعد ١٥ مايو سنة ١٩٧١ نتساءل : لماذا لم تستطع العشرون
سنة الماضية أن تنتج من الأقطاب والأعلام أمثالا لما كانت تنجبه مصر من قبل ؟
إن التماثيل الكبرى فى حياتنا : شوقى وحافظ وعزيز أباظة وأعلام أبولو فى مجال
الشعر . . . والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم فى مجال القصة . . . ويوسف وهبى وجورج
أبيض ونجيب الريحانى فى مجال المسرح . . . وأم كلثوم وعبد الوهاب فى مجال
الغناء . . . وزكريا أحمد ورياض السنباطى والقصبجى فى مجال التلحين . .
كل أولئك من نتاج عهود ما قبل سنة ١٩٥٢

فلماذا توقفت مصر عن العطاء على مدى عشرين سنة ، بعد أن كان عطاؤها
بالغ السخاء ؟

الجواب : أن المواهب لا تتفتح فى ظل النظم البوليسية
يقول الكاتب الروسى الكبير سولجينتسين ، الذى طرد من وطنه أخيراً :

إن الحكومات البوليسية تكره كتاب الدرجة الأولى ، لأنها تعتبر كلا منهم حكومة داخل الحكومة ، ولهذا فإنها تعتمد دائماً على كتاب الدرجة الثالثة وما يسرى على الأدب ، يسرى على كل صناعة فكرية .

ولهذا كثر كتاب الدرجة الثالثة ، وفنانو الدرجة الثالثة ، على مدى السنوات العشرين الماضية ، فهبط مستوى الأدب ، وهبط مستوى الفنون عامة ، وخفتت أصوات أصحاب الطبقة الأولى ، فمنهم من آثر الصمت ، أو اتجه إلى التراث ، أو لجأ إلى الرمز الذي لا يخدم قضية ولا يحقق هدفاً

وتحولت أجهزة الإعلام ، من صحافة وإذاعة ومسرح وستارة وغيرها ، إلى أبواق لتمجيد الحاكم وإظهار الظلم بمظهر العدل وإلباس الليل ثوب النهار . كل هذا ، والحاكم كلما سمع تمجيداً ، قال كما تقول جهنم : هل من مزيد ؟ وفي غمار هذه الموجة ، انبثق صوت الغضب والسخط والرفض ، وبدأت بواكيره تظهر في الأدب ، من شعرو قصة ورواية

ولكن عاملين حولاً هذا الصوت إلى نقمة جديدة تضاف إلى النقمة القائمة : الأول ، أن الغضب والسخط والرفض انصبحت حتى على الأسس الخيرة الموروثة من العهود الطيبة . فأنكر الغاضبون التراث ، وأنكروا التقاليد ، وأنكروا الأخلاقيات ، وأنكروا بحور الخليل ، وأنكروا مدرسة شوقي ، وأنكروا جهاد سعد زغلول ، وأنكروا مسرح رمسيس . . وأرادوا أن يهدموا كل شيء بدعوى أنهم سيبنون جديداً ، ولكنهم لم يأتوا بجديد يستحق البقاء ، أو يستحق مجرد النظر والثاني ، أن عناصر الشر احتضنتهم حتى استغرقهم بمختلف الإغراءات ، فسادت دعوات الشعبوية والإلحاد والهرطقة وسقوط القيم الكبيرة في الحياة ولو شاء الشيطان أن يستمر هذا التيار لفقدنا البقية القليلة الباقية من الأمل ،

التي تخلفت بعد ملهمة سنة ١٩٦٧

ولكن مشيئة الله كانت فوق مشيئة الشيطان ، فجاءت الثورة على الثورة في سنة ١٩٧١ ، وبدأت مسيرة التصحيح ، وبدأت معها العودة إلى القيم ، والأوبة إلى الله ، ودعوة العلم والإيمان

ولعل هذا هو ما يسميه أستاذنا توفيق الحكيم بعودة الوعي
وقد كثر الحديث عن عودة الوعي . وجلسنا ، توفيق الحكيم وأنا وأصحابنا
نتحدث عنها ، ونستعرض الحملة الضارية التي ووجهت بها هذه الرسالة ، هنا
في مصر ، وفي لبنان

وتساءل الغاضبون : أين كان توفيق الحكيم طوال هذه السنوات ؟ أو لم يكن
في طليعة الركب الذي كان يمتدح الحاكم ؟

وقال توفيق الحكيم : وماذا يملك الإنسان أن يصنع في عصر يصاد فيه الحاكم
شجاعة الإنسان ، ويهدده بالسجن والقيد والتعذيب والإرهاب والموت ؟
وأضاف إلى ذلك قوله : إننا لا ننكر أنه كانت للحاكم إيجابيات تستحق
الثناء ، فأثنينا عليها . . . أما سلبياته ، فقد سكتنا عنها لأننا لم نكن نملك - إزاء
الشجاعة التي صادرها في الشعب - إلا الصمت
واختتم حديثه بقوله :

- ولكن الحساب العلمي الصحيح في حياة كل حاكم ، يكون بعد رحيله . . .
فبعد رحيله ، يمسك المحاسب بالقلم ، ويرصد ما له في باب « له » وما عليه في باب
« منه » . . . ويتأمل نتيجة الميزانية ، ويحكم بها إذا كان رصيده مديناً أم دائناً
هذا هو المنطق الصحيح الذي تأخذ به جميع الشعوب ، والذي تصحح به
مسيرة التاريخ

ولقد كان ستالين معبود شعبه في زمانه
لم يكن عند شعبه - اللادينى - إله إلا هو
ولكنه حوكم بعد موته ، وكشفت أوراقه أنه أساء بأكثر مما أحسن ، وأنه
أعدم من أبناء شعبه رقماً يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين من الأنفس
هكذا حوكم ستالين . . .

وهكذا صدرت أحكام التاريخ على هانبيال وموسوليني وهتلر ونابليون والسلطان
عبد الحميد وسالازار وسائر دكتاتوري التاريخ . . بعد أن أساءوا إلى شعوبهم
بأكثر مما أحسنوا

* * *

وكنا - في البداية - نتحدث عن الأدب والفن ، ولكن الحديث جنح بنا حتى جمع

فإذا لم يكن هناك بد من العودة إلى حديث الأدب والفن ، فإننى أقول إننا قد بدأنا فجراً جديداً في يوم ٦ أكتوبر . لدخول عصرًا جديداً أساسه التخطيط

بدأنا نفكر في التخطيط الحضارى لحياتنا الجديدة حتى سنة ٢٠٠٠

ولكننا فكرنا في التخطيط للصناعة والتجارة والزراعة والملاحة . . . وكل شيء . . . ونسينا أن نخطط للأدب والفن ، مع أنهما غذاء الروح ، والروح هى التى تمسك بدقة كل شيء فى المجتمع

ولهذا ، فإننى أطالب الدولة بإصدار ورقة عمل مدارها الأدب والفن ، تطرح على الأدباء والفنانين الراسخين ، وعلى المجالس المتخصصة ، كمجلس الفنون والآداب ، ومجمع اللغة ، وهيئة المسرح والسينما ، ويدور حولها حوار مفتوح وصريح ، تتبلور فيه الأفكار التى يجب أن يقوم على أساسها تخطيطنا للأدب والفن حتى سنة ٢٠٠٠ .

فتحى غانم

مواد خام لصناعة المستقبل





التفكير في المستقبل ومحاولة تصوره ، شيء ، والتخمين والتعنى شيء آخر .
ولست من هواة التخمين ، ولا أريد أن يتهمني أحد بالرجم بالغيب ، ولكنى مشغول
مثل بقية البشر بالمستقبل ، سواء كان ذلك بالنسبة لمستقبل حياتى الخاصة ،
أو مستقبل المجتمع الذى أعيش فيه . ولا أحد يستطيع أن يفلت من المستقبل ،
إنه يلاحقنا فى كل لحظة ، وفى الحقيقة أننا لا نكاد نعيش الحاضر ، ففى
اللحظة نفسها التى نتبين فيها الحاضر المحيط بنا ، يكون قد تحول إلى ماضٍ وذكري ،
وهكذا يندفع بنا قطار الحياة من الماضى إلى المستقبل مروراً بحاضر يستحيل
الإمساك به وتجميد لحظته . فالماضى والمستقبل هما اللذان يحركان الحياة . وهما
وقودها ، وهما طرفا الصراع فيها ، وبهما تنمو الحياة وتنضج وتزدهر ، أو تذبل
الحياة وتخبو وتندثر . ومن هنا كان التفكير لا التخمين ، والتصور القائم على الدراسة
والتحليل ، لا الرجم بالغيب ، ضرورة لا مناص منها لمحاولة تصور المستقبل : . أى
مستقبل .

فإذا كنا نريد أن نتصور مستقبل مصر أو مستقبل الأمة العربية بعد ما تحقق
من انتصارات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة ، فلا بد لنا أن نستعين بأحداث

الماضى لئلا نمتحن بها صدق أحلامنا فى المستقبل . لابد أن نعتمد على خبراتنا السابقة التى اكتسبناها من تجاربنا الماضية ونحن نحاول تقديم صياغة لآمالنا وأهدافنا فى المستقبل . ولا شك أن الحاجة إلى المعلومات الدقيقة الوافية تفرض نفسها . فبغير هذه المعلومات لا يكون هناك أساس صالح يقوم عليه البناء . ولذلك أناشد كل من ساهم فى حرب أكتوبر المجيدة ، على أى مستوى من المسئولية ، كبيراً كان أو صغيراً ، أن يسارع بتسجيل ما لديه من معلومات ، وأن يوجهها إلى الجهات المختصة فى المجالات المختلفة ، وعلى هذه الجهات أن تولى هذه المعلومات العناية القصوى من الدراسة والتحليل ، وإذا لم تستطع فعلى الأقل تحتفظ بما يتجمع لديها من معلومات ، وأن تصونها ، فأغلب ظنى أن كل معلومة حول هذه الحرب ستجد من يهتم بها الآن ، أو لعشرات السنوات أو مئاتها القادمة . أجيال من الساسة والعسكريين والمؤرخين والأدباء والشعراء وعلماء الاجتماع والإدارة والاقتصاد وغيرهم وغيرهم ، سوف يجدون فى أحداث هذه الحرب ، وفيما سجله الذين شاركوا فيها من تجارب وانطباعات وخبرات ووجهات نظر ، كنزاً لا تقنى من المعرفة التى تنير الطريق لتصور أكثر صحة وسلامة لمستقبلهم .

ولنا فى حملة نابليون بونابرت على مصر عبرة . فقد جاء مع جيش بونابرت حشد من العلماء والفنانين سجلوا كل ما رأوه . لم يكتفوا بتسجيل حقائق الاقتصاد المصرى أو المجتمع المصرى ، بل فحصوا كل شئ ، ووصفوه فى كتاب « وصف مصر » ، من الآثار إلى الطيور والنباتات والحيوانات إلى رسم ملابس النساء والرجال ؛ حقاً لم يتركوا شيئاً يخطر ببال إلا سجلوه ، هذا بالإضافة إلى الرصيد الضخم من المذكرات واليوميات والرسائل الذى تركه الضباط والجنود والأطباء والمهندسون وغيرهم ممن شاركوا فى الحملة . ولقد كان هذا الحشد الهائل من المعلومات أساساً هاماً لوضع استراتيجيات وسياسات أوربية لمستقبل مصر ومنطقة الشرق الأوسط ، كما أرادوه هم ، لا كما كنا نريده نحن ، ولتحقيق مصالحهم لا مصالحنا ولتقوية نفوذهم لا نفوذنا ، ومع ذلك استفادت العلوم والفنون فى توظيف هذه المعلومات لخدمة الإنسانية كلها . ولا أنكر أننا استفدنا أيضاً من هذه المعلومات

والدراسات التي قامت بها حملة بونا برت . وإن كانت الفائدة جاءت متأخرة . وبعد أن اكتسب بها من سبقنا إليها قوة وسلطة .

ولقد استشر الرئيس أنور السادات قائد وبطل حرب أكتوبر المجيدة ، أهمية تسجيل المعلومات العسكرية كافة المتصلة بهذه الحرب ، وأصدر توجيهاته بإعداد كتاب جامع شامل من واقع تجارب وخبرات كل القادة الذين شاركوا فيها . ولعل هذا التوجيه النابع من حس تاريخي مرهف لرعيم سياسى يتعامل مع التاريخ ، أن يكون مفتاحاً لاهتمام كل من شاركوا في هذه الحرب ، في مجالات الصناعة والنقل والإدارة والتمويل والاقتصاد والإعلام والثقافة وغيرها ليسجلوا بدورهم ما لديهم من معلومات وخبرات . كذلك علينا أن نهتم بما سجله الجنود من يوميات أو مذكرات ، وأن نحفظ برسانتهم من الجبهة إلى أسرهم وأصدقائهم ، ومن مجموع هذه المعلومات ، تتكون المادة الخام اللازمة لصناعة التفكير في مستقبلنا بعد حرب أكتوبر المجيدة .

غير أن التفكير في المستقبل . ومحاولة تصوره عملية تلازمنا في كل لحظة . وكما سبق أن قلت لا نستطيع أن نفلت منها . وهناك قدر من بناء مستقبلنا نستطيع أن نتبناه بوضوح ، حتى قبل أن تتجمع لدينا كل المعلومات التي اكتسبناها من خوض تجربة الحرب .

فأنا لا أرجم بالغيب ، عندما أتصور مستقبل بلادى كمصرى وكعربى ، وقد تخلصت تماماً من كل نفوذ استعمارى يحتل بعض أراضيها عدواناً واغتصاباً في محاولة عنيدة لثيمة لإخضاعها والسيطرة عليها .

ولا أريد أن أقدم تصورى للمستقبل من خلال مناقشة سياسية ، عن دور الاستعمار القديم والاستعمار الحديث في عالم اليوم ، والنهاية المحتومة لزوال هذا الدور وانتصار الشعوب ، لأنى رغبة أن أقدم تصورى للمستقبل ، من خلال مواقف إنسانية واجهتها بنفسى في الماضى . ولعل الذى يدفعنى إلى ذلك ، هو أن الحديث عن المستقبل يجعلنى على الفور أفكر مثل أى أب فى ولدى الذى لم يبلغ العاشرة بعد . وقد لا يفهم حديث السياسة ، ولكنه بكل تأكيد ينصت باهتمام وشغف عندما أحكى له عن بلدنا من خلال تجارب أو مواقف واجهها أبوه أو جده .

ولقد كنت فى التاسعة من عمرى عندما واجهنى بقسوة السؤال نفسه الذى أتدبر الإجابة عنه اليوم . ما هو مستقبل مصر؟

كنت مع أخى الذى يصغرنى بستين طفلين يسيران مع والدهما المشغول عنهما بأصدقائه الكبار . كان ذلك فى الثلاثينيات . وكنا نسير على كورنيش الإسكندرية ، عندما وقف الكبار ، وأعطوا البحر ظهورهم ، وجعلوا يحدقون أمامهم فى بناء ضخيم مرتفع ممتد يحرسه جنود إنجليز . كان ثكنات الجيش البريطانى فى مصطفى باشا . وكانوا يتحدثون وأنا أشعر بالملل من الوقوف ، حتى فاجأنى صوت أبى وهو ينظر إلى وإلى أخى مخاطباً أصحابه :

- كم أتمنى أن أعيش حتى أرى علماً مصرياً فوق هذه الثكنات .
كان حديث أبى عن الحياة والموت مفزعاً . كان زلزالاً يهز بقسوة كل ما بى من طفولة .

واستمر أبى يقول ، وهو ينظر فى عيني :
- لومت . . فعليكم أتم أن تحققوا هذه الأمنية . .
وارتجفت ، ولم أفهم تماماً قوله : « لومت » ، ولكن قلبى كان ينبض بخوف وغضب شديدين ، ولم أنبس بكلمة ، وما كان ينتظر منى أن أقول له شيئاً ، ولا أذكر شيئاً أضيفه إلى هذا المشهد ، الذى ما زال يلاحقنى بانفعالات شتى من الثلاثينيات حتى السبعينيات .

مات أبى ، والعلم البريطانى رمز احتلال الأرض المصرية ما زال فوق سارية فى ثكنات مصطفى باشا فى قلب رمل الإسكندرية ، وما زال فوق سارية فى ثكنات قصر النيل فى قلب القاهرة ، وفى قلعة صلاح الدين يطل على القاهرة .

وأينما رأيت علم الاحتلال ، كان السؤال يواجهنى بكل قسوته . ما مستقبل مصر ؟ وكانت الإجابة الوحيدة الممكنة ، والتي لا إجابة غيرها ، هى أن علم الاحتلال سوف يسقط وعلم مصر سوف يرتفع .

عندما قامت الحرب العالمية الثانية - صار فوق أرض مصر علمان للاحتلال : أحدهما بريطانى ، والثانى نازى فاشستى . وذات يوم انطلق جندى من جنود الاحتلال

البريطاني بعربة ضخمة تحمل فوقها طائرة محطمة ، في شارع القصر العيني المزدحم ، وضرب بسيارته أخى فمات على الفور .

إننا نموت ، وعلم الاحتلال أصبح علمين . والسؤال عن مستقبل مصر . وبقاء علم الاحتلال فوق أرضها ، سؤال عن الحياة أو الموت . ليس بالنسبة لى وحدى ، ولكن بالنسبة لنا جميعاً ، كل منا له أب أو أخ أو جد أو ابن يدعوه إلى التفكير في مستقبل مصر ، ويفرض عليه بحكم التجارب والذكريات والخبرات المستفادة ، أن يكون التصور الوحيد والممكن هو حتمية تحرير كل شبر من الأرض .

ومع معارك المواجهة مع الاحتلال تراكمت الخبرات ، وتكشفت مواقع قوة الاحتلال ونفوذه ، كما تجمعت قوى المقاومة والتحرير ، وعلمتنا التجارب أن سقوط أعلام الاحتلال هو هدف يتطلب تحقيقه أن نحاصر أعوان الاستعمار والمتحالفين معه والمستفيدين من وجوده . . وأن نضربهم قبل أن تضربه . عرفنا ذلك بالتجربة ، وقبل أن نقرأ عن الاستراتيجية الحديثة التى تؤكد أن الاقتراب غير المباشر من الهدف ، هو أسرع الطرق للوصول إليه . وهكذا كانت مظاهراتنا كطلبة ضد الملك وأعوانه ، وباشوات الإنجليز وعملائهم . وأصبح تصور المستقبل ، ليس كلاماً إنشائياً مجرداً ، أوقصائد يديجها الشعراء فى المناسبات ، ولكنه كفاح عملى فى الشوارع ، ودماء تسيل ، وسجون ومعتقلات ، وحركات فدائية وإرهابية ، وكل ما تشاء أن تتخيله من تنظيمات ومنشورات وقضايا سياسية ، حتى انتهى كل هذا إلى ولادة صورة للمستقبل فى قيام تنظيم سرى للضباط الأحرار بثورة ٢٣ يوليو .

عندما طرد الملك ، وحوصر أعوان الاستعمار ، تحقق صدق الاستراتيجية الحديثة فى مناداتها بأسلوب الاقتراب غير المباشر . فانحسر الاحتلال إلى قاعدة القناة ، بعد أن استطاعت المظاهرات والكفاح السياسى الشعبى أن يجلباه من قبل ، ويسقطا أعلامه من فوق ثكنات مصطفى باشا فى الإسكندرية ، وقصر النيل والقلعة والعباسية فى القاهرة .

ولم أفرح فرحة كاملة ، وأنا أقف على كورنيش الإسكندرية ، وقد جعلت ظهري إلى البحر ، مواجهاً ثكنات مصطفى باشا والعلم المصرى يرفرف على السارية ،

والجنود المصريون يحرسونه ، وصوت أبي ، وذكرى أخى يحيطان بى . لقد كبرت وعرفت أن الاحتلال ليس هو تلك الراية التى سقطت فى الإسكندرية والقاهرة ، وأنه مازال هناك فى القناة ، وأن المعركة مازالت قائمة ، ولكن المستقبل الذى نريده سوف نحققه .

وعندما تم جلاء الإنجليز فى يونيو ١٩٥٦ ، كادت الفرحة تتم ، ولكن أشهراً قليلة علمتنا أنها فرحة ساذجة . فالإنجليز الذين ذهبوا فى يونيو عادوا فى أكتوبر ومعهم الفرنسيون وثالثتهم إسرائيل . ولم ينسحبوا إلا تحت ظروف سياسية ضاغطة ، ولكنهم تركوا فى نفوسنا يقيناً بأن الصراع مستمر ، وأن السذج وحدهم هم الذين يتوهمون أن النصر الكامل قد تم ، وأن الأخطار قد زالت إلى الأبد .

ولابد أن أخطاء جسيمة هى التى أدت إلى هزيمة ١٩٦٧ ، التى عاد بسببها الاحتلال إلى مصر فى أرض سيناء ، وإلى الأرض العربية فى الضفة الغربية والجولان فضلاً عما كان قد لحق بأرض فلسطين .

ولا شك أننا فى حاجة إلى معلومات كاملة عن أسباب هذه الهزيمة ، فبغير هذه المعلومات لن يستقيم أى تصور للقضاء على كل أسباب تكرارها . ومن حسن الحظ أن انتصار أكتوبر ١٩٧٣ هو مؤشر حاسم بأن قواتنا المسلحة استطاعت أن تعى درس النكسة ، وأن تتغلب على أسبابها . ولعل هذا الانتصار يمهّد لنشر المعلومات والدراسات والتحليلات الكاملة حول هزيمة ١٩٦٧ . فهى أيضاً جزء هام من المادة الخام التى يجب توافرها لوضع تصور صحيح وسليم لمستقبلنا .

وإذا كانت الأمة قد لزمت الصمت وتمسكت بالصبر ثقة منها فى القائد الذى قادها إلى انتصار أكتوبر ، والذى طالبها بالصمت والصبر ، فلا شك أنه - مع كل دعم لهذا الانتصار - سوف تزداد الحاجة عند الأمة إلى الاطلاع على أسباب الهزيمة التى سبقته ، لا لإشباع الفضول ، أو لمجرد نبش الذكريات ، ولكن لأن هذا الاطلاع سوف يحرك بين أفراد الأمة كل دوافع التفكير الجاد والعمل الدءوب على تجنب بلادنا فى المستقبل أسباب هزيمة أخرى .

ومع ذلك ، وبرغم هزيمة ١٩٦٧ ، كانت الصورة فى مجملها أن الاستعمار

ينحسر . كان يحتل كل شبر من أرض مصر . ثم انحسر وتحددت مواقعه غربى قناة السويس ، ثم انزاح إلى شرقى قناة السويس . فهكذا تقول نظرة التاريخ الشاملة التى لا تنظر إلى الأحداث منفصلة بعضها عن بعض ، بل تضمها فى تيار واحد ، قد يتعرج ، وقد يتلوى ، ولكنه يسير فى اتجاه رئيسى ، وهو بالنسبة لنا اتجاه التحرير والاستقلال الكامل . .

وهذه النظرة الشاملة لأحداث التاريخ أكثر صدقاً فى رؤية ما يجرى ، دون أن تضللنا أحداث معينة ، فتفرقنا فى تشاؤم لا مسوغ له ، يعطل حركتنا ، ويوهن من قوانا المعنوية . ولقد كان « لورد لويدي » وهو بكتب مذكراته عن مصر التى حكمها كمندوب سام فى الثلاثينيات يقول : إن تاريخ احتلال إنجلترا لمصر ، إذا نظرنا إليه نظرة تاريخية صحيحة ، فسنجد أنه بالنسبة لهذا الشعب المصرى صاحب التاريخ الطويل العريق الذى امتد فى حضارته إلى آلاف السنين ، لا يعدو أن يكون هامشاً يكتبه المؤرخ فى سطرين فى كتاب ضخيم عريض .
فهكذا كان المحتل يشعر فى قرارة نفسه ، أنه يواجه شعباً أقوى منه برغم أنه يحكمه بالفعل ، ولكنه حكم مؤقت ، ميثوس من استمراره .

والعدو الإسرائيلى لا يفكر على هذا النحو . إن تعصبه الأعمى يدفعه إلى تبنى منطق شاذ . ولقد كان يتصور لنا مستقبلاً غريباً . كان يتوهم أننا سنقبل الهزيمة ، وستتلى الضربات فى حرب بعد أخرى ، دون أن نكتسب أى نوع من الخبرة فى مواجهته ، ودون أن نبتكر أساليبنا الخاصة فى رد عدوانه ، على حين أن تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، هو تاريخ تراكم الخبرات الإنسانية وتطورها فى مواجهة التحديات المختلفة . ومن أهمها تحديات العدوان والاعتصاب .
وقد كان الإنسان يواجه فى عصر ما حيوانات شرسة هائلة ، مثل الديناصور ، واستطاع الإنسان أن يحفظ إنسانيته على الأرض ، ولم يستطع الديناصور الهائل أن يبقى ، فأبید من على سطح الأرض . وذلك لأن الإنسان قادر على اكتساب الخبرة يوماً بعد يوم . وقادر على تجديد أساليب الحياة حسب تطور ظروف البيئة ، والإنتاج ، على حين ظل الديناصور وحشاً هائجاً بلا عقل .

ولقد كانت النظرة المتعصبة ، الضيقة الأفق ، التي شجعت إسرائيل على اغتصاب الأرض العربية ، هي السبب في الصدمة التي لحقت بإسرائيل في حرب أكتوبر . رفض الإسرائيليون أن يصدقوا أننا قادرون على صياغة مستقبلنا ، وكانت أحزابهم تخوض الانتخابات بعد حرب ٦٧ تحت شعار : « ولا شبر واحد للعرب » . مقابل شعارنا بالأفراط في شبر واحد من الأرض العربية . وكان طريق السلام عندهم ، هو إنشاء دولة إسرائيل الكبرى ، الممتدة من النيل إلى الفرات ، وأن كل أرض احتلتها القوات الإسرائيلية أصبحت أرضاً إسرائيلية ، بما فيها الضفة الشرقية لقناة السويس . وكانوا يتحدثون عن تحقيق مستقبلهم الكبير بأسلوب « سياسة الأجيال والمراحل » التي شرحها موسى ديان في أكثر من مناسبة ، وهو القائل « كل جيل يخوض حربه الخاصة » وبذلك يحقق أهداف مرحلته التاريخية .

وكان يعتقد أن جيله حقق من خريطة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، الاستيلاء على سيناء حتى قناة السويس ، في اتجاه النيل ، والاستيلاء على الجولان والضفة الغربية في اتجاه الفرات . وكانوا يعتقدون أن أمريكا تضمن لهم تحقيق هذا الحلم . وكانوا في الوقت نفسه يقدمون ضمانات لأمريكا أهمها .

- * ألا تتورط أمريكا مع الاتحاد السوفيتي في مواجهة .

- * المحافظة على بقاء الحرب بين إسرائيل والعرب في حدودها المحلية . وأن هذا الإطار المحلي يضمن انتصار إسرائيل على العرب في أية حرب تنشب بينهما .

وفي مؤتمر لحزب مزراحي الذي يضم يهود أمريكا . وكان بمناسبة مرور ستين عاماً على إنشاء الحزب . صرح ديان قائلاً :

- « ليس هذا هو الوقت المناسب لإعلان قرار ضم الأراضي العربية المحتلة رسمياً من الكنيست . إن خلق الحقائق أهم من إصدار قرارات شكلية . والاستيطان اليهودي في هذه المناطق التي نحفظ بها ونحكمها بالفعل أهم من إصدار بيانات رسمية عن ضم الأراضي » .

هكذا كانوا يتصورون المستقبل بعد حرب ١٩٦٧ . وكانت صحف إسرائيل تفيض بالتعصب الاعمى ، فكنت تقرأ فيها مثل هذه

العبارات التي ننقلها كنموذج من صحيفة هايوم في ٢٤ أبريل ١٩٦٩ :

« إن قلبنا يمتلئ بالفخر ونحن نلتفت وراءنا إلى الطريق الذي سلكناه ، فنجد أننا نزداد أمناً مع انتصاراتنا العسكرية ، وإن الحرب هي التي تجعلنا هادئين آمنين ولا بد أن نزل ضربة قاضية بمصر ، وأن نجعل من الحرب طريقنا إلى السلام .
 فهل هناك غطرسة أو غرور أكثر من هذا بشاعة ؟ ! أليس هذا هو الديناصور الإسرائيلي الجبار الذي لابد أن تقضى عليه حماقته في مواجهة الرؤية الإنسانية السليمة ؟ !

لقد كان هذا الغرور الإسرائيلي ، يعميهم عن رؤية المستقبل ، وتصوره تصوراً سلباً . لقد صرح أحد كبار العسكريين لصحيفة ها آرتس الإسرائيلية بأن إسرائيل سوف تنتصر في أية حرب تخوضها ، ولن تحتاج إلى تدخل أمريكا المباشر إلا إذا حدث أمران :

أولهما : أن يستخدم العرب الأسلحة النووية ! !
 ثانيهما : أن يرسل الاتحاد السوفيتي قوات تقليدية برية ضخمة للهجوم على إسرائيل ! !

لقد تعمدت أن أطيل في نقل هذه التصورات الإسرائيلية ، لأنها تكشف لنا الآن مدى الخطأ الذي يقع فيه من يضع تصورات للمستقبل على غير أساس علمي سليم ، معتمداً على التعصب ، أو التخمين أو الرجم بالغيب .

فها نحن أولاء قد خضنا الحرب ، وحققنا فيها انتصاراً تحدث به العالم ، دون أن نلجأ إلى الأسلحة النووية ، ودون أن يرسل الاتحاد السوفيتي قوات تقليدية برية ضخمة ، ولا غير برية ، بل إن كل خبراته كانوا قد غادروا مصر قبل الحرب .

واستطاع القائد المصري ، والجندي المصري ، أن يحققا إرادتهما وأن يعبرا ، وأن يضطرا إسرائيل إلى الاعتراف بمبدأ الانسحاب ، بل تنفيذه جزئياً ، استعداداً لتنفيذه شاملاً كاملاً ، بعد كل هذا الذي قالوه عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات .

ما الذي نتصوره بعد ذلك عن المستقبل .

إن المستقبل ليس كلاماً نظرياً يقال . . إنه مراجعة لتجارب الماضي ودراسة عاقلة حكيمة لما تراكم من خبرات ، تؤكد لنا أن الصراع طويل ، وأن الهزائم نكسات عابرة ، نستطيع أن نعبرها بإيماننا بقضية التحرير ، التي هي بالنسبة لنا قضية حياة أو موت . وانتصارنا فيها محتم ، وعلينا أن نعجل بهذا الانتصار ، فنحاصر كل القوى التي تعطله ، والطريق طويل وشاق ، ولكن حرية الشعوب وخلصها من الاستعمار والاستغلال أمر حتمي ، بل تكاد تراه من خلال نظرة فاحصة شاملة للتاريخ .

سعيد سنبل

عملة . . اسمها الأمل





وفي أعقاب ٦ أكتوبر ، عاد الأمل إلى مصر .
الأمل في حياة أفضل . .
الأمل في مستقبل أكثر إشراقاً ، وأكثر لمعاناً . .
الأمل في عودة الابتسامة إلى الشفاه التي تحملت مرارة الألم سنين طويلة . .
لقد كانت آلام الشعب المصري عظيمة ، وكبيرة . .
وكاد شعب مصر في ظل هزيمة ١٩٦٧ أن يفقد الأمل في المستقبل ، ويقع
فريسة لليأس . . والويل لشعب يقع فريسة لليأس ، ويفقد الأمل في المستقبل !
وتكاثفت قوى عديدة من أجل تحطيم نفسية الشعب المصري . . ومن أجل
بث اليأس في نفوس أبنائه . ولكن هذه المحاولات فشلت وتحطمت في أعقاب معارك
٦ أكتوبر . لقد أثبتت هذه المعارك قدرة المصريين على التخطيط . . على التنفيذ . .
على القتال . . على استخدام الأسلحة المتطورة الحديثة . . ومن ناحية أخرى كشفت
هذه المعارك عن حقيقة العدو . . عدو يمكن قهره ، ويمكن إنزال الهزيمة به .
وتبدد اليأس . . وعاد الأمل .
ومع عودة الأمل عاد التفكير في المستقبل ، بعد أن كاد التفكير فيه يتوقف وينعدم !

وعادت الأسئلة تتردد عن المستقبل ، وما يمكن أن يحقق من أحلام عريضة واسعة لشعب عاش سنين طويلة في ظل حرمان وتقشف !

لقد تسببت هزيمة ١٩٦٧ في خلق وضع جديد في مصر ، لا أعتقد أن هناك من كان يتصور قيامه . تسببت الهزيمة في خنق الاقتصاد المصرى ، وفي توقف نمو الخدمات ، وفي انهيار المرافق العامة نتيجة العجز في الإنفاق عليها وتجديدها . تسببت في توقف نمو الصناعة ، بل في تراجع بعض الصناعات ، وظهور طاقات عاطلة فيها ، نتيجة لعدم القدرة على تجديد المصانع ، ولتقص المواد الخام اللازمة لتشغيل الآلات .

وكانت كل هذه الأوضاع نتيجة طبيعية لهزيمة ١٩٦٧ . لقد فقدت مصر سلاحها في هذه الحرب ، وكان لا بد من تعويض هذا السلاح . . كان لا بد من إعداد جيش جديد قوى قادر على الحرب بالسلاح . لا الحرب بالكلمات والتصريحات الخادعة المضللة . . وبناء الجيوش الحديثة المزودة بالأسلحة المتطورة يحتاج إلى أموال بالقدر نفسه الذى يحتاج به إلى رجال . . يحتاج إلى مئات الملايين من الجنيهات . . بل يحتاج إلى آلاف الملايين . وكان على مصر أن توفر هذه الملايين . . أقصد ألاف الملايين . توفرها من غذائها ، ومن كسائها ، ومن خدماتها . وبالفعل فرضت ضرائب جديدة على الشعب ، وتحملها الناس راضين غير معترضين . وانخفض معدل الإنفاق على التنمية . . كذلك انخفض الإنفاق على الخدمات . . كل هذا من أجل توفير الأموال للمعركة .

ومضت سنة وراء أخرى . .

وبدأت الجماهير تحسّ بقسوة الإعداد للمعركة .

إن الخدمات الرئيسية لا تتجدد ، ولا تتطور . حاجة الناس إلى الخدمات تتزايد ، وقدرة الخدمات على مواجهة احتياجات الجماهير تقف عاجزة ! ! المواصلات . . أصبحت مشكلة كل بيت ! مرافق المياه والكهرباء وصلت إلى

مستوى من التخلف لم يكن أحد يتصوره ! الدواء . . ساعة موجود ، وساعات عديدة غير متوافر !

والغذاء أيضاً . . لم يعد متوافراً كما كان من قبل . . وبدأت مدينة القاهرة ، تعناد ظاهرة الطواير التي تقف في غير نظام أمام الجمعيات الاستهلاكية ، للحصول على السلع التي يفتقر إليها السوق .

وتحمل الناس كل هذه الأعباء التي فرضتها الهزيمة العسكرية . . تحملوها من أجل يوم ترتفع فيه الرؤوس ، وتنفض الأكتاف عنها عار الهزيمة .
وجاء اليوم . .

٦ أكتوبر ١٩٧٣ . .

ارتفعت الرؤوس من جديد . . وسقط العار . .
وبدأ الحديث عن المستقبل . . برغم أن الحرب لم تنته بعد ، وبرغم أن المعارك العسكرية قد تتجدد مرة أخرى .

ومن حق المصريين أن يتحدثوا عن المستقبل . .
إنهم - بعد الفلسطينيين - تحملوا ما لم يتحمّله أى شعب عربى آخر على الأرض العربية . لقد ضحوا بكل ما يملكون . . لم يتاجروا بالكلمات . . لم يزايدوا بالشعارات . . إنما قدموا كل ما يملكون ، وأعزّما يملكون . .
قدّموا الأرواح ، والدماء ، والقوت اليومي .

صبروا . . احتملوا . . تعذبوا . . وعاشوا في ظل أقسى الظروف .
وشعب بذل كل هذه التضحيات ، من حقّه أن يتطلع إلى المستقبل .
وبدأت الأحلام الحلوة . .

وبدأ التفكير في الرخاء ، بعد سنين طويلة من التقشف والحرمان .
ولكن . . كيف السبيل إلى الرخاء ؟ كيف الوصول إليه ؟

الانفتاح . .

الانفتاح . . هو السبيل إلى تحقيق كل الأحلام ، وتبديد كل المتاعب .
وبدأت كلمة الانفتاح تردّد على الألسنة . . إنها الكلمة الجديدة التي دخلت حياة

المصريين بعد معركة العبور العظيمة . . إنها الكلمة القادرة على حل كل المشاكل وتبديد كل الصعاب !

بعد الانفتاح . . ستتوافر المواد التموينية . . يتوافر الطعام . . يتوافر الكساء . . تنتهى أزمة المواصلات . . تخفّ حدة أزمة الإسكان . . تتوافر المقاعد فى المدارس والأسرة فى المستشفيات .

كل المشاكل تنتهى ، وتتمزق بعد الانفتاح .
وكان حماس الجماهير للانفتاح أكثر من حقيقته . . وكان حديث المسؤولين عن الانفتاح أكبر من حجمه . .

لقد كثر الحديث عن الانفتاح . . حديث بالكلمات . . لا بالأفعال .
والكلمات قد تتحول إلى أوهام . أما الأفعال فهى حقيقة !
وكانت مشكلة الانفتاح ، أنها تحتاج إلى عقول متفتحة لتحول هذا الشعار إلى حقيقة وواقع . .

ويجب أن نعرف أن العقول فى مصر أُصيبَت بالانغلاق ، وقد انعكس هذا الانغلاق على تصرفاتنا وسياستنا فى الستينيات ، وبداية السبعينيات .
ومن أهم مظاهر الانغلاق ، ادعاء القوة والتقدم فى وقت يعانى فيه المجتمع الضعف والتخلف . وهذا ما حدث لنا فى مصر منذ بداية الستينيات . .
بدأنا ندعى القوة ، وندعى التقدم ، ولا نسمح برأى يخالف هذا الرأى ، أو يعترض عليه !

وقامت مراكز قوى فى مصر ، استفادت من تلك الأوضاع ، واستغلتها لحسابها . فرضت الإرهاب تحت شعارات الاشتراكية . . وأخفت انحرافاتنا وجرائمها تحت شعارات الثورية !

وفى ظل هذه الأوضاع ينعدم الرأى ، وتتوقف المناقشات . .

وهذا ما حدث .

انعدمت الآراء ، وتوقفت المناقشات . . وانغلقت العقول !

كيف يكون شكل التنمية ؟
لا أحد يجيب . . كل العقول مغلقة تنتظر رأى القيادة العليا ، لتعيده ،
وتردده ، وتدعو إليه !

كيف تكون الصناعة في مصر ؟
الأفضل هو ما تراه القيادة العليا . . لا ما يراه خبراء الصناعة ! إذا رأت القيادة
أن مستقبل مصر في التصنيع الثقيل . . فليكن التصنيع الثقيل ، وعلى خبراء الصناعة
أن يبرروا لماذا التصنيع الثقيل ! !
لا مناقشة ، ولا تبادل للرأى .

وفي ظل هذا الوضع ، تجمدت قضايا عديدة .
مثلا . . هل نحن في حاجة إلى رأس مال أجنبي ؟ . . وكيف ؟
هل نحن في حاجة إلى خبرة أجنبية ؟ . . وكيف ؟
لا أحد يناقش هذه القضايا ، أو يجرؤ على إثارتها ما دامت القيادة العليا لم
تثرها ، أو تطلب مناقشتها .

لا أحد يملك القدرة على التصرف ، أو البت ، أو الحسم . .
وكان هذا بدوره مظهراً آخر من مظاهر الانغلاق في مصر . .
وقد كان من المفروض في أعقاب عملية التأميمات الكبرى التي تمت في ١٩٦١ ،
أن تكون هذه العملية بداية لانطلاق وبداية لبناء اقتصادى جديد . .

كان المفروض أن يكون هذا التاريخ بداية لعصر جديد في حياة مصر
الاقتصادية ، بعد أن أعيدت صياغة العلاقات الاجتماعية . . ولكن - للأسف -
عجز التطور الاقتصادى عن ملاحقة التطور الاجتماعى . وبدلاً من أن يكون التأميم
بداية للانطلاق ، تحول التأميم إلى قيود فرضتها العقلية القائمة على إدارة القطاع
العام ، من أجل حماية أخطائها ، وحماية عجزها إزاء اتخاذ القرارات .

وظلت الأوضاع على ما هى عليه . .
وكان يمكن أن تستمر سنوات أطول ، لولا هزيمة ١٩٦٧ ، وما فرضته من
ضرورة تغيير الكثير من الأوضاع .

وكان من بين الأوضاع التي يجب تغييرها ، الوضع الذي يزعم القوة والتقدم ، في وقت يعاني فيه المجتمع الضعف والتخلف . وبالطبع . . لم يكن التغيير سريعاً أو سهلاً . . لم يكن من السهل مثلاً أن نعتزف بحاجتنا - برغم حاجتنا - إلى الاستثمارات العربية والأجنبية ، بعد أن صورنا هذه الاستثمارات بالاستغلال والنصب !

ولم يكن سهلاً أن نعتزف بحاجتنا إلى الخبرة الأجنبية بعد أن صورنا للعالم أننا قادرون على إنتاج الإبرة والصاروخ !

وبدأنا - في أعقاب الهزيمة - نتلمس الطريق إلى هذه الأوضاع الجديدة ، بحياء وبحذر وسط استنكار المتاجرين بشعارات الاشتراكية . .

ولم يكن سهلاً أن تأخذ الدعوة في بداية الأمر شكلها الواضح ، وإلا اتهمت بأنها من صنع الرجعية والإمبريالية ! لذلك بدأت الدعوة إلى « الانفتاح » تحت اسم التيسير الاقتصادي . . واستمر استخدام هذا التعبير من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٣ ، عندما ارتفع شعار الانفتاح واضحاً صريحاً .

وقد لاقت الدعوة إلى الانفتاح استجابة شعبية على أمل أن تؤدي سياسة الانفتاح إلى التخلص من المشاكل والمتاعب . . والتخلص من الحرمان الطويل . . وإن كان البعض - وهم قلة معظمها يعيش خارج مصر - زعم أن الانفتاح هو الارتداد عن الاشتراكية . . وهم بهذا يسيئون إلى الاشتراكية ويصورونها بالحرمان والانغلاق والجوع ! !

وسياسة الانفتاح هي العودة إلى التعايش مع العالم الخارجي . . هي العودة إلى فتح الأبواب والنوافذ المغلقة ، والاحتكاك بالفكر الذي يعيش وراء هذه الأبواب والنوافذ . . هي السماح لرأس المال الأجنبي بالعودة إلى العمل في مصر بعيداً عن الاستغلال والخوف في نفس الوقت .

ومثل هذا الأمر لا يتحقق بين يوم وليلة . . يحتاج إلى وقت ، والأهم من الوقت أنه يحتاج إلى عقول متفتحة . وقد كان من الضروري ، ونحن ندعو إلى سياسة الانفتاح أن نوضح هذه الحقيقة ، وأن نؤكد لها ، حتى لا يتحول الانفتاح

إلى شعار زائف من الشعارات التي يجيد البعض ترديدها . .
وكما قلت فإن حماس الجماهير للانفتاح كان أكبر من واقع الانفتاح . .
وهذا حق للجماهير . . وفي نفس الوقت كان حديث المسؤولين عن الانفتاح
أكبر وأكبر من حجمة وواقعة . . وهذا خطأ .
الواجب ألا نفرق الجماهير في الأمل . . وإلا تحول الأمل إلى وهم . . وإلى
سراب !

إن تحقيق سياسة الانفتاح تحتاج إلى أمور كثيرة . .
تحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى عقول متفتحة مؤمنة بما تفعله ، وقد عشنا سنين
طويلة وعقولنا مغلقة . . لذلك لن يكون سهلاً علينا أن نغير في يوم وليلة .
إنني أتصور مرحلة انتقال . . ستة أشهر . . سنة . . أو سنتين . . تنتقل فيها
العقول من حالة الانغلاق إلى حالة الانفتاح . بعدها تبدأ القدرة على حل المشاكل ،
وتبدأ القدرة على التخلص من الأزمات والاختناقات . . وتبدأ القدرة على العودة إلى
الحياة الطبيعية . . والانطلاق بعد ذلك إلى تحقيق الأمل في المستقبل .
إنني متفائل . . لأننا نملك عملة جديدة اسمها الأمل .

إبراهيم نافع

الكعكة لا بد من زيادة حجمها





سئلتُ كثيراً في الفترة الأخيرة : ما هو موقف الاقتصاد المصري ؟ والإجابة عن هذا السؤال في حدّ ذاتها عسيرة ؛ فليس من الممكن بطبيعة الحال القول في كلمات مقتضبة إن الموقف الاقتصادي طيّب . . أو إن الموقف الاقتصادي سيئ . . فكلا الردّين لهما ما يفسّرهما . . والحديث فيهما يحتاج إلى جلسات للشرح ، ولا يمكن أن توفيهما حقهما جلسة ليل .

إن الاقتصاد المصري مرّ بمراحل عدّة ، ظهر في بعضها عناصر قوة كبيرة ، وظهر في بعضها الآخر ملامح التعب والإرهاق . فإذا كان الاقتصاد المصري قد بدأ في الخمسينيات يخطو خطوات التمصير ووجود الذات ، فإنه قد بدأ في أواخر الخمسينيات ينفذ أول خطة صناعية ، ثم بدأ في أول الستينيات ينفذ أول خطة خمسية كاملة في مصر كانت نتيجتها - بحق - عظيمة ، إذ زاد معدّل التنمية حوالي $\frac{3}{4}\%$ في المتوسط ، وذلك بالرغم من أن هذه الخطة قد واجهت عقبات كبيرة سواء في اختيار بعض المشروعات أو عدم التوازن في تكامل القطاعات من جهة ، وبحرب اليمن من جهة أخرى ؛ وكانت النتيجة الحتمية ظهور عوامل التضخم التي بدأت تضغط بشدة على الموقف الاقتصادي في مصر ، وكان من

نتيجته أيضاً اللجوء إلى سياسة الانكماش في عامي ٦٥ و ١٩٦٦ .
وجاء عام ١٩٦٧ بالهزيمة العسكرية التي تركت بصماتها المركزة على الاقتصاد
المصري :

- إغلاق قناة السويس وفقدان حصيلتها بالعملات الأجنبية .
- فقدان الموارد الاقتصادية لمنطقة من أغنى مناطق مصر الصناعية والزراعية
والملاحية في بورسعيد والسويس والإسماعيلية .
- تهجير أكثر من مليون مواطن إلى قرى مصر والأعباء الاجتماعية التي كان
على الحكومة مواجهتها .
- إنفاق عسكري لإعادة بناء جيش بأكمله .

كان نتيجة ذلك باختصار :

١ - خفض الاستثمارات لمشروعات التنمية ، وبالتالي انخفاض الزيادة في
معدل التنمية حتى أصبحت بالكاد توازي الزيادة في السكان أو عدد البشر الذي
يزيد كل عام .

٢ - التضحية ببعض المرافق الأساسية كالطرق والمجارى والمياه والتليفونات
وبعض الخدمات الأخرى .

٣ - أصبحت بعض القطاعات في الدولة لا تعمل بكامل طاقتها وبخاصة
في الصناعة التي وصلت الطاقات العاطلة فيها إلى ٣٠٪ ، وكذلك الزراعة وقطاع
الأدوية .

ومع ذلك ، وبكل هذه الظروف ، وبالإضافة إلى أخطاء كثيرة أخرى يمكن
اعتبارها كمعاول هدم كبيرة في الاقتصاد المصري ليس هنا مجال تحليلها - أمكن
أن يثبت الاقتصاد المصري ، وأن يوفر إنتاجاً صناعياً وزراعياً ما كنا نقدر على
استيراده من الخارج مهما كانت الظروف .

وجاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان في حساباتها الموقف الاقتصادي

الصعب الذى كان ينتظر مصر فى عام ١٩٧٤ ، فى نواحى النقد الأجنبى والنقد المحلى أيضاً .

وفى أول أسبوع لحرب أكتوبر تولّت دول البترول العربية تمويل ميزانية النقد الأجنبى المصرى بما قيمته ٥٠٠ مليون دولار ، ساعدت على تمويل بعض النفقات العسكرية . ووقّرت فى الوقت نفسه بعض الأرصدة التى يحتاج إليها استيراد بعض السلع الضرورية الأخرى .

وبعد انتصارات أكتوبر ووجهت الحكومة بمتغيرات رئيسية داخل مصر وفى المنطقة العربية وفى العالم الخارجى .

داخل مصر

- الانتصار العسكرى على إسرائيل فى حرب أكتوبر لا يعتبر حلّاً نهائياً فما زال العدو يحتلّ أراضى مصرية من ناحية ؛ كما أنه لا يعتبر حلّاً نهائياً للقضية الفلسطينية ، وبالتالي فإن الاستعداد العسكرى لا بد أن يستمر . وبأقصى طاقة . وبالتالي أيضاً فإن الإنفاق العسكرى كما هو عليه وزيادة .

- اعتبار منطقة القناة من العمق المصرى ، ولذلك فلا بد من البدء فى عمليات التعمير وبالتالى إعادة أهالى المنطقة إلى مدنهم . . . كما أن عودة الأهالى إلى المنطقة يحتاج إلى تشغيلهم للاستفادة من الإنتاج فى هذه المنطقة . . . ذلك أيضاً يحتاج إلى اعتمادات أقلها المائة مليون جنيه التى اعتمدت للتعمير .

- إن تدهور بعض المرافق والخدمات الأساسية التى ذكرناها قد ظهر بصورة واضحة ، فى الوقت الذى وصل صبر الناس فيه إلى درجة التشبع .

- إن ارتفاع أسعار البترول ٤ مرات ، والتضخم الاقتصادى فى دول العالم الغربى ، قد أثرا فى الأسعار العالمية فى جميع السلع التى تستوردها مصر تقريباً . ومصر حتى الآن لا تعتبر دولة بترولية ، فلم تستفد من ارتفاع الأسعار بصورة مباشرة من جهة ، وتأثرت بارتفاع أسعار السلع الأخرى من جهة أخرى ، فارتفعت قيمة وارداتها فى العام الحالى إلى ١٢٠٠ مليون جنيه فى الوقت الذى وصلت قيمة صادراتها

إلى ٦٠٠ مليون جنيه ، أى بعجز فى الميزان التجارى يبلغ ٦٠٠ مليون جنيه ، مما يشكل عبئاً مالياً سواء عن طريق القروض أو التسهيلات الائتمانية من العالم الخارجى التى تدفع منها مصر أقساطاً سنوية بالإضافة إلى الفوائد .

فى المنطقة العربية

إن القرار الكبير باستخدام سلاح البترول فى المعركة العربية ، بوقف توريده عن بعض الدول ، ثم الزيادات المتتالية فى أسعاره ، قد خلق مورداً هائلاً من العملات الحرة لدى الدول العربية المنتجة للبترول . وهذا العائد يكفى الاحتياجات الداخلية للدول المنتجة ، سواء فى عمليات التعمير أو التنمية ، كما يكفى لتكوين احتياطات هائلة للسنوات المقبلة . وإن ما نخشاه هو أن الفائض بعد ذلك سيكون حتماً عبئاً على هذه الدول . ولا نقول فقط إن هذا الفائض يمكن استيعابه فى مصر ذات الإمكانيات الاقتصادية الكبيرة والإمكانيات البشرية الهائلة ، وإنما نقول إنه يمكن استخدامه فى المنطقة العربية جميعها ، ففيها الأراضي الزراعية غير المستخدمة ، وبها يمكن إقامة الصناعات الهائلة المتكاملة . وهذه تغير التنمية العربية وتفيد الشعب العربى بصفة عامة ، سواء فى اليمن أو فى سوريا أو فى السودان أو فى مصر . كما أنها تخلق عائداً ثابتاً للدول المنتجة للبترول ينفعها إذا ما نصب الخام الموجود فى الأرض .

فى العالم الخارجى

ظهرت بعد حرب أكتوبر القدرة الاقتصادية الجديدة للعالم العربى ، بما يملك من سلاح البترول من جهة ، وبما يمتلكه من عوائد البترول الضخمة من جهة أخرى . كما أن حرب أكتوبر أظهرت أيضاً الدور الرئيسى لمصر فى المنطقة العربية ، وأنه يمكن عن طريق التعامل معها الوصول إلى الدول العربية الأخرى . وصحيح أن العالم الغربى لن يهدأ حتى يجد حلاً لاستقطاب الموارد التى حصلت عليها دول البترول ، أو لإيجاد بعض الحلول أو القيود على الثروات العربية التى

تتحرك من بنك إلى بنك أو من دولة إلى دولة وراء فائدة أكبر . كما أنه صحيح أيضاً أن هذه الدول رفعت أسعار منتجاتها .

أين نحن الآن ؟

- ١ - أمامنا جميع المشاكل الداخلية التي ذكرناها .
- ٢ - وأمامنا المتغيرات في المنطقة العربية وفي العالم الخارجى .

ومن أين نبدأ ؟

هناك مشروعات قطعت شوطاً كبيراً في التنفيذ لا بد من استكمالها وتشغيلها ، للاستفادة بالأموال التي صرفت عليها ، وهناك مشروعات التعمير ، وهناك الطاقات العاطلة التي يمكن إعادة تشغيلها إضافة بضع مئات من ملايين الجنيهات . لذلك تم التفكير في إعداد خطة انتقالية تنتهى في آخر عام ١٩٧٥ لانتهاى من تحقيق هذه الأهداف عبوراً إلى خطة شاملة جديدة تعيد إلى مصر شبابها .

ما هو المستقبل ؟

أفكر في مستقبل الاقتصاد المصرى بعد حرب أكتوبر من الموقف الصعب وليس من الموقف الوردى ، من موقف العمل وليس من موقف اللامبالاة . ستبدأ مصر في عام ١٩٧٥ ، بقيمة الواردات التي تحتاج إليها للسلع التموينية الضرورية وللمواد الخام اللازمة لتشغيل الطاقات والآلات للمشروعات الجديدة تبلغ ١٨٤٢ مليون جنيه ، بقيمة حصيلة الصادرات المصرية ٦٤٢ مليون جنيه ، أى بعجز في الميزان التجارى يبلغ ١٢٠٠ مليون جنيه ، رقم ضخم . . يحتاج إلى مجهود أضخم .

هل هو مستحيل ؟

الرد بدون تردد : لا .

وهذه هي الحقائق :

- إن الانتصار العسكرى فى أكتوبر عامل اقتصادى حاسم . وإنه إذا تم الوصول إلى حلى نهائى فى جنيف ، كان معنى ذلك إعادة فتح قناة السويس ومواردها لن تقل بأى حال من الأحوال عن ٢٥٠ مليون جنيه عملة صعبة .
- إن خفض الإنفاق العسكرى سيؤثر ولا شك ، بالرغم من أن مصر لا بد أن تحتفظ بجيش قوى على أعلى مستوى تكنولوجى حمايةً لأمنها واقتصادها القومى .
- هناك خط الأنايب الذى يجرى تنفيذه وموارده مضمونة .
- إن الزيادة فى الإنتاج التى ستحققها إعادة تشغيل الطاقات العاطلة ستمكّننا من أن نصدر جزءاً منها ، ولا سيما أن قيمة هذا الإنتاج تصل إلى حوالى ٦٠٠ مليون جنيه .
- إن مصر لم تحصل بعد على نصيبها من السياحة الدولية . وذلك يرجع إلى حالة الخوف السائدة قبل حرب أكتوبر من جهة ، وعدم استعداد فنادقنا من جهة أخرى . وإن عودة الاطمئنان إلى مصر ، وسياستها الثابتة ، مع الاهتمام باقتصاديات السياحة ، وزيادة الفنادق التى بدئ فى إنشائها ، ستزيد من دخل السياحة .
- إن البترول موجود فى مصر ، والدلائل مشجعة ، وإن بعض الحقول الغنية التى قد تكتشف يمكن أن تقلب الصورة تماماً .
- الاستفادة من القروض المتاحة ، وبخاصة تلك التى تمّ الاتفاق عليها بعد حرب أكتوبر ، يمكن أن تعطى نتائجها سريعاً ، كما أن المعونات والتسهيلات ذات الشروط السهلة التى بدأت تظهر فى الأفق ، أو تصل بالفعل ، ستسهل بعض الصعوبات .
- إنه مع الاستفادة بما ذكرناه من متغيرات إقليمية ودولية ، سيتمكن ضمان تدفق بعض الأموال العربية إلى مصر ، وضمان الخبرة الفنية والتكنولوجيا

الحديثة من العالم الخارجى . وذلك بطبيعة الحال يحتاج إلى خطة واضحة يظهر فيها : المشروعات المحددة التى ستقوم بتنفيذها الحكومة والقطاع العام . أو المشروعات المشتركة بين القطاع العام والمستثمر الأجنبى ، أو القطاع العام والقطاع الخاص المصرى ، أو القطاع الخاص المصرى وحده ، أو القطاع الخاص المصرى مع القطاع الخاص الأجنبى .

بذلك يبدأ العمل فى جميع القطاعات ، وتبدأ انطلاقة اقتصادية اجتماعية لا مكان فيها لمنفرد أو لمصنف ، فالازدهار لا يأتى طوعية لشعب شاكٍ أو باكٍ ، وإنما يأتى عن عمل طويل شاق متواصل يؤتى ثماره لشعب بأكمله . فالموارد الإضافية هى وحدها التى يمكن إعادة توزيعها كأجور ، أو فى إنشاء مشروعات جديدة تضيف عمالة جديدة ، أو يمكن عن طريقها تحسين الخدمات . وإلا فستكون النتيجة بصفة عامة أصغر من توزيعها على مجموعة أكبر .

الدكتورة طلعت الرفاعي

سياًتي النُّور





أَقُولُ لِكُلِّ مَنْ هَامُوا
بِحُبِّ الْأَرْضِ وَالْجَدُولِ
أَلَيْسَ الْعَارُ
فِي دَارِي . . بِنَارِ الْغَدْرِ
أَنْ أُقْتَلَ
وَمَا ذَنْبِي سِوَى أَنِّي
بِحُمْرِ كِرَامَتِي أُشْعَلُ . .
أَقُولُ لِكُلِّ مَنْ عَبَدُوا
أَجِيجَ تَرَابِهِمْ قَبْلِي
أَقُولُ لِكُلِّ مَنْ سَكِرُوا
بِعَطْرِ نَسِيمِهِمْ مِثْلِي
أَقُولُ لِكُلِّ مَنْ عَشِقُوا
جَمَالَ الْحَقِّ وَالثَّوْرَةَ . .
أَيَا نُورَ كُلِّ الْأَرْضِ

يا مَنْ في ضماثرهم
عذابُ الأرض والإنسان
يا مَنْ يشعلون دماءهم من أجل
مَحْوِ شقاء هذى الأرض والإنسان
أقول لهم . .
أتى العدوان
يزحفُ في رُبِّي وطني
أتى يَغْتالُ
فيه الأرض والإنسان . . !

* * *

أقول لكلُّ من نُكِبَتْ . .
لكلُّ صَبِيَّةٍ أَكَلَتْ
ضباغَ الحربِ فارسَها . .
لكلِّ قَتَى على عَيْنِيهِ
طيفٌ من حبيبته التي غرقتُ
بنار الحرب
لكلِّ أبٍ
فَقِيدُ حَيَاتِهِ وَلَّى
فَأَصْبَحَ حُرْقَةً
في قاعِ قاعِ العين
لم تَدْمَعْ
أقول لكلِّ والدَةٍ
فتاها راح لم يَرْجِعْ
أقول لهم . . .

سيأتي النور . .
 يَغمرُ بالسَّلامِ الأرضُ
 يُزهقُ عَتَمَةَ الباطلِ
 بصفعةِ شمس . .
 أقول لكل من هاموا
 بفجرِ راحَةِ الصَّحوةِ
 بطولةِ شعبنا صرعتْ
 وحوشَ شِراهِةِ القَسوةِ
 بطولةِ شعبنا نَفَضَتْ
 عِظامَ الأرضِ
 فانتفضتْ براكِينا
 يُدوي جمرُها بالرعدِ
 إن الحقَّ مِدْفَعُنَا
 وإن الحقَّ صارِينَا
 فيانيران كونيْنَا . .
 سَقِينَا من دِمَانَا الشمسِ
 فوق رمالِنا السَّمراءِ
 نشتعلُ . .
 فتشتعلُ الرمالُ بنا
 أما أبصرتَ في سيناءِ
 لوحاتِ تَضْيءُ بها
 دِمَاءُ الشَّمسِ
 نحنُ بها دِمَاءُ الشمسِ
 تَشْرَبُنَا الرمالُ . .
 فترتوي . .

نحيا . .

نصير بها بساتينا

وأنهاراً تُغنى

تحت ضوء الشمس

إن الحقَّ شريانُ السلام

ونحن نبض الحق

في شريانه دمننا

يدقُّ ملاحيمَ الثوره

كذلك نحن نجري اليوم

أنهاراً . .

ونزرعُ في حقول الليل

أقماراً . .

لأهل الأرض . .

* * *

أقول لكل من نصّبوا

جسوراً عظمها التحرير

رفعنا من جماجمنا

قلاعاً صخرها العزّه

وكنّاها بمرتفعاتنا الشّماء

كنّاها صواعق

لا تملُّ اللهو . .

في غاب يُسمّى الموت

كنّاها . .

على هضباتنا

أسطورةً لبطولةٍ وعُره

تَلَقَى الْغَدْرُ فِيهَا
ضَرْبَةً مَرَّةً
وَذَاقَ الْقَهْرُ
جَائِزَةً عَلَى الْعُدْوَانِ
فَوْقَ مَنَابِرِ التَّارِيخِ
فِي الْجَوْلَانِ . .

* * *

أَقُولُ لِكُلِّ مَنْ حَسَبُوا
قَصِيدَةَ حُبِّنَا نَزْوَهُ
وَمَنْ فَتَحُوا لَوَحْدَتَنَا
بِكُلِّ خَمِيلَةٍ هُوَ
أَقُولُ لَهُمْ :
قَصِيدَةُ حُبِّنَا أَلْقُ
وَنَبْعَ النَّبْعِ لَا يَرْقُ
إِلَيْهِ الْحَبْرُ وَالْوَرَقُ
قَصِيدَةُ حُبِّنَا سِفْرُ
بُعْمَقِ الْعَمَقِ مَخْتَرِقُ
قَصِيدَةُ حُبِّنَا أَزْلُ
مَدَاهِ الضُّوْءِ وَالْعَبَقُ
حَقِيقَةُ حُبِّنَا قَدْرُ
يَجْذُرِ الْجَنْدَرِ مُلْتَصِقُ
دَمٌ غَنَّى بِنَبْضِ دَمٍ
عَلَى السَّاحَاتِ مُعْتَنِقُ
عِنَاقِ صَاغَةِ عِلْمٍ
عَلَى الْهَامَاتِ مُنْعَتِقُ

أقول لهم ؟ . . .
 بلمح البرق كُناها
 بأروع ما يكون الكون
 كناها . .

بكل هدير هذا الكون
 كناها . .

بمدّ موجه مائة
 من المليون كُناها . .
 إرادة قلب . . !

* * *

لجئنا في بطون الأرض
 ماردنا . .

إله النار والبركه . . .
 فشبَّ القرُّ

وانتصبت جبالُ

من صقيع الموت

وانشلت ليالٍ

كان فيها الضوء

يرقص يملأ الدنيا مزاميرا

وسودنا نهاراتٍ

بومضة ريشة منا

أحلناها دياجيرا

على أشلائها تركه

لبعض مفاصل الحركة . .

* * *

نَثَرْنَا الذُّعْرَ . . .
 رُحْنَا مِنْ كُؤَانَا الْحُمْرِ
 نَرَقِبُ مَرَقَصَ الْأَعْدَاءِ
 أَحْجَاراً مِنَ الشَّطْرَنْجِ
 تَرَكُضُهَا هُنَا وَهَنَّاكَ
 تَلَهَتْ تَحْتَ وَطْءِ الرُّزْءِ
 تَجْرِي فِي خُطَى الْأَشْبَاحِ
 خَلْفَ سَرَابِ حَفْنَةِ دِفْءٍ . . . !

* * *

أَقُولُ لِأَصْدِقَاءِ الْحَقِّ
 وَالْحُرِّيَةِ النَّصْرَةَ
 أَقُولُ لِكُلِّ مَنْ وَقَفُوا
 بِحَالِكَ لَيْلِنَا مَعَنَا
 عَرَفْنَاكُمْ وَعِشْنَا وَهَجَ ثَوْرَتِكُمْ
 وَأَسْكَرْنَا رَحِيقُ النَّصْرِ
 تُزَكِّيهِ بِسَالَتِكُمْ
 لَكُمْ مِنَّا بِأَكْثَرِ
 تَحِيَّاتُ النَّضَالِ بَعِيدِ ثَوْرَتِكُمْ
 بَعِيدِ لِقَائِنَا الْأَكْبَرِ
 مَعَ التَّحْرِيرِ
 فِي سِينَاءَ وَالْجَوْلَانِ
 أَقُولُ لَهُمْ . . .
 نَحْيِيكُمْ
 وَنُهْدِيكُمْ وَرُوداً
 مِنْ حَدَائِقِ نَارِنَا الْعَطِرَةِ

مُضْمَخَةٌ

بعطر الشمس

أَنتُمْ يَا رِفاقُ الشمسِ

أَنتُمْ يَا أَحِباءَ

السلام

ويا بناةَ حضارةِ الثورةِ . .

محمود عوض

جيل سيئ السمعة !





كان الرومان يقولون منذ ٢٣٠٠ سنة : من حق كل إنسان أن يحنّ مرة !
وإذا مارست بدورى هذا الحق الآن فإنه يجب أن أقول عن الجيل الذى
أنتمى إليه . إنه جيل سيئ السمعة . كنا كذلك قبل حرب أكتوبر . . ويجب أن
نظل كذلك بعدها .

لقد رضعنا فى صبانا المبكر شعارات كثيرة ، وقرأنا إشارات مرور كثيرة ،
تحدد لنا مقدماً الطريق الذى يجب أن نسلكه من أجل أن نصبح فى النهاية مواطنين
صالحين فى هذا البلد ، وهذه الأمة . إنهم حددوا لنا مقدماً نوع « الطبخة » التى
يجب أن تتكون منها عواطفنا ، ومقاس القالب الذى يجب أن نضبط عليه تصرفاتنا ،
وطبيعة المواقفات التى يجب أن تكون عليها أفعالنا لكى نحصل من المجتمع بعد
ذلك على شهادة بحسن السير والسلوك . مواصفات تقول لنا إن المواطن الصالح
هو الشخص الذى لا ينقد أبداً ، وإنما يوافق دائماً . . لا يبادر أبداً ، وإنما يتبع
دائماً . . لا يسأل أبداً ، وإنما يطيع دائماً . . لا يجازف أبداً ، بل يحتاط دائماً . .
لا يتفوق أبداً ، بل يتوسط دائماً . . لا يتطرف أبداً ، بل يعتدل دائماً . . لا يغامر
أبداً ، ولكنه يبحث عن راحة البال دائماً .

إن صبانا المبكر ، في هذا الجيل ، هو تسجيل حى لهذه المواصفات التى كنا نتنفسها فى كل ثانية مع كل نسمة فى الهواء ، وكل كلمة فى الصحف ، وكل تعليق فى الإذاعة ، وكل صورة فى التلفزيون .

كانت مشكلتنا هى الحرية . حرية أن نقول « لا » ، وحرية أن نرفض مبدئياً التنازل عن هذه الحرية مقابل أى « علف » يقدمه المجتمع لنا . إن المجتمع ظل يعلمنا سنوات طويلة أن الخبز أهم من الحرية . . والطاعة أهم من التمرد . . والتصفيق أهم من التفكير . وحينما تمرّد جيلنا كله على هذه الشعارات ، بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، بدأ الأكبر سناً منا - الأكبر سناً وسلطة - ينظر من قمة الهرم إلينا نحن الواقفين فى السفح . إنه ينظر إلينا ، ويمصمص شفثيه مشمئزاً ومعتزضاً ومندهشاً فى النهاية . هؤلاء الشباب مشاغبون . ما الذى يريدونه من هذا البلد ؟ ألم نضمن لهم التعليم المجانى ؟ ألم نضمن لهم وظائف فى الحكومة كل سنة ؟ ألم نشتر لهم مائة أوتوبيس فى العام الماضى ؟ ألم نقرر لهم عشرين جنيهاً بصرفونها كل شهر بغير أن يستحقوها ؟

نعم ، كل هذا حدث . . وأكثر .

ولكن المشكلة كانت دائماً هى أننا نفكر فى أشياء لم تكن مهمة عندهم بالأمر !

لم يكن السؤال هو : هل يصمد بلدنا أولاً ؟ طبعاً سوف يصمد . ولم يكن السؤال هو : هل تاريخنا مستمر فى التراكم أولاً ؟ طبعاً مستمر . ولم يكن السؤال يتعلق بما إذا كان بلدنا يعيش أم لا . إنه يعيش .

ولكن السؤال كان هو : كيف يعيش بلدنا ؟ هل يعيش باعتباره جزءاً من القرن العشرين ، أو باعتباره عقبة فى طريقه ؟ قبل أن نفكر فى أين وماذا ومتى ولماذا . . يجب أن نفكر ، ونطيل التفكير فى : كيف ؟ إن كل إنسان يستطيع أن يكون غنياً . . بالتهريب أو بالسرقة أو بالنصب أو بالاحتياال ، أو بالكفاية . إن ثروته لا معنى لها قبل أن نعرف أولاً : كيف حققها ؟ من هنا فقط نستطيع أن نرى ثروته باعتبارها قيمة مضافة إليه أو مخصومة منه .

ولقد حدث مرة أن كتبت في جريدة « أخبار اليوم » سلسلة بعنوان « محاولة لفهم الجيل الجديد » . . ونشرت الحلقة الأولى منها في عدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٨ . وفي تلك السلسلة كتبت أقول :

« لقد تراكمت عدة اتهامات ينسبها الجيل القديم إلى الجيل الجديد ، كان من نتيجتها أن أصبح الجيل الجديد جيلاً سيئ السمعة ! هل أقول الحق ؟ إن معظم الاتهامات الموجهة إلى الجيل الجديد - وأنا منه على أى حال - هي اتهامات صحيحة ! وربما يحتاج الجمهور هذه الحقيقة إلى أن يحن الإنسان مرة . . كما كان يحق للرومان القدماء . ولكن الأمل يبقى هو العزاء الوحيد . الأمل في أن إنساناً ما . . شخصاً ما . . سوف يعود إلى هذه الحقيقة بعد سنوات قادمة ويقول : فعلاً . . كان هذا الرجل عاقلاً منذ عشرين سنة ! »

إن الرقيب الحكومى على الجريدة بدأ يقرأ البروفات قبل النشر ، بأصبع على شفتيه ، متردداً من البداية في الموافقة أو الاعتراض على نشر السلسلة . إنها صحافة مصر قبل العبور

ثم استمر الرقيب يواصل قراءة ما كتبت في الحلقة الأولى . . إلى أن وصل إلى فقرة قرأها بصوت مرتفع ، كما لو أنه اكتشف قبلة زمنية تحت كرسيه . في الفقرة كنت أقول : « إن الحكومة تريدنا - نحن الجيل الجديد - أن نصبح كالمساكن الشعبية التى تبنيها : متشابهين في كل شيء ، منظمين في كل شيء ، متوسطين في الارتفاع ، متساوين في الحجم . هذه هى الصورة المؤلة . . إن كل ما تريده لنا الحكومة هو أن نسجل حياتنا يوماً بعد يوم . سنة بعد سنة ، صمتاً بعد صمت . نوماً بعد نوم ، تكراراً بعد تكرار . إن المجتمع قد يتصور أننا أصبحنا كذلك فعلاً بحكم الرغبة ، ولكن هذا هو الخطأ الفادح . إن كل الاتهامات ضدنا صحيحة . . ولكن . . لا تجعلونا كبش فداء لخطايا المجتمع . . هو الذى ولدنا . هو الذى أنشأنا . هو الذى يجب أن يقف في قفص الاتهام » .

هنا بدأ تلمل الرقيب يصبح اعتراضاً ، والاعتراض يصبح تأشيرة حمراء . لقد اعترض على الفقرة كلها . وبعد مناقشة اعترض على نصفها . وبعد مناقشتين

اعترض على سطر واحد فيها .

لم يكن هذا هو المهم . ولكن المهم هو أنه في اليوم التالي شاءت الظروف أن تقع مظاهرات الطلبة الشهيرة في فبراير سنة ١٩٦٨ . كانت المناسبة الظاهرة للمظاهرات هي الأحكام التي صدرت ضد قادة سلاح الطيران بسبب هزيمة يونيو . ولكن التطورات سرعان ما كشفت بعد ذلك عن الأسباب الأخرى ، الأعمق ، لتلك المظاهرات . أسباب تتعلق بأسلوب كامل في التربية ، والتعامل ، والحكم . . كان الشباب هم أكثر ضحاياهم ، وهم الآن أكثر المتمردين عليه . إنهم متمردون ضد السلطة والمجتمع كله ، الذي أصبح الآن في قفص الاتهام .

وفجأة أصبح الجو السياسي كله مشحوناً بالكهرباء . . وأصبحت تلك الكهرباء واضحة في التشدد المفاجئ من الرقابة على الصحف . إن الرقيب الذي كان يتناقش معي في الأسبوع الماضي ، أصبح معترضاً على أي مناقشة في هذا الأسبوع . وبدلاً من أن يشطب سطرين أو فقرتين ، شطب في هذه المرة الحلقة الثانية بأكملها . إنها حلقة كنت أناقش فيها أسباب الفجوة بين الشباب والمجتمع . . ولكن الرقيب كان يراها باعتبارها « مذكرة تفسيرية » لما جرى من مظاهرات . . .

- هل تراني أحرص على مزيد من المظاهرات ؟

- لا .

- ألم توجد هذه الحلقات لديك من قبل المظاهرات ؟

- نعم .

- إذن ، لماذا تعترض على حلقة بأكملها ؟

- لأن الجو الآن مشحون بالكهرباء .

- ولكن ، لماذا هو أصلاً مشحون بالكهرباء ؟

- لأن الشباب يتظاهرون في الشوارع .

- ولكن ، لماذا يتظاهر الشباب ؟

- لا أعرف .

- إذن ، ماذا تعرف ؟

- أعرف فقط أن لدى تعليمات ، ويجب أن أنفذها . . مفهوم ؟
 طبعاً مفهوم . إن المفهوم هو أن إخفاء ما يجرى أحسن علاج له . ليس المطلوب
 هو تشخيص المرض ، أو علاجه ، ولكن المطلوب هو التظاهر بعدم وجوده . . وهذا
 هو أساس المشكلة بيننا وبين المجتمع كله . إن أحداً لا يريد أن يعرف ، أو يتظاهر
 بأنه لا يعرف . إن لهم عيوناً ولكنهم لا يرون . . وإن لهم آذاناً ولكنهم لا يسمعون .
 لقد كانت تنطبق على جيلنا تماماً كلمات الزنجي الأمريكي في الرواية التي
 كتبها « رالف إليسون » سنة ١٩٥٣ . كلمات قالها وهو يصرخ : « أنا رجل خفي . .
 إن الناس يرفضون أن يشاهدوني . . إنني متألم من حاجتك إلى إقناع نفسك
 بأنني موجود في الدنيا الحقيقية ، وأنني جزء من كل الضجة والقلق . إنني ألعن ،
 وأشتم ، وأقسم أن أجعلهم يعترفون بي . . إنك معترض على تصرفي هذا ، وتعتبره
 تصرف إنسان غير مسئول . إن الحق معك . . ولكن ، لمن أستطيع أن أكون
 مسئولاً ، ولماذا يجب أن أكون مسئولاً ، وأنت ترفض رؤيتي ؟ » .

نعم ، كان المجتمع يرفض رؤية جيل بأكمله . يرفض مناقشته أو الاعتراف
 به أو حتى مجرد الاستماع إليه .

وتلك كانت مشكلة السنوات العشرين الأخيرة . إنها مشكلة من عشرين مشكلة
 خلقها الخلل السياسي الذي تسمّم به المجتمع المصري قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧
 بسنوات طويلة . خلل اصطلاحنا على تسميته مؤخراً بـ « مراكز القوى » .

لقد كنا نحن ، الجيل الشاب في هذه الأمة ، وقود هذه الثورة . . بدل أن
 نكون جنودها . إن جيلنا ولد لكي يفتح عينيه على شعارات مثل « ارفع رأسك
 يا أخى . . فقد مضى عهد الاستعباد » . . فالثورة تلقفتنا وعمرنا أقل من العاشرة .
 إن أناساً هذه مواصفاتهم لا يمكن اتهامهم بأنهم يدافعون عن جذورهم قبل الثورة .
 لم يكن لنا جذور . ولا يمكن اتهامهم بأنهم يريدون العودة إلى الوراء . لم يكن خلفنا
 وراء . ولا يمكن أيضاً اتهامهم بالتآمر . لم يكن بيننا متآمر . لم يكن خلفنا هدف نسعى
 إليه . . والهدف الوحيد المتاح لنا هو التقدم إلى الأمام . التقدم ببلدنا ، وبأنفسنا .

لقد تلقفتنا الثورة ونحن جيل ملئ بالتحدى الطازج للحياة . جيل مشحون

بالمرح والصحة واللهفة والشوق والأمل والحيوية . لم تكن في صوتنا نبرة يأس ، ولا في تفكيرنا آثار هزيمة ، ولا في شخصياتنا علامة حزن ، ولا في حياتنا معركة خاسرة . إن المعارك الخاسرة بدأها وخاضها غيرنا . وبالرغم من أننا في النهاية دفعنا جزءاً من الثمن . . فإننا لم نتورط مطلقاً في واحدة منها .

ثم . . بدأنا نشم رائحة الفساد . بدأنا نشم الرائحة ، بغير أن ندرك بالضبط أين مصدرها ؟ . . ولماذا السكوت على أسبابها ؟ في تلك الأيام كان التمرد شيئاً مفهوماً . . ولكن عقوبة إعلانه كانت قاسية . إن العقوبة هي أن يتم تصنيفك في خانة المعادين للثورة . نعم ، ففي تلك الأيام كان كل شيء - صواباً أو خطأ - يتم الحديث عنه باعتباره إنجازاً من إنجازات الثورة .

إن كلمة « ثورة » عريضة في مداها . . فهي تمتد من أقصى المثالية ، إلى منتهى الوحشية . . ومن العظمة إلى القسوة . ومن الروحية إلى القوة . إنها كلمة تغير ألوانها لأنها تستمد أصباغها من الناس والظروف . وفي الثورة المصرية ، كما في كل ثورة أخرى ، تستطيع أن ترى بوضوح نوعين من الثوريين عملاً تحت لوائها . منذ سنة ١٩٥٢ : هؤلاء الذين أصبحوا ثوريين بدافع من المثالية ، وأولئك الذين أصبحوا ثوريين بدافع من الحقد . إن الأولين - كأشخاص من أفضل من الجماهير - يريدون رفع هذه الجماهير إلى مستواهم ، بالتجربة ، والتعليم ، والتحرر . أما الآخرون فقد كانوا في حالة تعيسة من البداية . . لأنهم يريدون أن ينتقموا من هؤلاء الذين كانوا أسعد منهم ، وبارتفاعهم إلى السلطة يريدون الانتقام من هؤلاء الذين سقطوا من السلطة ، إنهم في النهاية يمثلون نمواً متقيحاً على الوجه الطاهر للثورة .

وكانت المشكلة هي أن هذا التقيح ينمو يوماً بعد يوم . . تحت سمع الجميع ، وعلى مشهد من الجميع .

وفي الوقت نفسه كانت الحصانة ضد هذا التقيح تنهار يوماً بعد يوم . إننا نعرف مثلاً أن الجسم الإنساني ، حينما يواجه اختلالاً صحياً ، نسميه مرضاً ، يكون مصحوباً بردود أفعال محددة قاطعة . . تميل إلى أن تعيد الجسم إلى حالة

تشبه ما كان عليه قبل هجوم المرض . إن شيئاً شبيهاً بذلك يجب أن يحدث حينما يعاني نظام اجتماعي من الاختلال أو المرض . شيئاً يشبه نفس النوع من رد الفعل يجب أن يحدث لكي تعود الأمور إلى نصابها ، وتحل الصحة محل المرض . إن بعض الثورات القصيرة النظر تقضى مقدماً على مثل هذه القوى التصحيحية ، وهذا يفسر لنا جزئياً لماذا تنتهي ثورات كثيرة إلى شيء مختلف تماماً عما أراده لها الثوار في البداية .

ولقد كنا نحن - شباب هذه الأمة - ندرك ذلك ولا نفهمه . . ندرك أن في بلدنا أخباراً سيئة لا تقولها لنا الصفحة الأولى . . وإشاعات متناثرة لا تفسرها لنا شاشة التلفزيون . . وعلامات استفهام كبيرة لا تعترف بها موجات الإذاعة . في تلك الأيام كان الرجال يرقون فجأة كالشهب ، ويسقطون فجأة كالشهب أيضاً . وحينما كنا نبدي أقل علامة من التساؤل . . فإن حكماء هذه الأمة كانوا ينصحوننا بأن نغلق أفواهنا ونصمت . . فحتى «الحيطان لها ودان» . نعم ، نستطيع أن نتساءل . . ولكن ليس بصوت عال . نستطيع أن نبحث . . ولكن ليس بجرأة . نستطيع أن نستقصي . . ولكن ليس في كل شيء . نستطيع أن نشارك . . ولكن ليس في القضايا الأساسية للمجتمع . إن القضايا الأساسية ، خصوصاً الأساسية ، ممنوعة علينا ، بل ممنوعة على الجميع .

كنا نحن - صغار هذه الأمة - نعبر عن إحساسنا .

وكانوا هم - كبار هذه الأمة - ينقلون إلينا حكمتهم .

كانوا يردون علينا قائلين : إن كل شيء يهون في سبيل الهدف الأسمى . نعم . هناك تسلط سياسي ، وهناك كبت وقمع وتعذيب وإرهاب وتقارير سرية ومراكز قوى . ولكن ، ما قيمة كل هذا إلى جانب الأهداف الكبرى التي تحققت ؟ وإذا كان لابد من الاعتراض . . فإن النتيجة لن تختلف في النهاية . النتيجة هي أن الحياة تسير . . بنا أو من غيرنا .

بالطبع ، الحياة تسير . إن الحياة تسير . سواء تصرفنا فيها كجبناء أو كأبطال . ولكن السؤال هو : تسير إلى أين ؟ إلى القرن الحادى والعشرين . أم إلى القرن

الحادى عشر؟ إلى الديمقراطية . . أم إلى الإرهاب ؟ إلى الانتصار على الواقع ، أم إلى الهزيمة أمامه ؟ بالطبع ، الحياة تسير . ولكن فى هذا العصر من الاضطراب والتغيير والتشوش والشك والامتهان . . فإن على كل منا أن يبحث عن معنى لحياته .. عن قيمة يسعى إليها ومبدأ يحارب من أجله .

كنا نلاحظ أن الجيل القديم - حكماء هذه الأمة - يساندون كل إجراء ماداموا هم يقفون على الشاطئ الآخر من النهر . لقد أيدوا وساندوا إلغاء الأحزاب واختفاء المعارضة ، أيدوا وساندوا حكم الرجل الواحد . أيدوا وساندوا إلغاء المؤسسات الدستورية . أيدوا وساندوا النظر إلى المواطنين باعتبارهم مجموعة من الأتباع ، وليسوا مجموعة من الشركاء . أيدوا وساندوا اختفاء الرأى الآخر . أيدوا وساندوا الكبت والقمع والتعذيب والتسلط والمعتقلات . . مادام فى الزنزانة مواطن آخر غيرهم . وفى كل اختبار كان اهتمامهم يتركز أولاً على سؤال واحد فقط : ألا تزال رؤوسهم ثابتة فوق أكتافهم أم لا ؟ فوق أكتافهم . إذن : يا عزيزى الحاكم ، استمر ونحن معك . الكراسى ما زالت تحتهم ؟ إذن : نحن وراءك .

إن الحاكم فى أى أمة يستطيع أن يطفى ، وأن يستبد ، وأن يجعل أعوانه يطغون ويستبدون . هذه طبيعة الحكم . ولكن حكماء هذه الأمة يستطيعون أن يعترضوا ، وأن يمتنعوا وأن يرفضوا . ولكن كل هذا لم يحدث . وإذا حدث أن أصبح التعفن أمامهم أقوى من تجاهلهم إياه .. فإنهم كانوا - فى أحسن الأحوال - يديرون ظهورهم وينظرون إلى الاتجاه الآخر ، متظاهرين بأنهم لا يرون التصفية الكاملة لكل رأى مختلف . وهو الأمر الذى كانت مراكز القوى تقوم به بصفة دورية .

إنهم كانوا يجدون حجة مقنعة فى كل مرة . حينما انهارت الحجج كلها ، أخرجوا فى النهاية حججهم الأخيرة : كل شىء يهون فى سبيل مصر . مادامت كلمة مصر أصبحت مسموعة ، وجيشها أصبح أقوى ، واستقلالها أصبح أكيداً ، ومعاركها أصبحت منتصرة ، إذن .. فكل تنازل يهون . تهون الحرية ، تهون الثقافة ، يهون التعليم ، يهون العدل . والتاريخ يعلمنا أن أفدح المظالم يمكن أن تستمر ، وأكبر الأكاذيب يمكن أن تعيش . . إذا سكت عليها عدد كاف من الناس .

واقتنعنا . .

إننا اقتنعنا لأنه لم يكن أمامنا سوى أن نتمزق بين بديلين : إما أن ندخل دنيا الآباء بشروطهم هم . . وإما أن نبقى جزءاً من دنيانا في المدرسة أو الجامعة . . بشروطنا نحن .

إننا لو بقينا في دنيانا بشروطنا ، فإننا نكون قد هزمنا أنفسنا مقدماً قبل أول طلبة . ولو دخلنا دنياهم بشروطهم . . فعلينا أن نقدم التنازلات إليهم من أول دقيقة . فبمجرد أن تحصل على وظيفة بعد التخرج ، تصبح جزءاً من المجتمع ، ويصبح عليك غالباً أن تهاون على حساب تلك المبادئ التي ظلت غالية وعزيزة عليك فترة طويلة سابقة . إن الاختيار الوحيد المطروح أمامك هو : إما أن تكون سنداناً ، وإما أن تكون مطرقة . إن أصحاب النفوذ حجزوا لأنفسهم المطارق . . ولم يتركوا لك سوى أن تكون سنداناً . الكل يدق فوق رأسه ، وليس عليه سوى أن يستسلم .

نعم ، دخلنا الواقع بجزء من شروطهم . تحمسنا وصفقنا وآمنا وأيدنا . . لم يعد أمامنا أن نعتمد على نظام . . وإنما أصبح علينا أن نعتمد على النوايا الطيبة لمن يحكموننا .

لم يعد أمامنا أن نعترض على الانتهازية والوصولية والنفاق والكذب . . وحينما كان أبى يقول لى « لا تكذب . . لأنك لو كذبت فلن يصدق أحد ما تقول » ، فإننى كنت أعلم أنه يقول لى بنفسه كذبة مدوية . . لأننى أعرف أن الأكاذيب هي أكثر الأشياء نجاحاً وانتشاراً .

لم يعد أمامنا أن نعترض ، فلقمة العيش مهددة . . والحرية مفقودة . لقد كان هذا مفهوماً جديداً . . حيث البراءة تصبح الدليل الملموس على أنك مذنب . إن الجريمة لم تعد هي أنك تعترض ، ولا أنك تتكلم . لقد أصبحت الجريمة هي أنك لا تصفق بصوت أعلى من زميلك ، أو لا تتحمس بقدر أعلى من جارك في الشقة التالية . الجريمة أصبحت هي أنك لست عضواً في شلة ، والشلة ليست جزءاً من مركز قوى ، ومركز القوى ليس جزءاً من نظام .

لقد انتشر الفساد وتفشت الانتهازية والمحسوبية واختفت الكفايات وهاجرت الأصوات المخلصة ، ومن لم يهاجر بقى فى مكانه . . ولكن بعد أن أعلن انسحابه النفسى والعقلى من كل ما يجرى . إن كتاب التقارير السرية هم الذين يحتفظون لأنفسهم بحق الكلمة الأخيرة فى تقرير هل أنت مواطن صالح أولاً ؟

لقد كنا نودع فى كل ليلة واحداً من الآمال الكبيرة فى حياتنا ، ونتقبل العزاء فى وفاة حلم من الأحلام العريضة فى عقولنا .

نعم : كنا نموت قليلاً . . كل يوم .

وفى البداية كنا - نحن المتفرجين - نهون الأمر على أنفسنا بقولنا : معلش

. . كل شىء يهون فى سبيل مصر .

فى البداية هانت المبادئ وبعدها هانت القيم ، بعدها هان المستقبل ، وأخيراً :

هانت مصر ! لقد صحونا ذات يوم لكى نجد مصر مضروبة فى ميدان القتال .

لقد ضربتها إسرائيل . . ولكنها فى الحقيقة كانت مضروبة من الداخل . .

قبل وقت طويل من هزيمتها أمام إسرائيل .

كانت مصر قد تعفنت ، وصممت ، وتنازلت ، وتسوست . . قبل أن يشهد

قتال يونيو الرصاصه الأولى .

إننى لست محتاجاً هنا إلى أن أسجل الزلزال النفسى الضخم الذى أحدثته كارثة

يونيو ١٩٦٧ . فلقد فعلت ذلك فى مقالات وكتب أخرى . ولكنى محتاج فقط

إلى تسجيل ما حدث بعد الكارثة .

لقد فوجئنا بأن الذين أعلنوا من قبل تأييدهم لكل ما حدث . . هم أنفسهم

الذين يعلنون اليوم إدانتهم لكل ما حدث . إنهم حكماء فى كل مرة . . منطقيون

فى كل مرة . . متحمسون فى كل مرة . . ولكنهم فى النهاية : كاذبون فى كل مرة !

إن كل ما يريدونه هو السلطة . . بقايا السلطة ، وذبول السلطة ، ورضاء

السلطة ، وبعدها . . فليذهب أى شىء إلى الجحيم .

ولكننا لم نذهب إلى الجحيم . لقد بدأ جيلنا يرفض من جديد أن يتنازل على

بياض عن عقله وتفكيره وإحساسه . . رفض جيلنا أن يذهب ثمن الهزيمة هباء .
 إن الذين دفعوا ثمن هذه الهزيمة من دمائهم كانوا نحن ، أبناء هذا الجيل ،
 ولم يكن أى أحد آخر . لقد مات منا الآلاف على رمال سيناء فى ظل تعليمات تقول
 لهم : تراجعوا إلى الخلف . . وليس فى ظل تعليمات تقول لهم : تقدموا إلى الأمام .
 مات منا الآلاف بغير أن يعرفوا لماذا . . ولا ماذا جرى . إنها المرة الأولى فى تاريخ
 مصر على ما أعلم . . التى نكون فيها ضحايا بلا معركة . . وأمواتاً بلا سبب . . وشهداء
 بلا قضية .

ولكن ، حيث كان مفروضاً أن تكون هزيمة يونيو ضربة قاضية لكل شىء
 نظيف وصادق وظاهر فى مصر . . فإنها بدأت تصبح ضربة قاضية لكل شىء
 مزيف ومتسلط وكاذب فى مصر .

إن جيلنا رفض أن يستسلم ، وبدأ يفكر لحسابه الخاص . إن تفكيره فى هذه
 المرة بدأ بعد الفيضان . لقد خرجنا من الهزيمة بغير أبطال نسير خلفهم ، ولا زعماء
 نستمع إليهم ، ولا علم نلتف حوله ، ولا تقاليد نجتمع حولها ، ولا ذكريات تشدنا
 إلى الدنيا المزيفة التى اندثرت . لقد أصبحنا جيلاً مولوداً بغير جبل سرى . إن
 معنا الحق ، والإحساس ، والأمل . . ولكن ليست معنا السلطة .

إن السلطة كانت ، حتى بعد يونيو ، ما تزال فى أيدي مراكز القوى . وفى الحرب
 ضد تلك المراكز كانت الهزيمة مصير كل من حاول الاقتراب منها ، بما فى ذلك
 جمال عبد الناصر نفسه . كان هذا شيئاً طبيعياً ، بعد سنوات طويلة من النمو
 السرطانى لتلك المراكز . سنوات تحولت فيها السلطة إلى دائرة مغلقة ، والحكم إلى
 تركة وراثية ، والمناصب إلى مكافآت على الولاء .

أقول إن جمال عبد الناصر نفسه . . ربما يكون قد حاول . . ولكنه اكتشف
 فى النهاية أن الواقع قد أفلت من بين يديه . كان هذا شيئاً طبيعياً بعد أن أصبحت
 مراكز القوى مثل تلميذ الساحر الذى استحضر عفريتاً من الجان لكى يأتبه بشىء
 من النبيذ . ولما كان يجهل التعويذة التى يصرفه بها بعد أن جاءه بما يكفيه . . فإن
 أمره انتهى إلى الغرق فى بحر من النبيذ .

أو . . فلاقل شيئاً آخر : إن إرهاب مراكز القوى قد اتخذ لنفسه إيقاعاً خاصاً به .
إن الوحش « فرانكشتاين » قد تم بناؤه ببطء وبحرص عبر فترة من الزمن ، والآن . .
أصبحت له إرادة خاصة به لا يمكن وقفها .

كانت القضية المبدئية هي : من المسئول عن كارثة يونيو ١٩٦٧ ؟
لقد بدأ جيلنا يتهامس ، ثم يتكلم ، ثم يصرخ ، ثم . . أخيراً . . يتظاهر .
إن مظاهرات فبراير ١٩٦٨ كانت أول رد فعل حاد من الغاضبين في هذه الأمة ،
الذين يريدون أن يعرفوا حقيقة المرض . قبل أن يوافقوا على العلاج المطروح .
كان التناقض هو أن عقوبة التآمر على قلب نظام الحكم هي خمس وعشرون
سنة ، في حين أن عقوبة التآمر على هزيمة مصر هي خمس عشرة سنة !
وكان التناقض هو أن نقول إن الثأر ضروري في المستقبل القريب . .
ولكن المناقشة ممنوعة في الماضي القريب !

وكان التناقض هو أننا نقول إن هذه الهزيمة لن تتكرر ، ولكننا نرفض في الوقت
نفسه أن نناقش أسبابها .

كان هذا نوعاً من المنطق المعكوس . . ولم يكن له سوى تفسير واحد : أن فتح
ملفات هزيمة ١٩٦٧ سوف يمزق ثقباً كثيراً في ستارة الغموض وعدم المسئولية
التي تحيط بها مراكز القوى نفسها . من هنا كانت الأسباب الملحة - وليست
الكاملة - لمظاهرات ١٩٦٨ .

إن جيل الشباب يريد أن يحصن مصر ضد الهزيمة مستقبلاً . . في حين تريد
مراكز القوى أن تحصن امتيازاتها ضد المحاكمة مستقبلاً . من أجل هذا كانت
الرغبة في القمة هي أن هزيمة ١٩٦٧ تعتبر كارثة . . هذا صحيح . . وتمثل قضية ،
هذا حق . . ولكن ، دعونا نقيد القضية ضد مجهول ! دعونا نعتمد من جديد على
النوايا الطيبة لهؤلاء الذين يحتفظون في أيديهم بمقاليد الأمور .

وكان هذا كثيراً . . كثيراً جداً . فخرجت المظاهرات . مظاهرات ضد الواقع ،
وضد إعفاء أحد من الحساب ، وضد السلطة .

إنني شخصياً كنت دائماً ضد السلطة . ليست السلطة التي يمثلها سائق

أوتوبيس لا يقف عند المحطة ، أو أب يمتنعك من السهر ليلا . إننى أفهم ذلك مع أننى لا أحبه . ولكننى أتكلم هنا عن السلطة التى تنظر إليك وإلى جيلك كله باحتقار كامل . إنهم ربما يقولون لك إنك رفيق طيب للحظة . ولكن ، حينما يضع شخص ما قطعة ورق فى أيديهم يعطيهم بمقتضاها قدراً من السلطة . . فإنهم يبدئون فوراً يتحكمون فيك ويستبدون بك . . تلك هى اللحظة التى أكون فيها ضد السلطة . وفى الوقت نفسه فإننى شخصياً ضد العنف . وضد التظاهر كأسلوب للتعبير عن رأى . بل إننى حرصت دائماً على ألا أكون جزءاً من تنظيم أو شلة تفرض عليك ما تريده .

ولكن هذا كله لا يمنعنى من أن أفسر على الأقل دوافع الجيل الذى أنتمى إليه . . فى التمرد والغضب . إن الشباب هم فى العادة مثاليون أكثر مما هم ثوريون خطرون . إن الاختبار الحقيقى لكل مجتمع يكمن فى قدرته - أو عجزه - عن التعامل مع الجيل الشاب فى حالات احتجاجه هذه ضد تخلف الواقع عن المثل العليا . وحينما يكون المجتمع مستقراً فى أساسه ، ومرناً بما يكفى للتجاوب مع أوجه الشكوى . . فحينئذ يستطيع هذا المجتمع أن ينام قريح العين دون أقل خشية من شبابه . إن الطريق مفتوح أمامهم للتعبير عن آرائهم أولاً بأول ، بغير عقبة أو رقابة أو وصاية . . فلماذا إذن يخشاهم المجتمع أو يخشى غيرهم ، ويخشى أن ينقلوا احتجاجهم إلى الشارع ؟ ١

أما حينما تكون الوسيلة الوحيدة التى يستخدمها المجتمع مع حركات الاحتجاج هى العنف . . وهى الكبت . . وهى التسلط . . فإنه يصبح حينئذ معرضاً للخطر . خطر التعرض لنوبات هستيرية مفاجئة من السخط ، وخطر التحجر السياسى وفقدان الحساسية للمشاعر المتغيرة بين أعضائه .

إن شيئاً من هذا كان قائماً وقتها فعلاً .

لقد تحركت الحكومة بسرعة فى اتجاهين : امتصاص هذا الاحتجاج السياسى بالالتفاف حوله عن طريق مجموعة من الإجراءات (إعادة محاكمات الطيران . . بيان ٣٠ مارس . . التعديل الوزارى . . إلخ) ثم بقذف المنطق القديم فى وجه الشباب : ماذا تريدون ؟ ألم نضمن لكم التعليم المجانى ؟ ألم نضمن لكم وظائف

في الحكومة ؟ ألم نشتر لكم مائة أوتوبيس في العام الماضي ؟ إلخ . . . إلخ .
إنه المنطق القديم نفسه : ليس للإنسان من حقوق على حكومته أكثر من
« العلف » الذي تقدمه له .

إنها - أيضاً - المبارزة القديمة نفسها : أيهما أكثر أهمية . . الخبز أم الحرية ؟
إن أحداً لم يفهم أن ما يميز الإنسان عن المخلوقات الأخرى هو أنه - بالإضافة
إلى رغبته في أن يعيش - يريد أن يعيش حياة أفضل .
وأحداً لم يفهم أن في مصر أبطالا حقيقيين يجب أن تكتشفهم . . قبل أن تركع
أمام أبطال ملفقين .

وأحداً لم يفهم أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ لم تكشف في الواقع عن مجرد أزمة حكومية .
إنما كشفت أساساً عن أزمة حضارية .

وأحداً لم يفهم أننا يجب أن ننظر إلى الحكومة باعتبارها شيئاً أقل من مشكلة
سلطة ، وشيئاً أكثر من مشكلة قيادة . .

وأحداً لم يفهم أن انسحاب شباب هذا المجتمع منه قد احتاج إلى كارثة
قومية ، وسوف يحتاج استردادهم إليه إلى ثقة قومية .

وأحداً لم يفهم أن « الأتباع » الذين ضحوا بعشرين ألف قتيل بغير تساؤل . .
لن يفرطوا اليوم في نقطة دماء واحدة بغير حيثيات .

نعم . لم يفهم أحد . أو ، على الأقل ، لم يحاول أحد . لقد اتخذت إجراءات ،
وأزيلت آثار ، ولكن الأسباب بقيت على ما هي عليه . أسباب الهزيمة .

ثم : بدأ التغيير .

مع حدة الصراع ضد العدو ، وتكرار حركات الاحتجاج والغضب ، واستمرار
فجوة الثقة قائمة . . بدأ التفكير في علاج آخر .

إن هذا العلاج لم يبدأ بإجراءات ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، ولا هو بدأ بحرب
أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

إننا بدأنا نكسب حرب أكتوبر ، في رأيي ، قبل أن تقع فعلا بسنوات طويلة . .
تماماً مثلما بدأنا نخسر حرب يونيو قبل أن تقع بسنوات طويلة .

ففي أول استفتاء شعبي جرى بمصر لانتخاب أنور السادات رئيساً للجمهورية - وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٩٧٠ - خرجت نتيجة الاستفتاء معلنة أن ٩٠,٢ ٪ يوافقون على السادات كأول رئيس للجمهورية يخلف عبد الناصر.

كانت تلك في حد ذاتها نتيجة مثيرة للدهشة . . بعد أن جرت العادة في مصر من قبل على أن تكون نتيجة أى استفتاء هي مقدماً ٩٩,٩٩ ٪.

المهم . . خرج أنور السادات بعدها لكي يعلن على شاشة التلفزيون في ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ ، قائلاً : « إن الدين قالوا لا . . إنما كان قولهم لها تحفظاً على المرشح لرئاسة الجمهورية نفسه . إن هذا لم يسبب لى أى ضيق ، ولا اعتبرته مدعاة لألم ، إنما اعتبرته ظاهرة صحية » .

لقد استطاع الحاكم ، أخيراً أخيراً ، أن يضع أذنه على النبض الحقيقي لمصر . القدرة على أن تقول « لا » للحاكم . . بغير أن يكون الثمن هو اعتبارك خائناً وعدواً وكافراً ومنتزحاً . إنها كلمات جديدة ، وأسلوب جديد . إن هذا التصحيح كان مبكراً من أنور السادات بالنسبة لسليبات نظام الحكم في مصر . إن حقلك وحتى وحققها وحقنا جميعاً في أن نقول « لا » بغير أن تطاردنا أجهزة الحاكم نحن وأولادنا من بعدنا . إن هذا المواطن المعترض ظل هو المواطن الخفي في المجتمع المصري طوال فترة طويلة سابقة . إنه كان موجوداً دائماً . . ولكن الاعتراف به هو الذى لم يكن موجوداً . . كما لو كان مجرد التظاهر بعدم وجوده هو القضية الأساسية .

ثم جاء أنور السادات فجأة لكي يعلن : كلنا شركاء في هذا البلد . . الذين يقولون نعم والذين يقولون لا . إن هذه الحقيقة هي شيء بديهي ومفروغ منه ، وهي الأصل والأساس . ولكن ، من طول غيابها عن حياتنا السياسية في مصر . . أصبحت تبدولنا - نحن شباب هذه الأمة - كالاكتشاف المفاجئ . . وهو انطباع لم أستطع التخلص منه لفترة طويلة تالية .

إن أنور السادات لم يتحرك بعدها بسرعة . . فركز القوى أحاطته بحقول ألغام وقنابل زمنية عديدة . . ولكنه في ذلك اليوم عبّر على الأقل عن اتجاه السفينة .

مع ذلك فإن أنور السادات نفسه لم يسلم هو الآخر من مواجهة تمرد هذا الجيل . إن الجديد في هذه المرة هو أنه لم يتخذ من هذا التمرد حجة جديدة لإعادة هذا الجيل إلى ما كان عليه . لا شيء في هذا العصر يعود أبداً إلى ما كان عليه . إنه أيضاً لم يضع جيلنا أمام بديلين اثنين : الخبز أو الحرية . إنه لم يفعل ذلك ، بالرغم من أن مراكز القوى حاولت أن تغريه بذلك . طبعاً : التفكير البوليسى في السياسة يبدأ دائماً من مقدمة أن كل الناس مذنبون ومتآمرون إلى أن يثبت العكس . مع ذلك فإن عوامل كثيرة ساعدت في بقاء أزمة الثقة تلك على ما هي عليه . الثقة بين جيل الشباب وبين الدولة .

فمن الناحية المبدئية كان هناك في الظل دائماً كابوس هزيمة ١٩٦٧ ودروسها . ومن ناحية أخرى كانت هناك حالة الكسل العقلى التى أصيبت بها أجهزة السلطة ، بحيث إنها لا تريد مطلقاً أن تنزل إلى الشباب وتسمع منهم وتفسر لهم . . ولكنها تريد فقط أن تزجرهم وتعاقبهم .

ومن ناحية ثالثة هناك تجاهل للتغيير الذى وقع في المناخ السياسى ولا يمكن إلغاؤه . . إن جيلنا هو الذى عانى من الهزيمة والمرارة والألم . ألم السير في حياة لا يعرف اتجاهها ولم يشترك في صنعها . . ووسط أحداث لا دور له فيها سوى التفرج عليها . لقد تقطعت أسلاك الاتصال بيننا وبين الدولة . . بحيث أصبحت فجوة الثقة أزمة ثقة . إن تشويه السمعة أصبح هو وسيلة الجميع ضد هذا الجيل . وكأنما أصبح سوء السمعة عزاء وتعويضاً عن جوهر القضية نفسها . لقد قالوا عن جيلنا إنه جيل من المتمردين بغير سبب . . والمعارضين بغير دافع . . والمشاعبين بغير قضية . بغير قضية ؟

إذا لم يكن الدفاع عن بلدنا ، وإدخال القرن العشرين إلى حياتنا ، هو القضية . . إذن . . فماذا تكون القضية ؟

إن القضية كانت بالنسبة لنا تحمل أبعاداً كثيرة ، بعد أنور السادات وبعد سقوط مراكز القوى وانتهاء النظرة البوليسية إلى جيل بأكمله . القضية أصبحت هي : كيف نسترد قوتنا . . والعدو يحتل أرضنا على بعد مائة

كيلومتر من عاصمتنا ؟

القضية هي : كيف ننقد مصر ، بغیر أن تؤذيها ؟ . . كيف ندافع عن مصر ، بغیر أن ندعم فيها الخيلاء والخطرة ؟ . . كيف نغير مصر ، بغیر أن ندمرها ؟ . . كيف نروى قيمها الطيبة ، بغیر أن ننمى فيها أعشابها الطفيلية ؟ . . كيف نعشق ترابنا ، بغیر أن تدوس علينا الأقدام ؟ . . كيف نعبّر لأنور السادات عن ثقتنا فيه ، بغیر أن يخلتس سمسرة الأمن والبوليس جزءاً منها لحسابهم ؟ . . كيف نقف معه صفّاً واحداً ، بغیر أن يعنى هذا أننا نقف معه عقلاً واحداً ؟ . . كيف ننقل إليه حبنا ، بغیر أن نساهم في موجة جديدة من عبادة الفرد ؟ . . كيف نخبره بأننا أبناءه ، بغیر أن نجعله حاكماً أبوياً ؟ . . كيف نثق ، بغیر أن تكون ثقتنا على بياض ؟ . . كيف تؤمن ، بغیر أن يكون إيماننا غيائياً ؟ . .

إن علينا أن نتحد جميعاً في السعى لانتصار قادم . . بالرغم من أننا مشحونون بالمرارة من هزيمة تحققت .

تلك كانت قضية جيلنا . كانت كل هذا . . وأكثر .

كانت قضيتنا هي إصرارنا على أن نكون دولة عصرية . إصرارنا على أن يكون مجتمعنا . . ليس عادلاً ومتنبهاً فقط ، لكن مفتوحاً أيضاً . وحينما كنا نقول ذلك ، كان حكماء هذه الأمة - وهم مازالوا مستمرين في التحدث باسمها - يحتجون في البداية بأن صوت المعركة أهم من أى صوت آخر . . إن هذه الحقيقة ، التي هي صحيحة في جوهرها ، كانت تتحول في النهاية إلى وسيلة جديدة لإنكار أو إخفاء تفسحات وعورات مجتمعنا خلف شعارات أخلاقية ووطنية . إن سقوط تلك الشعارات لم يكن يمنعهم من الدهشة بسبب غضب جيلنا وتمرده . . الذي هو بالضرورة نوع من النقد لأوضاع كثيرة . . هم أنفسهم جزء منها .

إنهم لم يدركوا أن ضغط الهزيمة على أعصابنا ، واستمرار الاحتلال لأرضنا ، كان يملأ عقلاً بمشاعر خطيرة : مشاعر الفخر المهزوم والآمال الخائبة ، والقيم التي هزمتها النرجسية القيادية .

لقد حمل كل منا هذا التوتر العصبي في داخله إلى جامعته ، ووظيفته ،

وجاره في الشقة التالية ، وزميله في الأوتوبيس ، وصديقه في النادي ، وشريكه في تراب هذه الأرض . ومع كل يوم جديد يمر بغير تحرك ضد العدو المحتل لأرضنا . . . كان البخار يتجمع . . . والتوتر يتراكم . . . والقنبلة الزمنية توشك أن تحول المجتمع كله إلى شظايا . إن القيادات كلها كانت تبشرون قريب وبثأر لا بد منه ، ولكن جيلنا كله كان يحتاج إلى دليل . إن نفوسنا قبل الطلقة الأولى في المعركة - لن تستطيع أن تصدق أو تستريح أو تهدأ .

ثم : انطلقت الشرارة .

لقد بدأت الحرب في تلك اللحظة التاريخية بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر . هنا فقط التأمّت الجراح ، وتوحدت الصفوف . هنا فقط أخلت المرارة مكانها للثأر . لقد تحولت الأمة كلها في لحظة واحدة إلى جندي واحد . . . وعقل واحد . . . وصف واحد .

إن أحد مشاهد تلك اللحظات لن يغيب عن ذهني مطلقاً . فبمجرد إذاعة البيان الأول نسي الناس كل شيء فجأة ، كل شيء مرير ومؤلم اختفى وذاب فجأة في مشهد واحد : مشهد الناس وهم يتكلمون بعضهم إلى بعض ، ليست أحاديث طارئة وعرضية . . . ولكن أحاديث طويلة حارة بين غرباء تماماً . إنهم غرباء جمعهم البيان الأول على نواصي الشوارع وفي المقاهي والميادين . إن البيان الأول - بقدر اقتضابه وقلة كلماته - أشعل انفجاراً من الكلمات والأحاديث والمناقشات . إنها مناقشات تجري كنوع من الاستشفاء العام . لقد انطلقت الشرارة . وفي انطلاقها أعادت تذكير الناس بحقيقة أن علاقاتهم بعضهم ببعض ظلت طوال ست سنوات فظة جداً ونخشة للغاية ، ثم غير أخويه . إن الأطفال عادوا يتحدثون بحب إلى آبائهم ، والموظفين يحبون رؤساءهم ، والمواطنين يثقون تماماً في قائدهم . في هذه المرة لن يحاسبه أحد على النتيجة . . . ولكن يكفيه فقط أن يقوم بواجبه كمصري .

وعلى رمال سيناء نفسها . . . كان كل جندي يقوم بأكثر من واجبه . . . إن شحنة الانتظار والألم تترجم نفسها الآن إلى رصاص ينطلق ودماء تسيل . إن

الجيل المتمرد ، الجيل سيئ السمعة ، يعوض الآن بعقله ما تقصر فيه التكنولوجيا . .
ويسدّ بصدره فوهات المدافع في خط بارليف . ويفتدى بروحه كل حبة رمل
أمامه . إنه في هذه المرة يدفع دمائه وروحه ثمناً لمعركة حقيقية . ثمن له مقابل .
يكفى أن يكون المقابل كرامة وعزة ورأساً يرتفع إلى السماء وقدماً تتقدم إلى الأمام
واحتراماً ضائعاً يعود إلى النفس .

كان هذا هو أعظم إنجاز حققته حرب أكتوبر : احترام النفس .
في هذه الحدود يصبح أن أقول إن حرب أكتوبر أعادت ضبط عقاربنا كلها
على ساعة واحدة . لقد استيقظنا من جديد على كمية لا نهائية من الحب يحتفظ
بها كل منا لبلده في أعماقه . . إن الذين قالوا نعم لكل شيء ، والذين قالوا لا لأي
شيء . . أصبحوا فجأة يقولون كلمة واحدة : إلى الأمام .

تلك هي الروح التي حققتها معركة أكتوبر .
ثم : انتهت المعركة . . ولكن الحرب لم تنته .
إن الرصاص عندما توقف لم يكن هذا يعني مطلقاً أن الحرب قد انتهت . .
أو أن كل شيء أصبح على ما يرام فجأة . لا . بالعكس . فعلى المستوى العسكري :
ما زالت المعركة مستمرة ، وما زال الرصاص محتاجاً إلى الانطلاق من جديد .
وعلى المستوى الحضاري : ما زالت القضية الرئيسية قائمة .

إن القضية في هذه المرة أصبحت بكل معنى من المعاني : تجديد شباب مصر .
ومثلما اكتشف كل منا لنفسه دوراً في المعركة العسكرية ، فإن على كل منا
أن يكتشف لنفسه أيضاً دوراً آخر في المعركة الحضارية . إن السلطة تستطيع
أن تتقدم إلى جيل الشباب بيد ممدودة وعقل مفتوح وقلب صاف ودعوة جادة
 للمشاركة . إننا ربما لا نستطيع أن نعطي هذه الأمة مزيداً من الشعارات أو
الفلسفات أو الأقوال المأثورة . ربما لا نستطيع أن نعطيها وعوداً براقة تمضغها
ألسنتنا وتدوسها أقدامنا . بالتأكيد ليس هذا دورنا .

ولكننا بالتأكيد أيضاً نستطيع أن نعطي هذه الأمة مزيداً من الصدق والصراحة . .
والثقة في المستقبل . . والأمل في القرن الحادي والعشرين . إننا من الآن نفعل

هذا فعلا ، ولكننا نستطيع أيضاً أن نفعل أكثر .
إن المشكلة هي أنك ما لم تحتل مركزاً وتملك سلطة . . فإن ما تستطيعه يمكن
أن يكون قليلاً جداً .

ولكن ، حتى هذا القليل . . يحتاج إليه بلدنا الآن ، في هذه اللحظة ، بشكل
حاد جداً . إن كلاً منا يستطيع مثلاً أن يعيش نوع الحياة الذي يعجبه . ولكن
مذاق هذه الحياة يمكن أيضاً أن يرهن ، أو يحاول أن يرهن على أنه ما زال من
الممكن أن نختلف بغير عدا ، وناقش بغير مرارة ، ونتجادل بغير ألم . مازال من
الممكن أن نعمق في بلدنا ، وحكومتنا ، ومؤسساتنا ، القدرة على التحمل . تحمل
الاختلاف والنقد والتجربة والحوار الحي بين الرأي والرأي الآخر .

بالطبع سوف يظل الرأي الآخر مجرداً من الحماية ما لم تسانده مؤسسات دستورية
قائمة ومعترف بها ، وتمارس نشاطها في الضوء والعلانية . إن هذا يجرنا إلى مناقشة
قضية الديمقراطية وقضايا أخرى كثيرة ليس هذا مجالها . إن ما يجعلني متفائلاً ،
من الآن ومقديماً ، هو أن أنور السادات نفسه مؤمن بهذه القضايا . . مؤمن بأن
الخبز ليس بديلاً عن الحرية . . والحرية الفردية ليست منفصلة عن المؤسسات
التي تحميها . . والقانون ليس مختلفاً عن العدالة . . والشعارات ليست تعويضاً
عن التطبيق . . والحكماء ليسوا بديلاً عن الشباب . . والولاء ليس بديلاً عن الكفاية . .
والنوايا الطيبة ليست بديلة عن الأعمال الطيبة . باختصار . باختصار . المواطن
الحر . . هو الشرط الأول لبناء الدولة العصرية .

وفي هذه النقطة فإن كل ما يفعله أنور السادات هو أنه يسد الشيكات التي حررتها
الثورة على نفسها ، وتأجل تسديدها فترة طويلة جداً - ٢٢ سنة !

حلمى مراد

الجدية . . سبلنا إلى مستقبل أفضل





عندما جلست لأكتب هذه السطور ، تراحت في رأسي الخواطر : ماذا أكتب ؟ وماذا أدع ؟

في كل يوم ، بل في كل لحظة ، يرى كل منا ويسمع ، في كل موقع ، ما يثير الأسى ويبعث على الخجل . . ما يستوجب النقد ، والإصلاح ، بل الثورة على الأخطاء التي ما يزال يرتكبها « أفراد » في مواقع المسئولية ، على مختلف المستويات !

أفراد لم يغيروا - بعد - ما بأنفسهم : إن عمداً ، أو تواكلاً ، أو جرياً على سنة الداء المستشري في بلدنا ، مع الأسف المفجع : اللامبالاة !

أفراد لم يفعلوا بعد بروح ٦ أكتوبر . . أو - على أحسن الفروض - تنقصهم « الهمة » لتطوير أنفسهم ، وأساليب تصرفاتهم ، وقراراتهم ، وتوقعاتهم . .

فما الذي ما زلنا نفعله ببلدنا في الواقع ؟ . . وما الذي ينبغي - و « نستطيع » - أن نفعله ، للعبور به إلى مستقبل أفضل ، بعد أن حقق له الرئيس الشجاع « أنور السادات » ، ومعاونوه الأكفاء ، العبور العسكري والسياسي إلى النصر ؟

نحن نتبادل الحكايات ، والنقد ، والنكات . . ثم ينفص « السامر » ،

ويمضي كل شيء في طريقه : تستمر الأخطاء . . واللامبالاة . . و « الانغلاق » . .
والتعقيد !

بدلاً من تبادل النقد في المجالس . . فليعمل كل منا على إصلاح ما يملك
إصلاحه من أخطاء - ولو صغيرة - في موقعه ، فما الكبائر إلا مجموعة من هذه
الصغائر !

بدلاً من تبادل النكات في غير طائل . . فلتتق الله في بلدنا ، ونصطنع الجدية
ولو « اصطناعاً » ، إن صحَّ ما يزعمه أعداؤنا من أن الجدية ليست ، ولن تكون ،
من طبعنا !

لَكُمْ يحزُّ في نفسى - كلما دخلتُ موقعاً من مواقع العمل : مكتباً ، أو
مصلحة ، أو بنكاً ، أو مجلساً ، أو هيئة - أن أجد العاملين فيه يجتمعون حلقات ،
لا همَّ لهم غير المزاح ، وتبادل النكات ، و « التريقة » ، والسخرية : من كل
الأشياء ، والأشخاص . . حتى من أنفسهم !

إننى أدعو علماء الاجتماع إلى أن يبحثوا ، و « يفتونا » في أمر هذه الظاهرة
الغريبة التى تَفَشَّتْ في مجتمعنا : ظاهرة الميل - المغالى فيه - إلى الهزل ، والمزاح ،
والسطحية ، وعدم الجدية ، وإضاعة الوقت في التفاهات . . !

حتى في تمثيلاتنا الإذاعية والتلفزيونية ، ومسرحياتنا ، وأفلامنا ، نلاحظ
هذه الظاهرة : الإغراق في الضحك « الأبله » ، والاستمرار فيه ، بلا داع ولا
مناسبة !

. . قد يقول قائل إن الضحك إما أن يكون تعبيراً عن سعادة بالغة ، أو
تنفيساً عن شقاء مقيم . .

لكنى غير مقتنع بهذا التفسير ، فقد زرت نحواً من ٣٥ دولة ، اختلطت
بشعوبها وأفرادها ، وبعضهم أسعد منّا حالاً ، بمراحل . . وبعضهم أتعس منّا ،
وأكثر شقاء ومعاناة . . لكنى لم أصادف ، فى أى منها ، عَشْرَ مِئْثَارِ هذا الميل
« المرصّى » إلى الهزل ، الذى نلمسه فى مجتمعنا ، حيث لا يلتقى اثنان إلا ويبدأ
حديثهما بتبادل النكات ، أو الإغراق فى الضحك والمزاح و « التريقة » !

فهل من أمل في « قليل » من الجدّة ، ولو اضطررنا إلى أن نفرضها على أنفسنا فرضاً في البداية ، و « نتكلّفها » تكلفاً . . حتى نألفها وتصبح طبعاً فينا . . يوماً ما ؟ !

وليست الجدّة التي أدعو إليها هي الاكتئاب ، والتجهم ، والقنّامة . . بل بالعكس ، فهذه كلها ظواهر « مَرَضِيَّة » أَشْرُ وَأَنْكَى من الإغراق في الهزل . . وإنما الذي أتمنى أن نتعلمه من الشعوب المتحضّرة هو الابتسامة الهادئة - حتى في مواجهة الشدائد ! - والعمل الدائب في تفاؤل ، ومرح متّزن ، يفلّ الحديد ويحقّق المعجزات !

وأكتفي من الخواطر التي أثارها في رأسي فكرة هذا المقال ، ببضعة أمثلة ، أسردها جزافاً . . بغير ترتيب ولا تنميق :

ابدأ بنفسك !

* كلنا ننتقد حركات « الالتفاف » والعودة من جديد إلى طواير الجمعيات الاستهلاكية ، لشراء المزيد من السلعة نفسها ، مرة بعد مرة ، بعد مرة !
ننتقد . . ثم نفعل الشيء نفسه !

فلماذا لا يبدأ كل مواطن بنفسه ، ويقاطع - أو في القليل « يقاوم » ! - شهوة « تخزين » السلع التموينية ، وحرمان غيره منها ؟

* لماذا لا نلغي من قواميس معاملتنا مع التعساء من البشر الذين وضعتهم الأقدار تحت رحمة « توقيع » أو « قرار » بسيط منا ، هذه العبارة التقليدية التي يتندر بها العالم عنا : عبارة « فوت بكرة » ، ثم « بكرة » ، ثم « بكرة » ! . . بلا داعٍ ، غير إذلال العباد ؟ !

* كانت إسبانيا منذ سنوات في عداد الدول « الفقيرة » نسبياً ، فقفرت في أقل من عشر سنوات إلى مرتبة الدولة صاحبة أكبر دخل من السياحة في العالم ، أو الدولة رقم (١) في هذا المضمار !

ونحن نتفوق على إسبانيا في « المعالم السياحية » ، واعتدال الجو . . ولكن ينقصنا العَصَبان الرئيسيان في فن اجتذاب السائح :

١ - فعلى مستوى الدولة ينقصنا تعديل قوانين الجمارك والعملية ، ومواعيد السهر ، كما تنقصنا وسائل الانتقال والمواصلات المريحة ، ثم العدد الكافي والنوع المناسب من الفنادق ، والمطاعم ، والمقاهي ، والملاهي - ولو البريئة ! - التي تتيح للسائح أن يقضى وقتاً طيباً بقية نهاره وليله ، بعد عودته من زيارة المناطق الأثرية التي لا تثير أكثر من « ربع » اهتمام سائح اليوم ! . . أو بمعنى آخر لا « تغريه » بزيارة بلدنا إلا بنسبة ٢٥٪ فقط !

٢ - وعلى مستوى الفرد - أى موظف المطار ، والجمرك ، والفندق ، والبنك ، وشركة الطيران ، والملهي . . إلخ - تنقصنا ابتسامة الترحيب ، و « المرونة » أو « التيسير » على السائح ، كى نوفر له كل دقيقة من وقته فلا نبدها ، وكل ذرة من أعصابه فلا ن تلفها بالتباطؤ و « التعقيدات » ، التي لعل عُشرها من فعل الدولة ، وتسعة أعشارها من فعل الفرد !

كيف نفرض اسم مصر على صحافة العالم !

* على ضوء ما قرأته في صحف إنجلترا وألمانيا وفرنسا خلال معارك أكتوبر المجيدة ، وقبلها ، وبعدها . . وما لمستته من أساليب تغطية الإذاعات وشبكات التلفزيون في تلك البلاد وغيرها ، لأخبار بلدنا . . في الحرب أو السلم . . وما سمعته من المتخصصين في كل هذه المجالات . . تجمعت لدى الانطباعات التالية :

١ - إذا أردنا أن تبرز صحافة العالم ووسائل إعلامه أخبارنا في صفحاتها الأولى - بدلا من أن تهملها ، أو تكتفى منها بسطور ، في ركن منزو ، من صفحة

غير مقروءة - فعلينا (وهذه مسئولية وكالة أنبائنا في المقام الأول : « ا . ش . ا ») .
 أن نراعى روح العصر السائدة اليوم ، في هذه المجالات ، وهي صياغة الأنباء بلغة
 « الخبر » لا لغة « المقال » . . مع مراعاة الصدق الكامل - مائة في المائة - بذكر
 ما لنا وما علينا ، وعدم إخفاء الحقائق ، ولو كانت في غير صالحنا ! (لأننا مهما
 أخفيناها ، فسوف تنقلها وكالات الأنباء الأخرى العالمية ، ولن « ينوبنا » بالتالي
 غير فقدان الثقة في أنبائنا ووكالاتنا !) . . فالخبر الصادق الموجز « الجديد » ،
 الخالي من الحشو والمغالاة و « الإنشاء » ، سيجد طريقه حتماً إلى الإبراز في
 مانشيتات الصحف ووسائل الإعلام العالمية كافة ، ولو برغم أنفهم ! . . ولو بحكم
 مصلحتهم في السبق الصحفي أو الإذاعي !

٢ - ولكي نفرض أخبارنا على صدر صحف العالم ، علينا أن نُغيّر نظرنا إلى
 مفهوم « الخبر » في عصر الفضاء ، فلا نحصر اهتمامنا في الأخبار السياسية وحدها ،
 قُرب خبر علمي جديد عن بحث في أحد معامل المركز القومي للبحوث - مثلاً -
 أو خبر اجتماعي طريف عن ذكاء طفل صغير في قرية ، أو رسم مبتكر لتلميذ في
 مدرسة ، تنشره الصحف العالمية في أبرز مكان من صفحاتها . . في الوقت الذي
 تهمل فيه تحقيقاً سياسياً طويلاً تبرز به وكالة أنبائنا ، أو خبراً سياسياً معاداً ،
 لا ينطوي على جديد !

٣ - وفي صحافة العالم اليوم ، تحتلُّ الصورة ، أو الرسم الكاريكاتوري
 الذكي ، مكاناً ومكانة هامّين . . فليتنا نبعث مصوريّنا - الممتازين بالفعل ! - في
 جميع المجالات ، والمناسبات - غير السياسية ! - كلّ يوم . . ثم نفرز إنتاجهم ،
 ونصنّدر الصالح والطريف منه إلى وكالات الصور المتخصصة كافة ، في عواصم
 العالم - ولو بالمجان ! - فإن كلّ صورة تنشر في صحيفة أجنبية ، عن أي موضوع ،
 ويرد فيها ذكر بلدنا ، في سطر واحد تحتها ، تذكر العالم بنا ، وبقضايانا
 السياسية ، أكثر من مائة مقال سياسي بحث !

ولنذكر دائماً أن الدعاية الناجحة لأيّ بلد ، تتحقّق بقدر عدد المرات التي
 يردُّ فيها ذكر هذا البلد بين سطور أي خبر ، أو تحت أية صورة أو « لقطة »

اجتماعية أو فنية . . وكلما نجحنا في فرض اسم بلدنا على الصحف أو الإذاعات في أى مجال ، (ولو كان مجال عرض فيلم مصرى في عاصمة من العواصم الأجنبية !) ازداد وعيُ العالم - شعوبه ، ورأيه العام ، قبل حكوماته - بنا ، وبمستقبلنا ، وحاضرنا ، وبالتبعية بقضايانا السياسية ! . . ولنخفف من التركيز على ماضينا الحضارى ، في مجالات الدعاية السياحية ، فلعلّ تذكير السائح بشمسنا الساطعة ، ودفء جوّنا ، وعيون « حلوان » المعدنية والكبريتية ذات المفعول الناجع في علاج الروماتزم ، أجدى علينا في جلب الآلاف من السائحين ، من « التغنى » بأعجاز أجدادنا الفراعنة ، ومن التوقع في هذه الدائرة « المستهلكة » دون سواها !
 إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى !

نسوا وجود بلدنا على الخريطة !

* ولايضاح وجهة نظرى هذه ، أذكر مثالا حيا من الواقع ، لاحظته على مدى العشرين عاماً الماضية ، وفي جميع رحلاتى وأسفارى - ولعلّ الآلاف غيرى قد لاحظوه بدورهم ، بل لست أشك في أنّ الكثيرين من الطلبة والطالبات الذين سافروا إلى الخارج ، منذ فتحت لهم الأبواب في الأعوام الثلاثة الأخيرة ، قد مرّت بهم تجربته « المرّة » ! - فأينما حللت - كنت أصادف من يسألنى : من أى بلد أنت ؟ . . فكان يحلو لى أن أختبر ذكاء صاحب السؤال ، فألقى عليه عبء الاستنتاج . . ولدهشتى - وألمى ! - كان السائل يستعرض أسماء عشرة أو عشرين بلداً آخر ، في جميع قارات الأرض ، ليس بينها اسم مصر ! . . كان يستنتج مثلاً وعلى التوالى : الهند ، إسبانيا ، إيران ، إيطاليا ، اليونان ، البرازيل ، العراق . . إلخ . . وحين يعلن عجزه في النهاية - ويلقى سلاحه - فأقول له : « مصر » . . يستدرك وكأنه سمع ذكر (المربخ) : « آه ، حقاً ؟ » .

إلى هذا الحدّ كان يندر أن يخطر اسم مصر على بال الناس في الخارج ، أو يحول بفكرهم ، أو يتردّد على ألسنتهم ! - وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت تتغيّر خلال معارك أكتوبر ، حين صار اسم مصر وسوريا على كل لسان . . كما لا بد

أن يساهم في تغييرها - مع مرور الزمن - تزايد عدد المسافرين إلى الخارج من المصريين ، (من الطلبة وغيرهم) ، في الأعوام الأخيرة . . . ويكفى هذا كسباً لنا من حركة سفر الطلبة ، أو سفر المهاجرين إلى أمريكا ، وكندا ، وأستراليا . . . وهو كسب يذكر الفرد العادي في تلك البلاد بأن هناك بلداً له مكانه على خريطة العالم ، اسمه مصر . . . وبالمرارة هذا الشعور الذي يحسُّه كل مسافر مصري يصطدم بهذا التساؤل عن جنسيته ، وهذا النسيان لوجودنا !

أعود من هذا الاستدراك إلى القول بأن من واجب كل مواطن ، في موقعه ، أن يسهم في فرض اسم بلده على صحافة العالم عن طريق التكرار اللحوق ، بالخبر الصادق ، أو الصورة الذكية . . . وليكن رائد صانع الخبر - وليس ناقله - أن يحاول جهده جعل الخبر الذي يذكر لمناسبته اسم مصر ، خبراً مشرفاً . . . وليس خبراً مزرئياً !

أفكار سياحية من (الدنمرك)

• وعلى ذكر السياحة ووسائل تنشيطها ، كى تصبح من مصادر الدخل القومى الرئيسية للبلاد ، يحضرني مثل - من أمثلة جمّة ، يضيق عنها هذا المجال - أهدي فكرته إلى المهندس إبراهيم نجيب ، وزير السياحة ، ومعاونيه من المسؤولين في هذه الوزارة الشابة التي ينبغي أن توفر لها الإمكانيات الكاملة للانطلاق والانفتاح . . . وهو مثل يعطى فكرة عن مدى اهتمام الدول المتقدمة بالترحيب بزائريها من السائحين ، وتحقيق التعارف بينهم وبين أفراد شعبها ، بغية ترك أحسن انطباع في نفس السائح عن البلد والشعب ، ليصبح ذلك - تلقائياً ، ودون قصد - أداة للدعاية للبلد الذي زاره ، ولجلب المزيد من الزائرين إليه في المستقبل ، من بين أصدقائه ومخالطيه :

فقد كنت في زيارة للدنمرك عام ١٩٥٨ ، وفي أثناء التأشير على جواز سفرى لدى وصولي إلى مطار « كوبنهاجن » ، قُدمت إليّ استمارة مطبوعة كى أملأ خاناتها - إذا أردت - في ثوان ، بذكر اسمي ، وعنواني المقرر أو المرجح في المدينة ، ثم مهنتي أو تخصصي ، العمل أو الدراسي . . . وكان عنوان هذه الاستمارة

بالإنجليزية هكذا (MEET THE DANES) أى (تعرف إلى شعب الدنمرك) . . .
 وسألت الموظف عن الغرض من ملء هذه الاستمارة ، فشرح لى الفكرة المقصودة
 منها : قال إن الدولة فكّرت فى أن تدعو المواطنين الذين يرغبون فى التعرف إلى
 ضيوف بلدهم من سياح الدول الأخرى ، إلى تسجيل أسمائهم وتخصصاتهم فى
 سجلّ أعدّ لهذا الغرض . . . وقد أقبل الآلاف من سكان العاصمة الدنمركية على
 تسجيل أسمائهم فى هذا السجل . . . وفى كل يوم ، يفرز المكتب الخاص بهذه
 العملية فى المطار حصيلة اليوم من الاستمارات الجديدة التى يملؤها
 السياح القادمون لتوهم ، ثم يرسلها إلى أبناء المهنة التى ينتمى إليها كل سائح . . . فإذا
 كان السائح طبيباً - مثلاً - ترسل الاستمارة التى بها اسمه وعنوانه ، والمدة التى ينوى
 الإقامة خلالها فى الدنمرك ، إلى من عليه الدور من الأطباء الدنمركيين الذين
 استجابوا لنداء الدولة وسجلّوا أسمائهم فى برنامج التعرف إلى السائحين . . . فلا يلبث
 الطبيب المضيف أن يرسل - بمجرد تسلم الاستمارة - دعوة إلى الطبيب السائح ،
 القادم من أى بلد آخر ، كى يتناول الشاى فى ضيافته وزوجته ، للتعارف ،
 والترحيب به ، ومعاونته على الاستفادة من الوقت الذى سيقضيه فى بلدهما ، كى
 يحقق أفضل نتائج من رحلته . . .

وبالفعل . . . لم يمض يومان على وصولى إلى كوبنهاجن ، وملء الاستمارة التى
 قدمت لى فى المطار ، حتى تلقيت فى الفندق بطاقة أنيقة مكتوبة بالآلة الكاتبة ،
 يدعونى فيها الأديب « فلان » ، وزوجته « إلى تناول الشاى معهما فى بيتهما الكائن
 بشارع كذا فى الساعة كذا من يوم كذا !

وتوجّهت فى الموعد المحدّد ، فاستقبلنى المضيفان فى مسكنهما الصغير الأنيق ،
 وقضيت فى ضيافتهما نحو ثلاث ساعات ، تحدّثنا خلالها عن بلدى وبلدهما ،
 وأذهلتنى معلوماتهما عن مصر القديمة ، (وأذكر أنهما أفاضوا فى الحديث
 عن مكانة القطط عند المصريين القدماء ، وأطلعانى على كتاب فاخر بالدنمركية ،
 محلّى بالصور ، عن هذا الموضوع غير المطروق ! . . . ولا أنكر أننى أحسست بشيء
 من الخجل ، لأن معلوماتهما عنه كانت تفوق معلوماتى !) . . . ثم سألتنى عن مصر

الحديثة ، وشعبها ، وأحوالها . . وحديثاً عن الدنمرك وأهلها ، وشاهدت معهما فقرات من برامج التلفزيون الدنمركي ، وهما يشرحانها لي ، ويعلقان عليها . . إلخ .
 وخرجت من مسكن مضيئ في نهاية الزيارة وأنا أتمنى لبلدي أن ينفذ برنامجاً مماثلاً ، يتيح فيه لزائريه من السائحين فرصة « التعرف إلى المصريين » . للدعاية لمصر ، وتنشيط حركة السياحة إليها . .

لفتات رقيقة من وحي « الوعي السياحي » !

« ومثل آخر من أمثلة براعة الدول في الدعاية لنفسها ولصناعاتها ، وتقدم « الوعي السياحي » لدى أفرادها ، دون تدخل من الدولة :

نصحتني صديق ذات يوم بزيارة مصانع « كارلسبرج » ، التي تعدّ أكبر مصانع للبيرة في أوروبا ، لأرى نموذجاً رائعاً للنظافة والتعقيم في صناعة هذا المشروب الشعبي ، الذي تستهلكه شعوب أوروبا كما نستهلك نحن الماء الزلال . وليس هذا مجال وصف الضمانات الهائلة التي توفر فيه لحماية صحة المستهلكين ، ولا مجال وصف ضخامة تلك المصانع ، التي أقيمت في داخلها محطة سكة حديدية خاصة بها ، تخرج منها القطارات المملوكة لها محمّلة بأطنان من إنتاجها ، لتنتقل منها مباشرة إلى عواصم أوروبا كافة ، على الخطوط الحديدية الممتدة بينها ! . . وإنما الذي يهمني من الموضوع كله في مجال « الوعي السياحي » هو هذه « اللفتة » ، البالغة الدلالة : عند دخولي المصنع في بداية الزيارة - وعلى غير موعد سابق - سألتني مدير العلاقات العامة الذي يستقبل زائري المصنع كل يوم ، عن جنسيتي ، كأنما عفواً . . ثم صحبني متنقلاً بي بين أرجاء المصنع الذي يشبه « مدينة » مترامية الأطراف . . حتى أكملنا جولتنا بعد نحو ساعتين ، فدعاني إلى المطعم المخصّص لموظفيه ، كي يقدم لي قدحاً من إنتاجه . . وإذا بي أفاجأ برؤية « علم مصرى » صغير يرفرف داخل إناء ، على المنضدة التي جلسنا إليها !

كل هذا والرجل يعلم أنني مجرد سائح يزور بلده ، ولست تاجراً ولا مستورداً لإنتاج مصنعه بحال من الأحوال ! . . ولكن ، هكذا يفهم كل فرد في الدول

التي نضج فيها الوعي السياحي ، كيف يمارس الدعاية لوطنه في كل مناسبة ومجال . . بلمسات رقيقة تجذب القلوب ، وتجلب السياح !

واجب الصحافة في مجال تطوير المجتمع

« وأنتقل من حديث السياحة إلى حديث الصحافة ، صحافتنا ، وواجباتها نحو الشعب في المرحلة القادمة (في غير المجال السياسي الذي يلتقى من المسؤولين عن الإعلام ما يستحقه من عناية وتوجيه) . .

وأول هذه الواجبات في نظري أن تتجه الصحافة اتجاهًا إيجابيًا « ثوريًا » ، نحو تطوير المجتمع ، وتنوير المواطنين وثقافتهم . .

تطوير المجتمع وتنوير المواطنين ، بمحاربة البدع والتقاليد البالية المترسبة في أعماقنا من عصور التخلف ، والتي لا مثيل لها في أي بلد متحضر . . ويكفي مثالا عليها بدعة « صفحة الوفيات » في جرائدنا اليومية - والتي استشرت « واستفحلت » إلى صفحتين وثلاث في بعض الأيام ! - ولعلها استغلال تجاري ذكي من مديري الصحف ، لغريزة اجتراح الأحزان التي ورثناها عن أجدادنا المصريين القدماء ! . وإلا فهل يدلني أحد على مثل لها في صحافة أي بلد آخر من بلاد العالم المتقدمة ؟

في كل بلاد الأرض تكتفي أسرة الفقيد بإبلاغ الأقرباء والخاصة بطريق التلفون ، كي يشتركوا إذا استطاعوا في تشييع الجنازة . . أما من هم أبعد من الأقرباء صلةً بالمتوفى ، كأصدقاء الأسرة ومن إليهم ، فتكتفي بإبلاغهم النبأ بعد التشييع ، لمجرد العلم ، ببطاقة مطبوعة ترسلها إليهم بالبريد . .

أما نحن - بتحرير من صحافتنا - فنجعل من المناسبة الحزينة ، الوقورة بطبيعتها ، فرصة للقيام بـ « مظاهرة » نتفاخر فيها بالحسب والنسب ، ونملأ ربع صفحات الجريدة اليومية بأسماء ومناصب كل من يمتُّ إلى الفقيد بصلة ، من قريب أو بعيد . . ونتبارى في إطالة النعي و« مطَّ » سطوره حتى يشغل أكبر مساحة ممكنة من الجريدة ، تدليلاً على مكانتنا الاجتماعية ومكانة فقيدنا . . ثم نعيد الكرة

بعد أيام لتوجيه الشكر إلى المعزين ، فنستعرض أسماء كل من يعنّ لنا أن نتباهى بتغزياتهم . . ثم تتكرر القصة في ذكرى الأربعين - وهي تقليد مصرى قديم أيضاً ، آن لنا أن نتخلص من طقوسه الجنائزية ! - ثم يتنافس أفراد الأسرة في إظهار بلاغتهم الإنشائية بمناجاتهم الفقيد في الذكرى السنوية الأولى ، فالثانية ، فالثالثة . . وهلمّ جراً . .

دلّوني على بلد يحدث فيه هذا ، غير مصر ! . . وصحافة تفسح صفحاتها لهذه التقاليد البالية غير صحافة مصر ! . . وإلا فأولى بنا وبصحافتنا أن نحارب هذه البدعة ، أو في القليل نقاوم إغراء « حب الزهو » الذى يملئها ، إن لم يكن بحجة قلم ، فبالتدريج . .

ولست أجهل أن هذا الباب ، بل هذه الصفحات ، باتت من أكبر مصادر الدخل وموارد المال لجرائدنا ، ولكن . . لو كنت مكان الدكتور وزيرة الشؤون الاجتماعية ، لعوضت الصحف عن هذا المورد الغزير ، من أى بند من بنود الميزانية المخصصة للإصلاح . . وترشيد المجتمع !

.. والتثقيف بعد التنوير

• وبعد هذه الكلمة عن واجب الصحافة نحو تطوير المجتمع وتنوير المواطنين ، يحىء دور الصحف في التثقيف العام . . ومظهره الأول الذى ينقص صحافتنا - مع الأسف الشديد - هو تخصيص ولو « نصف عمود » كل يوم ، وصفحة أو صفحتين من العدد « الأسبوعى » لكل جريدة ، لنشر تقييم موضوعى « نزيه » للكتب الجديدة التى تصدر في بلدنا وبلاد العالم الأخرى . . وتقييم مماثل - غير خاضع لدوافع الدعاية والإعلان - للأفلام السينمائية الجديدة ، وأهم برامج التلفزيون والإذاعة ، مثلما تفعل صحف كل بلاد العالم المتقدمة . . بحيث يكون هذا الباب دليلاً صادقاً للمواطن ، يرشده إلى ما يستحق أن يقرأه ويشاهده ويسمعه ، لتثقيف عقله وعقول أهل بيته . .

الحل الأمثل . . لأزمة النشر !

* ومن مجال الصحف إلى مجال « الكتب » ، يغدو الحديث ذا شجون ، مثيرة للأشجان حقاً ! . . وحسبى هنا أن أقتبس من إحدى الدول التي زرتها في العام الماضي - وهي « المجر » - فكرة كفيلة بإيجاد حل لأزمة النشر التي وصلت إلى مرحلة الاختناق في « عنق الزجاجة » ، بسبب عوامل عديدة متشعبة ، ليس هذا مجال شرحها ، وإن كان قاسمها المشترك الأعظم في الواقع ليس هو أزمة الورق - فهذه لا يزيد عمرها على عام وبضعة أشهر - وليس هو نقص إمكانيات ناشري القطاع الخاص . . ولا هو بيروقراطية و « لجان » ناشري القطاع العام . . وإنما القاسم المشترك الأعظم في أزمة النشر عندنا يكمن في اختلال « اقتصاديات الكتاب » ، أى العجز عن الموازنة : بين تكلفة إصداره ، وبالتالي ارتفاع سعر بيعه ، في كفة . . وبين نقص « القدرة الشرائية » على اقتنائه ، وضعف « رغبة » الفرد في شرائه ، في الكفة الأخرى !

. . . وهي لعمري « معادلة صعبة » ، ليس لها غير حلين عمليين :

١ - فبالنسبة لنقص القدرة الشرائية عند القارئ العادى نتيجة لارتفاع الأسعار (أسعار الضروريات المعيشية ، وأسعار الكتب ، معاً) ، فالحل الأمثل هو أن نطبق الفكرة التي اتبعتها « المجر » ، حيث تشتري الجهة المشرفة على المكتبات العامة - أى دور الكتب - من كل كتاب جديد يصدر فيها أربعة آلاف نسخة لهذه المكتبات التي تنتشر في طول البلاد وعرضها ، والتي توجد مكتبة واحدة منها على الأقل في كل قرية ، وتوجد عشرات منها في مختلف الأحياء بكل بلدة أو مدينة . ولو طبقنا هذا النظام عندنا لاستعصنا عن هذه المكتبات العامة - إلى أن توجد بهذا العدد الضخم - وحدات الاتحاد الاشتراكي ، والثقافة الجماهيرية ، والمدارس الثانوية . .

وحين سألت رئيس اتحاد الناشرين في بودابست : « إذا أتيح للقارئ أن يقرأ الكتاب بالمجان في المكتبات العامة على هذا النحو ، أفلا يؤدي ذلك في

ذاته إلى الإقلال من فرص بيعه بعد ذلك في الأسواق ؟ .. كان جوابه الفوري :
« بالعكس ، فلقد أثبتت التجربة أن الكتاب الذى تتاح الفرصة لقراءته مجاناً في
المكتبات العامة ، يزداد الإقبال على شرائه بعد ذلك ، كى يهديه مَنْ أعجبه إلى
أصدقائه في أعياد ميلادهم ، أو يقتنيه في مكتبته الخاصة ، حرصاً على الاحتفاظ به
في متناوله أو متناول أهل بيته على الدوام ! »

وإذا علمت أن بيع هذا العدد من النسخ للمكتبات العامة يغطى نفقات طبع
أى كتاب ويزيد ، بحيث يضمن الناشر سلفاً أنه لن يخرج خاسراً من أية عملية
نشر ، وبحيث تكون حصيلة بيع أية نسخة للجمهور بعد هذا محققة لربح
مؤكد ، أدركت السبب في انتعاش حركة النشر في تلك الدولة الصغيرة نسبياً ،
التي يقلّ تعداد سكانها عن « ثلث » تعداد سكان بلد كمصر - إذ لا يصل إلى
أحد عشر مليوناً - ومع ذلك فهي تنشر في العام الواحد (حسب إحصاء عام ١٩٧٢)
نحو ستة آلاف وستمائة كتاب ، طبع منها في العام المذكور نحو ٧٢ مليون نسخة . .
أى أضعاف أضعاف ما يصدر ويطبع في مصر !

وفضلاً عن تلك الآلاف الأربعة من النسخ التي تشتريها المكتبات العامة من
كل كتاب يصدر هناك ، فإن أجهزة الإعلام كلها - كالتلفزيون والإذاعة -
تذيع ضمن برامجها اليومية فقرات للدعاية للكتب الجديدة عن طريق تقييمها
والتعريف بها ، كما تسمح بالإعلان الصريح عنها مقابل أجور رمزية تافهة .
ولو أمكن أن تأخذ مصر بمثل هذا الحل ، لرحّبت دور النشر عندنا بأن تنشر
فوراً أى كتاب يقدم إليها من أى مؤلف . . ولاتتهت بذلك « أزمة » النشر !

كتب تستحق أن تلغى من المدارس فوراً !

٢ - أما بالنسبة لتنشيط « شهية » القراءة عند الفرد ، كما تصبح رغبة ملحة
في اقتناء الكتب ومطالعتها ، فذلك يقتضى غرس هذه الهواية في نفوس النشء
منذ الطفولة والصبا الباكر . . وعبء هذه المسئولية يقع على عاتق ثلاث جهات ،
لأربع لها : البيت ، والمدرسة ، ووزارة التربية والتعليم . .

* ففي البيت ينبغي أن يتعاون الوالدان على ترغيب طفلهما في الاطلاع والقراءة منذ نعومة أظفاره ، ويربياً فيه عادة اقتناء الكتب والمحافظة عليها ، ويخصّصا له ولو رقفاً صغيراً يكون نواة لمكتبة خاصة به ، تكبر وتنمو معه وهو يكبر وينمو !

* وفي المدرسة ينبغي أن تكون من أولى مهام المعلم - من الروضة إلى الجامعة - أن يغرس هواية القراءة في تلاميذه ، ويشجّعهم عليها ، ويكافئهم على ما يقرءونه خارج المقرر بوضع درجات إضافية ينحّص بها من يستجيب لهذا التوجيه . . كما يستطيع واضعو برامج التعليم أن ينحّصوا نصيباً من الدرجات في « المجموع » للقراءة الحرّة ، بإشراف مدرسي اللغة العربية مثلاً .

* أما مسئولية وزارة التربية والتعليم فهي أن تلغي - بحجة قلم ! - جميع كتب المطالعة والأدب والنصوص الحالية التي تدرّس لأبنائنا في جميع مراحل التعليم الابتدائي ، والإعدادي ، والثانوي ، بعد أن تكلف لجناً من مستويات مختلفة تماماً عن اللجان التي اختارت تلك الكتب ، باختيار بدائل لها يضعها مؤلفون ذوو أساليب عصرية جذابة ، تجمع بين المادة الرصينة والقالب المشوّق الذي يستأثر بلب التلميذ ويحبّه في لغته العربية بدلاً من أن ينفرّ منها ، كما يحدث حالياً ! . . مؤلفون يعرفون كيف يختارون للمطالعة مقتطفات من أجمل ما كتب كتاب العربية ، في جميع العصور ، في مكان المقتطفات التي تدرس حالياً ، والتي تعدّ من أقبح وأسمج ما كتب كتاب العربية وشعراؤها !

. وقد أتبع لي أن ألمس الفوارق الشاسعة بين صياغة الكتب الحالية المقررة في مدارسنا ، وبين صياغة ومختارات كتب المطالعة التي تدرس في مدارس كل من فرنسا وإنجلترا ، حين كلفني المجلس الأعلى للآداب والفنون منذ أشهر بدراسة هذا الموضوع . . فأذهلني جاذبية مواد كتبهم المخصّصة للمطالعة في المدارس ، بالقياس إلى سماجة كتبنا . . وأدركت سرّ الانحدار المخيف الذي أصاب لغة شبابنا في السنوات الأخيرة ، وركاكة أساليبهم في الكتابة والتعبير . . ولم أدهش لضعف الوعي القرائي عند أجيالنا الجديدة ، وانصراف أبنائنا وبناتنا في هذه الأيام عن المطالعة ، وعن اقتناء الكتب بشغف ونهم كما كانت الحال في الماضي . .

النزعة المحلية تكتسح مجالى المسرح والسينما

« وإذا انتقلنا من عالم الصحافة والكتب إلى عالم السينما والمسرح ، فماذا نجد ؟ وماذا ينبغي أن يتحقق فى هذين الميدانين من « انفتاح » على العالم ؟ نجد أن الاتجاه إلى « المحلية » ما يزال سائداً ، سواء فى مجال المسرح أو السينما :

ففى مجال المسرح توقّف - أو كاد - تقديم المسرحيات العالمية المترجمة أو المقتبسة عن أساطين مؤلفى المسرح ، سواء المعاصرون أو المنتمون إلى أجيال سابقة . . فنذ عرضت مسرحيات « الخال فانيا » و « المفتش العام » و « زهرة الصبار » ، وإحدى مسرحيات « لوركا » . . لا أذكر أننا شاهدنا فى السنوات الأخيرة مسرحيات أجنبية من التراث المسرحى العالمى !

وفى السينما ، زحفت الأفلام المصرية فاحتلت أكثر دور العرض الكبرى ، ولعشرات الأسابيع - بل الأشهر المتوالية ! - وتقلّصت الأفلام الأجنبية ذات المستوى الرفيع ، فلم نعد نشهد منها طوال العام أكثر من بضعة أفلام قليلة ، ربما يقل عددها عن العشرات من الأفلام « الهمجية » المسماة أفلام « الكاراتيه » !

وإذا كانت حماية صناعة السينما المصرية واجباً على الدولة ، فى الحدود التى يتطلبها النهوض بهذا الفن ، وتأمين المشتغلين به على أرزاقهم . . فإن على الدولة واجباً آخر نحو مئات الآلاف من المواطنين المثقفين ، المتعطشين إلى متابعة ركب الحضارة وموكب الفن السينمائى العالمى ، فى مختلف مدارس واتجاهاته . . ولست أغالى فأطالب بأن نجارى فى مجال المسرح عُشر ما يعرض على خشبة مسارح لندن وباريس من مسرحيات رائعة ، عصرية وكلاسيكية على السواء . . ولا أطلب بأن نجارى فى مجال السينما سبل الأفلام الجبارة التى تغمر دور السينما فى مدن أوروبا وأمريكا . . وإنما حسبي أن أردّد مطالبة مثقفينا للسلطات بشىء من الانفتاح على « عالم » السينما الأجنبية . . فليس كل المثقفين تتاح لهم فرصة السفر إلى الخارج كل عام كى يمتّعوا أبصارهم - بل أذهانهم - بالجرعة الثقافية الدسمة التى يحتويها

كل فيلم من مئات الأفلام الأجنبية ذات المستوى الرفيع التي تعرض في جميع مدن أوروبا وأمريكا ، بل التي يعرض أكثرها في جارتنا العربية الشقيقة لبنان . . . ولكم يحز في النفس - ومن واقع تجربتي الخاصة في صباى الباكر - أن القاهرة التي كانت تشهد في عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ في دار سينما الكورسال بشارع عماد الدين (في مكان مسرح محمد فريد حالياً) ، موسماً كاملاً - يمتد طوال العام - من الأفلام الفرنسية الممتازة التي كان يتألق فيها نجوم السينما الفرنسية في تلك الحقبة من أمثال « هارى بور » ، و « جابى مورلاى » و « ميشيل مورجان » ، والمؤلف الممثل العبقرى « ساشا جيتري » . . لا تشهد الآن من عشرات الأفلام الجديدة التي تعرض في فرنسا كل « أسبوع » ، سوى فيلم واحد في « العام » ، للممثل الكوميدي « لويس دى فونيس » !

وأملى كبير في أن يستجيب الوزير الأديب « يوسف السباعي » لهذا المطلب ، فيستطيع التوفيق بين حماية صناعة السينما في مصر ، وبين حماية أذهان ونفوس الأجيال الجديدة - على الأقل - من أن يعلوها صدى الحرمان من الثقافات العالمية الرفيعة ، في هذا المجال . . .
والله ولي التوفيق .

حمدى عباس

سيكولوجية المقاتل فى حرب أكتوبر





لم تكن حرب أكتوبر من الناحية النفسية حرباً تقليدية لتحرير أرض مغتصبة فحسب ، بل كانت عملاً مجيداً أكد به المقاتل العربى قدرته الحقيقية على التخطيط والتفكير المنطقى السليم ، بعد أن أشاعت كل وسائل الدعاية المضادة أن المقاتل العربى لا يستطيع - فى أى مرحلة من مراحل الصراع العربى الإسرائيلى - أن يخطط تخطيطاً علمياً ناجحاً لحرب ناجحة ، يخوضها تنفيذاً لهذا التخطيط المبني على الحسابات الدقيقة ، ليحقق فى النهاية نصراً عسكرياً مشرفاً . ومن هذا المنطلق لم تكن حرب أكتوبر حرب استعادة أرضٍ سليية فحسب ، وإنما كانت حرب استعادة ثقة .

لقد وجد المقاتل المصرى نفسه يعمل فى ظروف تختلف تماماً عن الظروف التى عمل فى ظلها قبل حرب ١٩٦٧ وفى أثنائها . تلك الظروف كانت قائمة على سياسة استعراض القوة المظهرية دون تثبيت لدعائم هذه القوة - ولقد حدث قبل حرب ٦٧ أن قام الجيش المصرى بمناورات حربية اعتبرتها القيادة على درجة كبيرة من الأهمية ، فسارعت جريدة أمريكية تمولها عناصر صهيونية ، وبالتفاق مع المخابرات الإسرائيلية بنشر موضوعٍ عن هذه المناورات ، وجاء فى صدر صفحتها

الأولى أن « مصر تملك أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط » . . وتناقلت وكالات الأنباء هذا الخبر على أساس أنه سبقُ صحفى . . حتى وصل إلى الصحف المصرية فأبرزته في صدر صفحاتها الأولى . . مُصدقةً ومُسلِّمة بكل ما جاء به . واستشرى هذا الشعور داخل الجيش . أى أن الإحساس بالقوة في تلك الفترة لم يكن قائماً على أسس واقعية وعلمية مدروسة ، بل كان قائماً على « الإيهام بالقوة » ، مهَّدت له وسائل الدعاية المضادة ، فصدَّقناه . . وبعد أن خدَّرت نفوسنا سَعَتْ إسرائيل إلى كل دول العالم تطلب العون والمساعدة والمال والسلاح ، بصفتها الدولة الضعيفة في المنطقة . وكنا نحن أول ضحايا « وهم القوة » .

واستُدْرِجنا بعد ذلك إلى حرب ٦٧ ، ثم حدثت الهزيمة العسكرية . لم يكن فقدان الأرض هو أفدح خسائر هذه الحرب ، بل كاد أن يكون الانهيار النفسى وفقدان الثقة أفدح الخسائر وأقساها . . لقد استطاعت إسرائيل احتلال الأرض . . وحاولت « احتلال » نفسية المقاتل . ولكن هزيمة ٦٧ العسكرية ألقت ضوءاً كاشفاً قوياً تبيَّن خلاله العيوب والأخطاء والمهازل التي وقعت ؛ ومن ثمَّ خرج الشعب ليُعلن على العالم رفضه الهزيمة وإصراره على مواصلة النضال الحقيقى لاستعادة الأرض . . واستعادة الثقة .

تغيَّرت القيادات . . وتغيَّر معها أسلوب العمل . . وبدأت القوات المسلحة عملية التخطيط السليم والحسابات الدقيقة وتطبيق الأسلوب العلمى في إدارة شئون الجيش المختلفة . . فأوفدت الضباط والجنود أيضاً في بعثات دراسية لدول متقدمة علمياً ، وصديقة . . وبدأت مرحلة من العمل الشاقَّ الرهيب الصامت ، رفَعَتْ فيها القوات المسلحة شعار « العرق في التدريب يوفر الدم في المعارك » . وكان لتجنيد المؤهلين علمياً أثر بالغ في تطوير أساليب العمل داخل القوات المسلحة . فقد تغير الأمر تغيراً كلياً بعد أن صار الجندى « الأمي » - الذى كان يتعامل بصعوبة بالغة مع بندقية بسيطة التركيب - مقاتلاً جامعياً أو متعلماً تعليماً متوسطاً ، يتعامل بفهم ووعى وذكاء مع آلات معقَّدة التركيب وصواريخ تعمل إلكترونياً . وهذا التغير قد أتاح الفرصة أمام القيادات للتوسع في عملية استيراد

الأسلحة الحديثة والمعقدة والأجهزة الإلكترونية ، وهى على يقين أن هناك عقولاً تستوعب تعقيد هذه الأسلحة ، وتستطيع أن تتعامل بها مع العدو فى براعة تسندها الشجاعة وتؤيدها الثقة . .

والأهم من ذلك أن العلاقة بين أفراد « الوحدة » العسكرية قد تغيرت أيضاً . . . فعلى سبيل المثال كان الجندى المتخرج فى الجامعة ، يعمل تحت قيادة « ضابط » متخرج فى الجامعة أيضاً . . وربما متخرج فى الكلية نفسها . . أو فى دفعة التخرج التى تخرج فيها هذا الجندى - واستوعب الضباط خريجو الكلية الحربية - المؤهلون علمياً وعسكرياً - هذه الروح الجديدة ، وصار ارتباط الجندى بوحدة ارتباط زمالة وصداقة وتفاهم متبادل ، فى إطار من الاحترام والانضباط الذى تفرضه التقاليد العسكرية .

ومن ناحية أخرى قام هؤلاء الجنود المؤهلون ، بعملية توعية وتثقيف وتعليم لزملائهم غير المؤهلين علمياً داخل الوحدة . وبذلك انتقلت القوات المسلحة إلى مرحلة جديدة من العلاقات . . علاقات التفهم العميق من المقاتلين للمعدات المعقدة التركيب . هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى . . علاقات إنسانية متبادلة بين المقاتل وقادته ، مما أدّى إلى بلورة الهدف وراء هذا العمل الشاقّ الرهيب الدؤوب الصامت .

وتوافرت لدى القيادة كل الظروف للعمل على استرداد أهم ما فقدته فى حرب ٦٧ ، وهى « الروح المعنوية » وذلك بما عرف باسم « حرب الاستنزاف » . لقد كانت هذه الحرب حرباً نفسية قبل أن تكون عمليات حربية تقليدية . . ومهما قيل عن الخسائر المادية التى تعرضت لها مدن القناة أو قواتنا فى العراق ، فإن هذه الحرب التى لم تتجاوز مجموعة عمليات عسكرية خاطفة قد أكدت حقيقة لا تقبل الجدل ، هى أن بوسع الجندى المصرى أن يستردّ مكانته بين جيوش العالم عن جدارة واستحقاق .

إن أسوأ اللحظات التى تمر بالجندى المقاتل هى لحظات البقاء فى خندقه . . بتدرب وينتظر ، ولا شئ غير هذا . . فهذه اللحظات تجعله نهياً لصراعات نفسية

عنيفة . . . وتصبح نفسية الجندي بذلك . . . أرض عمليات لحرب غريبة . . . هي الحرب النفسية . . . والنصر العسكري لا يحرزه إلا من ينتصر في هذه الحرب النفسية . . . وتعد هذه الحرب - التي خاضتها قواتنا المسلحة طيلة سنوات الاستعداد والترقب - من أشرس الحروب النفسية التي شهدتها تاريخ الحروب .

إن حجر الزاوية في بناء الحرب النفسية هو « العقيدة القتالية » ، فالعقيدة القتالية للجيش المحارب هي التي تبلور كل الحقائق أمامه وتوضح له الرؤية وتحدد له الأهداف التي من أجلها يدور القتال . . . وفي حرب ٦٧ لم تكن هناك عقيدة قتالية واضحة ومقنعة أمام المقاتل . . . بل كانت هناك عدة « مسوغات » لا « عقائد » ، فتارة يقولون له إنه ذاهب لتطهير القدس . . . وتارة أخرى للدفاع عن شرفه وعرضه . . . ثم رفعوا له شعار « حماية عملية بناء المجتمع ضد الأخطار الخارجية » . . . وتضاربت « المسوغات » والشعارات حتى أصبح الذهاب إلى الميدان عملاً غير مفهوم ، فالمقاتل لا يعرف شيئاً عن سلاحه . . . ولا عن طبيعة الأرض التي يقف عليها . . . ولا عن الأسباب التي أدت لذهابه هناك . لذلك كان لا بد من حدوث تغيير جوهري يؤدي إلى ظهور عقيدة قتالية . . . سهلة الإدراك ومقنعة . . . يتفاعل معها المقاتل ويقتنع بها .

العقيدة القتالية بين مصر وإسرائيل

لقد فرض الواقع التاريخي صياغة العقيدة القتالية للقوات المسلحة المصرية . فبعد أن فقدنا الأرض كان علينا أن نحدد الهدف وهو تحرير هذه الأرض . . . وهكذا تبلورت العقيدة القتالية ، وأصبح الهدف واضحاً ومقنعاً ، وصارت الرؤية واضحة أمام المقاتلين ، وأضحى كل فرد داخل القوات المسلحة يعرف أن العمل المكلف به هو « تحرير الأرض » . بعدها . . . زال الغموض . . . ولم يعد هناك مجال للبحث عن مسوغات للقتال . . . المسألة ببساطة . . . أن هناك أرضاً مغتصبة بالقوة . . . وأنه يجب « تحرير هذه الأرض » . . . بالقوة أيضاً .

وعلى الضفة الأخرى من قناة السويس كانت هناك قوات مغتصبة تحاول

صياغة عقيدتها القتالية منذ عام ١٩٤٨ . . والواقع أن من يعتقد في وجود عقيدة قتالية واضحة وثابتة للجيش الإسرائيلي ، مخطئٌ واهم . . لقد حاول حاخامات الجيش الإسرائيلي الربط بين ما جاء في كتبهم المقدسة وأطماعهم التوسعية وأحلامهم بتكوين إمبراطورية تمتد من النيل إلى الفرات . . ولكنهم أخفقوا في ذلك . . فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع ممزق . . يعاني من التناقضات . . والصراعات المختلفة ومن الأطماع والأحلام الشخصية . .

وبوسعنا أن نتخذ من بين أسرى الجيش الإسرائيلي اثنين فقط نموذجاً لهذا المجتمع المتناقض ، أحدهما محام يهودى أرجنتينى برتبة « رقيب » ترك وطنه الأصلي الأرجنتين سعياً وراء أحلام امتلاك قطعة أرض يدافع عنها ببندقية صيد ضد شرذمة من العرب المسلحين بالخنجر . . (هكذا قالوا له) . . أى أنه جاء سعياً وراء المغامرة والبطولة والتملك . . وحين وصل إلى إسرائيل وجد نفسه فجأة داخل « أوفارول » لونه أخضر داكن . . ثم وجد نفسه فجأة في مواجهة جيش نظامى قوى . . ثم وجد نفسه فجأة أيضاً ، بعد يومين من وصوله إلى الجبهة أسيراً لهذا الجيش النظامى . . القوى ! ! ! لقد اعترف هذا المحامى الأرجنتينى باستعداده للعودة إلى وطنه الأصلي « الأرجنتين » ، بعد أن تكشفت أمامه الحقائق . . كان الرجل يشعر بالحسرة والندم ، ولكن بعد أن فقد ذراعه اليسرى في المعركة المخاطفة التى أدت إلى وقوعه في الأسر . . ! !

النموذج الثانى « نقيب » إسرائيلى من مواليد إسرائيل عام ١٩٤٨ . . عاش طيلة حياته في مستعمرات « الكيبوتز » . . تم أسره في إحدى المعارك المخاطفة بعد أن قُتل كل من كانوا معه وعددهم حوالى ستة وعشرين ، بواسطة مجموعة من رجال القوات المصرية عددهم اثنا عشر مقاتلاً فقط ! ! ! هذا النقيب لا يعرف عن « القضية » غير المعلومات المحددة التى صاغوها له في الكيبوتز . . لقد جاء إلى الدنيا وهو لا يعرف إلا أن فلسطين أرضه . . وأن الصهيونية قد حررتها من المغتصبين العرب ! ثم أقنعوه بأن على جيله أن يعمل ليسترد ما تبقى لهم من أرض اغتصبها العرب من النيل إلى الفرات ! وبرغم أن هذا النقيب قد اعترف بإلحاده

وبأن أسرته كلها ملحدة وبأنه لا يؤمن بالخرافات الواردة في التوراة والتلمود ! !
فإنه بادر بالقول إنه يعتبر التوراة سجلاً تاريخياً لحركة الشعب اليهودي . . ورفض
بعد ذلك أن يناقش أية فكرة تتعارض مع هذه الأفكار (المزروعة في دماغه) .
وليس الهدف هنا تحديد أى الرجلين على صواب ، ولكن هذين النموذجين
يصوران مدى التناقض الذى يعانى منه الجيش الإسرائيلى . . إنه جيش واحد لكنه
منقسم على نفسه عقائدياً بين مؤمن شديد الإيمان بعقيدته ، وآخر لا يهتم سوى
المجد الشخصى وبطولات قصص الغرب .

ولقد وصل التناقض مداه حين أصبح من المقرر داخل الجيش الإسرائيلى
أن المهاجرين من أمريكا وأوربا يخدمون فى الجيش داخل إسرائيل بعيدين عن
الجهة . . أما المهاجرون من الدول الشرقية والعربية فيدفعون بهم إلى الجهة أمام
القوات المصرية ، أو على حد تعبير أحدهم « فى مواجهة الجحيم » . . ولهذا نشأ
داخل الجيش الإسرائيلى صراع حاد بين اليهود السفريديم . . والأشكيناز .

كان هذا التناقض الصارخ ، وهذا الشرخ فى بناء الجيش الإسرائيلى ،
هو مجال هجوم الحرب النفسية المصرية التى شنتها قواتنا ضد قوات العدو . أما
مجال عمل الحرب النفسية الإسرائيلية بعد ٦٧ فقد كان الدعاية المضادة القائمة
على الصِّلف والغرور . . والتى تحاول بمختلف الطرق تثبيت فكرة « الجيش الذى
لا يقهر » ، وأن المقاتل المصرى لا يمكن أن يثبت أبداً أمام هذا الجيش فى أية
مواجهة . . وكانت حجتهم فى ذلك أن جيشنا قد هُزم من قبل فى ثلاث جولات
متتالية .

ولكن القيادة المصرية اتبعت أسلوباً جديداً فى مواجهة هذه الحملة الدعائية
المسمومة التى استهدفت احتلال « رقعة أرض » داخل نفسية المقاتل وعقله . . كما
احتلت أرضه من قبل ! كان الرد هادئاً النبرة خالياً من التشنجات واقعياً عملياً . .
لا بد أن تعود إلى المقاتل العربى ثقته فى نفسه ، وفى سلاحه ، وفى قادته ، وفى عدالة
قضيته . . لذا جاء الرد بسيطاً للغاية . . أن يقف المقاتل بنفسه على مدى كذب
هذه الادعاءات ، ويتعرف على حقائق الموقف وعلى أصالة معدنه ، ومن ثم بدأت

وحدات صغيرة من القوات المسلحة المصرية تقوم بعمليات عبور . . محددة هدفها . . هو :

١ - بثّ الذعر في صفوف العدو . .

٢ - بثّ الثقة في نفس المقاتل وفي سلاحه .

لقد قامت وحدة مصرية بعملية عبور ناجحة داخل خط بارليف . . وما إن عبّر أفراد هذه الوحدة إلى الأرض المحتلة حتى أحسّوا أنهم أمام الله ، وفي كنفه ، وفي مواجهة التاريخ ، وأن اللحظة التي يعيشونها هي ألف عام . . هذه حبات الرمل التي يجب أن تُستردّ كل حبة منها بقطرة دم ، أحسّ الرجال أنهم أمام تجربة مصيرية يجب أن تنجح ، ولو أدّى الأمر إلى فنائهم جميعاً . . ولبثوا في أماكنهم صامتين يترقبون « الصيد » المنتظر . . وبعد لحظات قضوها في ضحك مكتوم وتندّر وتنكيت كمادة المصريين . . ظهر الصيد . . وفجأة مزّقت الرصاصات جوف الصمت الأخرس . . وزجرت الرشاشات ، واستحالت بقعة الأرض إلى جحيم مستعر . . وأصيب أفراد « الصيد » بذهول شلّ قدراتهم . . وسرعان ما تناثرت الأشياء والجثث . . وعلا الصراخ بالعبرية بعبارة واحدة متكررة « النجدة ! ! المصريون ! ! المصريون ! ! » .

تمّ القضاء على الصيد . . وكان لا بد من عودة أبطالنا إلى الضفة الغربية ومعهم « الحلو » ! ! و « الحلو » عند الأبطال هو الأسير ! ولاح لهم جنديان يجرّيان فرعاً وهرباً . . ولم يتردّد المقاتل عبد المقصود في تتبعهما وحده . . وأمسك بهما دون أن يطلق طلقة واحدة من مدفعه . وعادت المجموعة إلى أرض الوطن ومعها « الحلو » بعد أن حقّقت مهمتها بنجاح .

عادت الوحدة وهي تحمل إحساساً جديداً . . لم يكن سعادة غامرة وفرحة بالنجاح . . وإنما كان إحساساً بالارتياح . . لقد تمت المواجهة . . ووقف المقاتل المصري في مواجهة المقاتل الإسرائيلي ، ليحقق مهمته بأعصاب ثابتة ، ملتزماً بالأوامر المحددة ، منفذاً ذلك المخطط الموضوع بعد دراسة علمية دقيقة . وأكّدت مثل هذه العمليات أن الدعاية التي تروّجها إسرائيل دعاية كاذبة ،

تعتمد على الكثير من المغالطات التي دفعت هي ثمنها بعد ذلك .

كان المقاتل المصرى يعود من عمليات العبور المحدودة ، فيحكى عن بطولاته وقدراته فى مواجهة جنود العدو ، فيثير هذا حمية الرجال ويشعل حماسهم . . وأصبح العبور هدفاً ، وحلماً ، وأمنية شخصية . . الكل يرغب فى العمل . . الكل يهدف إلى تحرير الأرض . . الكل يسعى إلى النصر ، أو الشهادة . .

ومن هنا قضينا على « الأسطورة قبل الحرب » . . ومن هنا استعاد المقاتل المصرى ثقته فى نفسه ، وفى سلاحه ، وفى قيادته ، وفى عدالة قضيته . . وعقيدته القتالية . وأصبح قادراً على خوض معركة التحرير . . لكن كان عليه أن ينتظر . . وبقى على القيادة أن تُجرى حساباتها بدقة . . وأن ترقب المتغيرات الدولية . . وترسم خططاً تعتمد كل الاعتماد على الأساليب العلمية فى الإدارة . . إدارة النيران . . وإدارة المعارك .

وتحقق لنا النصر فى الحرب النفسية . . قبل أن يتحقق فى المعارك الحربية . وبعد أن حققت حربنا النفسية أهدافها إلى حد كبير ، وأحرزت نتائج لا بأس بها فى كثير من الأحيان ، بدأت مرحلة الاستعداد للحرب . لم تكن هناك ديكتاتورية فى التفكير أو التخطيط . . بل كانت هناك دراسات وبحوث وحقائق علمية وآراء مختلفة ومتعارضة . . تخرج من احتكاكها نتائج ثابتة وواضحة . . وتمت دراسة دقيقة مرهقة للاحتتمالات السياسية الدولية كافة . . والمتغيرات ، والاقتصاد ، والسلاح ، والذخيرة ، والرجال ، والاحتياط ، واليوم ، والساعة ، وزاوية ميل الشمس ، وسرعة تيار الماء فى القناة ، والتنسيق بين الجبهات ، والتمويه والخداع . . و . . انطلق القرار كالرصاصة . . مارقاً . . مدوياً . . « العبور . . لتحرير الأرض » . .

لم يحدث أن قرأنا من قبل فى تاريخ الحروب المعاصرة عن قوات حربية تذهب إلى ميدان القتال ، والسعادة تغمر رجالها ، والفرحة تعلو وجوه المقاتلين . . ولكن حدث هذا للجيش المصرى لحظة صدور الأوامر بالتحرك تجاه الأرض المغتصبة لتحريرها . لم يكن أحد يجهل أن الحرب آتية لا محالة . . لكن قرار

الحرب كان يحمل في طياته مفاجأة لها مذاق خاص . . فقد كانت هذه ساعة الخلاص . . لقد وقف الجنود والضباط يتعانقون في فرحة وسعادة مجنونة . . فقد أسكرهم منظر الطائرات المصرية بأعدادها الهائلة وهي تعود من داخل سيناء ، بعد أن دكت حصون العدو ومطاراته في عمق سيناء ، ومهدت الطريق للرجال ليحرروا الأرض . . وصاح أحد المقاتلين قائلاً : « أخيراً رأيت سلاحنا الجوى يعمل بجانبنا . أنصت إلى أزيز الطائرات وهديرها . . إنه نعم !! » .

واندفع المقاتلون . . وخرجت من حناجرهم صيحة « الله أكبر » قبل أن تفسح المجال لصراخ الطلقات المحمومة ، وزججرة الدانات ، وزئير الصواريخ وتمت المواجهة التي كان ينتظرها كل مقاتل منذ ستة أعوام . .

ولعل لا أذيع سرًا حين أقول إن دقة التخطيط وحكمته وصلت إلى حدٍّ أن القيادة أجرت « بروقات » لهذه الحرب قبل موعد التنفيذ بعام كامل . . وكان لهذا الجهد الخارق في التخطيط والتنفيذ أثرٌ بعيد المدى لدرجة أن خسائرنا في اليوم الأول للقتال لا تكاد تذكر . . في حين أن الخبراء العسكريين توقعوا أن خسائر محاولة العبور فقط قد تبلغ حوالي ٧٥٪ من القوة البشرية والعتاد ولكن الشعار الذي رفعته القوات المسلحة « العرق في التدريب يوفر الدم في المعارك » قد تحقق برغم كل التوقعات .

لا أحد يجهل قصص البطولة والفداء التي شهدتها أرض سيناء . . لا أحد ينسى الرجال الذين ألقوا أجسادهم فوق الألغام ليبر زملائهم فوق جثثهم ! ! . . لا أحد ينسى الرجل الذي سدَّ بجسده دشمة مدفع لا تتوقف طلقاته . . ليمنعها . . حتى يعبر زملاؤه إلى هذا الحصن ويدمروه ! ! . لا أحد ينسى الرجل الذي رمى جسده فوق السلك الشائك الذي أحاط بموقع حصين ليعبر الرجال فوق جسده ويدمروا هذا الموقع ! ! . لا أحد ينسى هذه الأعمال الخارقة والبطولات الفذة التي أكدت أصالة المقاتل العربي وشجاعته وبطولته .

لم يكن الإحساس الذي سبق الحرب إحساساً بالخوف التقليدي الذي يشعر به المقاتلون في أي مكان في العالم قبل الحرب . . بل كان إحساساً بالارتياح . . .

إحساساً بأن لحظة الثأر الشخصى قد حانت . . إحساساً بأن الرجل فى طريقه
 ليطغى جذوة النار التى ظلت متأججة فى صدره ست سنوات . . إحساساً بالخلاص !
 إن هذه الروح التى انطلقت فى العاشر من رمضان . . لم تكن روحاً مكتسبة . .
 أو وليدة ظروف خاصة . . بل كانت روحاً أصيلة أطلقتها هذه الحرب من
 مكانها . . وحيث إنها شىء ثابت لا يتغير ولا يفنى أو يتبدد فسوف تظل أبداً
 الدهر باقية كما هى . . زاداً ينحوض بها المقاتل ما بقى من جولات أخرى .

د. السيد أبو النجا

الإدارة بعد معركة العبور





فى رأى أنه برغم ما أفاض فيه الكتاب من تقييم لمعركة العبور فى ٦ أكتوبر الماضى ، وبرغم هذا التعبير البليغ الذى شاع بعد أن صكه قلم توفيق الحكيم فقال : « لقد عبرنا الهزيمة » ، وبرغم ما سرده الباحثون من آثار هذا العبور على النواحي السياسية والاجتماعية فى العالم العربى ، فإن هناك حقيقة لم تستهوا الكاتبين إليها حتى الآن كما استهوتهم اعتبارات الذات ، فدبجوا المقالات فى استعادة العرب ثقتهم بأنفسهم ، ورد الاعتبار للكرامة العربية الجريحة ، واستعادة الأرض السليبة والذود عن الحقوق المشروعة لشعب فلسطين . . ونسوا فى غمرة حماسهم للنصر أن العامل المؤثر من خلف هذه النتائج كلها هو التخطيط الذى حدد وقت المعركة ، وحشد الجهود العربية من حولها ، وجمع السلاح المتكامل من أشتات المصادر ، ووجه الاتفاقيات والعمليات الصعبة والمحلية لمواجهة النفقات . هو القيادة الرشيدة التى لم تضع وقت العرب فى الخطب الطنانة ، والشعارات الرنانة ، ولم تلهب شعور الجماهير بالحديث عن إسرائيل « المزعومة » ، وعن ظلم الاستعمار ، وأساليب الغدر والخيانة ، وعن الإيذاء وعدم التسليم بالهزيمة .

لقد توقفت القيادة عن الإسهاب المعتاد فيما فقدناه ، وعن سبّ الصهاينة

الملاعين ، والأمريكيين الكاذبين ، وعكفت على استقصاء نواحي القوة في إسرائيل ، وتدير الإمكانيات لمواجهة هذه النواحي ، واستعراض البدائل لبدء المعركة ، واختيار الحل الأمثل من بينها . ثم لم تضيع الممكن في طلب المستحيل ، كما يقول الدكتور محمود فوزي ، ولم تقم بأعمال بهلوانية في طلب التصفيق ، وإنما توقفت حين رأت التوقف أحكم من السير .

لقد كنت أنتصت لأنور السادات في الساعات الحالكة فأتمخيله محاسباً يصور حساب الأرباح والخسائر في كل حركة ، ويضبط ميزان المراجعة ليقارن بين المكاسب والتضحيات بعد كل مرحلة . كان مجلس الشعب يستقبله بالهتاف والتصفيق فلا يرد بغير الابتسام ، ويضع قبّعته العسكرية على المنضدة ثم يقول : « باسم الله » ، ويحاضر في هدوء بدل أن يخطب في ثورة ، ويتحدث إلى العقل بدل أن يتملق العاطفة ، ويتجه إلى المجتمع الدولي بلغة الإنصاف بدل أن يتباهى بلغة القوة . فإذا ذكر رئيسة وزراء إسرائيل فهي « مسز مائير » وليست شيئاً أقل . ذلك ومدافعنا تلك الحصون ، وصواريخنا تملأ الجو .

هكذا « صنع » أنور السادات قرار العبور ولم « يصدره » فقط صنعه من مواد أولية كثيرة ألف بينها ، ثم راقب عملية الصنع ، وجعل يختبر الجودة ، حتى وصل إلى النقطة التي انتهى عندها « تزايد الغلة » بلغة الاقتصاديين ، فأوقف آلة الحرب قبل أن تدخل المعركة دور التصفية ، فإن أخذ العرب حقوقهم بالمفاوضة فذاك ، وإلا فعلى السياسة الأمريكية أن تشهر إفلاسها لبدأ هو الحرب من حيث انتهى .

وكما كان للإدارة الرشيدة أثرها في تحقيق العبور ، وفي الحصول على نتائج إيجابية في الأيام الأولى من المعركة ، فقد كان لإهمال ناحية إدارية هامة هي الاتصال Communication أثره الكبير في الاختراق الإسرائيلي يومي ١٥ و ١٦ أكتوبر . فقد كشف التحقيق عن أن نتائج الاستطلاع لم تكن تبلغ بسرعة إلى القائد الأعلى ، وأن قواد الفرق الميكانيكية لم يكونوا قريبين من قواتهم ليعطوهم التعليمات اللازمة أولاً بأول . إن نقص الاتصالات العسكرية هو الذي سبب ثغرة الدفرسوار .

ومن وحى الروح الواقعية لأنور السادات أنه أمر بإطلاق حرية الكلمة والإفراج عن المعتقلين وإعادة القضاة إلى أماكنهم وإلغاء الحراسة ، ليجعل من الجبهة الداخلية سنداً قوياً يمدّه بالأحرار الذين يدافعون عن حرياتهم ولا يسوق له المقيدون بالأغلال وهم عبء على المعركة ، لأنه ليس في قلوبهم ما يشدهم للقتال .

ثم واجه الرئيس واقع البلاد فلم يؤثر أهل الثقة ويخاصم أهل الخبرة ، لأنه عرف أن أهل الثقة ليسوا أهل نصيح بقدر ما هم أهل تأييد ، وأن أهل الخبرة - وقد بعدوا بأنفسهم عن المشاركة في تسيير الأمور على كره منهم - قد آن الأوان لإرضائهم والاستفادة بكفائاتهم .

ولم يستمع لقول من قال : « إن العبرة ليست بالربح وإنما هي بمدى استجابة المنشآت للأهداف الاشتراكية » ، وجعل شعاره السلامة المالية ، وعن طريقها عمل لتحقيق الأهداف القومية . وهكذا أخذ يحول الاشتراكية إلى وسائل عملية لزيادة الإنتاج ورفع دخول العاملين وتوفير العملات الحرة ، ولم يقف عند ترديد الشعارات وعقد الاجتماعات وتنظيم الشلل وتوجيه المطالبات لرؤساء مجالس الإدارات .. هؤلاء الرؤساء الذين أصبحوا يشعرون أنهم على قدم المساواة مع باقي العاملين ، فلا يفصلون إلا بعد تحقيق ، ولا يوضعون في السجون إلا بحكم القضاء ، ولا يشتمون في الاحتفالات العامة لأنهم من نسل الرأسماليين وأتباع آدم سميث !

والحق أننا نجحنا اجتماعياً ولم ننجح اقتصادياً حتى الآن . نجحنا في رفع رءوس العاملين والفلاحين أمام أصحاب رءوس الأموال ، وفي تحريرهم من الإقطاع وتعليمهم قراءة الصحف ومتابعة أنباء العالم ، وقضاء الإجازة الصيفية على شاطئ البحر ، وتعليم أبنائهم في الجامعات وإيفادهم إلى أوروبا - وليس هذا بالشيء القليل من الناحية الاجتماعية - ولكننا لم ننجح حتى الآن في رفع دخولهم بما يوازي الارتفاع في الأسعار .

والسؤال الآن هو : كيف نتجه في سيرنا لنجعل من سياستنا الاقتصادية وعاء لما حققناه من نجاح اجتماعي ؟ إن السياسة الاقتصادية تظل حبراً على ورق ما لم تأخذ الإدارة بيدها إلى ما تصبو إليه من آمال . والسبيل إلى إصلاح الإدارة

عسير بعض الشيء ، ولكن الذى يدعونى إلى السير فيه هو حرية الحركة التى هياها لنا هذا العهد . لقد أصبح البوح بما فى الصدور ممكناً ، فعلى الإداريين أن يأخذوا مكانهم على الطريق مع السياسيين .

إن إصلاح الإدارة يأتى من باين كبيرين :

أولهما : تخليص القطاع العام من فائض العمالة .

وثانيهما : إطلاق يد المديرين فى إثابة المجتهد وعقاب المقصر .

أما عن الباب الأول فقد أعلننا مجانية التعليم فى المرحلتين الثانوية والجامعية ، ولم نتوسع فى إنشاء المعاهد وإعداد الأساتذة ، وإنما حشرنا أعداداً متزايدة من الطلاب فى الفصول والمدرجات دون أن نكفل لهم المستوى العلمى المطلوب ، ثم فرضنا الخريجين على الشركات فغاصت بهم حتى أوشكت أن تغرق .

وأخيراً تعليم اللغة الإنجليزية إلى المرحلة الثانوية توفيراً للعناية باللغة العربية فحق على خريجينا قول طه حسين : « إن أمة القرن العشرين هو الذى لا يعرف لغة أجنبية » فكيف بخريجينا وهم لا يجيدون اللغة العربية ؟

ولم نوجه الحاصلين على الشهادة الإعدادية بمجاميع قليلة من أول الأمر إلى المدارس الحرفية كالنجارة والبرادة والكهرباء والسباكة والحلاقة وغيرها ، كما لم نوجه الحاصلين على الثانوية العامة بمجاميع قليلة إلى المعاهد المهنية التى تخرج مساعدي الهندسة ومعاوني الصحة والعاملين فى الفنادق والمرضيات فى المستشفيات . . . إلخ . وبهذا كان يمكن أن نقصر دخول الجامعات على المتفوقين من الطلاب الذين يصلحون فعلاً لقيادة المجتمع فى مجالات تخصصهم ويجدون مقعداً يجلسون عليه ، ومعملاً يتدربون فيه ، وأستاذاً يشرف عليهم فى دراساتهم وبحوثهم .

إن التعليم لم يعد ترفاً ذهنياً كما كان فى الماضى ، وإنما هو عملية استثمارية ، ومالم يعد على البلاد بأكثر مما أنفق فيه فهو عملية خاسرة . لقد أصبحت الدولة بالتعليم الجامعى فى خدمة الفرد ولم يعد الفرد فى خدمة الدولة . وإلا فما قيمة الأعداد الهائلة من الخريجين الجامعيين إذا كان نوعهم من مستوى يقل كثيراً عن المطلوب ؟ لقد طلبت مرة من أحد عمداء كلية الهندسة - وهو صديق - أن يرشح لى مهندساً

إلكترونياً فرد بالموافقة ، ولكننى قلت مستمراً : « أريد مهندساً ينتج » فعقب مستدركاً « أما المؤهل فنعم ، وأما الإنتاج فلا . . وكيف تريده أن ينتج وليس فى الكلية ورشة إلكترونية على الإطلاق ؟ » ، قلت : « إذن لماذا تدعون أنكم تخرجون مهندسين إلكترونيين ؟ » فقال فى صوت خفيض : « لعل من الأفضل حقاً أن نذكر فى شهادة البكالوريوس أن فلانا خرج من الكلية ولم يتخرج فيها ! » .

إن مشكلتنا الإدارية الأولى فى رأى هى انخفاض مستوى الخريجين وإغراق شركات القطاع العام بهم ، فيثقلون كاهلها ويأكلون أرباحها . وفائضهم يزداد عاماً بعد عام ، فعلىنا أن نعبّر هذا الفائض كما عبرنا الهزيمة . ليس معقولاً أن يكون طلابنا جميعاً - دون طلاب العالم أجمعين - صالحين للجامعات . إن أكثرهم ليسوا طلاب علم وعمل ، وإنما هم طلاب خمسة وعشرين جنياً فى الشهر ، طلاب مكتب وكرسى فى مصلحة حكومية أو شركة من شركات القطاع العام . طلاب مركز اجتماعى له حقوق وليس عليه واجبات . ولست أفهم هذه المحاباة لخريجي الجامعات دون سواهم من المتعطلين والعجزة والمتسولين . إن ذوى المؤهلات أقدر من غيرهم على أن يدبروا لأنفسهم سبل العيش ، ويكفى أن الدولة ساعدتهم حين علمتهم بالمجان .

وحتى تكون كل شركة على بينة من أمرها لابد أن يكون لها « حساب خدمات » ترحل إليه العمالة الزائدة التى فرضت عليها دون أن يتطلبها الإنتاج ، ثم يكون الحكم على مدى نجاحها برصيد أرباحها وهو القيمة المضافة . أما مرتبات المقيدى فى حساب الخدمات فتنتقل بالتدريج إلى حساب الأرباح والخسائر كلما احتاج العمل إليهم .

ولابد أن يلغى نهائياً مبدأ توزيع الخريجين على الشركات ، ويترك لكل شركة أن تأخذ وأن تختار ما تحتاج إليه من العاملين ، فخير أن يكون فى السوق عاطلون من أن تنتشر البطالة المقنعة فى داخل الشركات فتربك أعمالها .

وإلى أن يتم هذا الإلغاء يحسن أن يكون التعيين مقصوراً على غير القاهرة والإسكندرية من المحافظات ، فهى أقل ازدحاماً بالعاملين ، وأكثر احتياجاً للإصلاح .

وتخفيضاً من الزيادة القائمة يحسن الإعلان عن استعداد الدولة لدفع نصف المرتب لكل سيدة ترغب في اعتزال الخدمة ولو إلى حين . فلا شك أن كثيرات منهن تقتضى ظروفهن العائلية بقاءهن في بيوتهن . إن في ذلك فائدة لهن وتوفيراً على الدولة .

وأما عن الباب الثانى فإن المديرين يمثلون الدولة التى هى صاحبة رأس المال . والدولة اختارت كلا منهم بعد فحص وتقليب ، فلماذا لا تضع ثقتها فيهم ؟ لماذا تطالبهم بالإنتاج وتغلّ يدهم عن الإصلاح ؟ هل معنى الاشتراكية أن يستوى الذين ينتجون والذين لا ينتجون ؟ وهل يصح في الأفهام أن يرتقى العامل بفعل الزمن ولا يرتقى بفعل ما يقدم من عمل ؟ وما فائدة الهرم الإدارى إذا كان الذى على قمته لا يملك الحكم على الواقفين في مواقع الإنتاج ؟

إن التخطيط لمعركة العبور كان بحكم الظروف مقصوراً على خط النار . أما ونحن نستعد الآن لمواجهة طويلة مع إسرائيل فلا عاصم اليوم من الهزيمة إلا أن نهض باقتصادنا . وليس يكفى لهذه النهضة أن نفتح الأبواب للأموال العربية والأجنبية ، بل لابد من القضاء على هذا الخلل الإدارى الذى يخرّب كل شيء . لابد من تنظيم الأداة الحكومية بحيث تستجيب لمتطلبات أصحاب المصالح ، وتحشد عوامل الإنتاج لكى تتعاون في تحقيق أكبر عائد مستطاع .

إن الانفتاح الاقتصادى مفيد كل الفائدة بل هو ضرورى ، ولكنه في الوقت نفسه خطير كل الخطر ، فهو يزيد الطلب على السلع الاستهلاكية فيدعو إلى التضخم وارتفاع الأسعار إن لم يقابله زيادة في الإنتاج . وهو يحمل البلاد عبء فوائد رأس المال ، فلا بد أن يكون العائد من رأس المال أكبر من الفائدة عليه . إن رأس المال الأجنبى يفقد البلاد سيطرتها على مقدراتها إذا لم ينهض رأس المال الوطنى معه في الوقت نفسه . ولا عبرة بالتكنولوجيا الوافدة إذا بقيت ملك الأجانب وحدهم ، فالعبرة هى بانتقالها في الأجل الطويل إلى أيدي المصريين . إن الانفتاح الاقتصادى قد يدعو إلى « الرفاهية » الاقتصادية ، ولكنه لا يدعو بالضرورة إلى « التنمية »

الاقتصادية . وما نريده في بلد اشتراكي كبلدنا هو التنمية ، لأنها هي التي تعود بالخير على القاعدة .

لقد اعترفنا بأخطائنا في هزائمتنا السابقة مع إسرائيل فعبّرنا في ٦ أكتوبر الماضي ،
ويبقى أن نعتف بأخطائنا في الإدارة لنضعها أيضاً في الماضي ، ونضع الصحيح في
الحاضر ، والتخطيط في المستقبل .
والله يهيئ لنا من أمرنا رشداً .

يوسف السباعي

الثقافة حق الجميع





إذا كان التعليم هو أحد الخدمات الأساسية التي تلتزم الدولة بأن تكفلها لجميع المواطنين . . وإذا كان الغذاء والكساء والمسكن هي الضرورات التي تعمل الدولة بأجهزتها المختصة على توفيرها للمواطنين . ومن أجل كفالة التعليم ومن أجل توفير هذه الضرورات ترصد الدولة في ميزانيتها عاماً بعد عام عشرات الملايين من الجنيهات وعشرات الملايين من العملات . وتبذل الجهود وتحشد الطاقات في سبيل تحقيق ذلك فإن الثقافة بدورها قد أصبحت إحدى الخدمات الأساسية التي تلتزم الدولة بتقديمها وتتعهد بإتاحتها للمواطنين على اختلاف أعمارهم وتنوع مشاربهم وتباين اتجاهاتهم ومسالكهم في الحياة .

وإذا كان دخول الثقافة في مضمار الخدمات التي تلتزم الدولة بإتاحتها للمواطنين قد جاء متأخراً في الدور أو في الترتيب من الناحية التاريخية - ذلك لأن أول ما التزمت به الدول في نشأتها الأولى أن تقدم خدمات الأمن الخارجى والأمن الداخلى والقضاء بين الناس في المنازعات فقد أخذت الخدمات التي تقع في مسئولية الدولة تتابع وتزايد وظلت الثقافة حيناً من الدهر تعتبر من ألوان الترف أو أدوات الزينة أو أسباب تزجية الفراغ حتى اكتمل للدولة بنيانها وتباينت مصالح أبنائها وتشعبت

بهم المسالك وتعددت الدروب . وظهر أثر الثقافة في التفرقة بين المواطنين وفي معايير الحكم على حظهم من التميز أو التفوق أو الموهبة أو النبوغ . ومن ثم أصبح للثقافة معناها وفحواها ، وأصبح للثقافة ألوانها وينايعها ، وأصبح للثقافة روادها ومريدوها . وبدأت الثقافة تتسلل إلى مجمع الخدمات التي تتولاها الدولة والتي تحرص الدولة على توليها ، والتي تدرك الدولة خطرها في تكوين الإنسان وصياغة حياته وشحن قدراته وإبراز مواهبه وملكاته . . .

وعلى الرغم من أن الثقافة تعتبر آخر الخدمات التي أخذت الدول نفسها بإتاحتها أو بتوفيرها أو بكفالتها لمواطنيها فقد استطاعت عبر القرنين التاسع عشر والعشرين أن تثبت وجودها في حياة الدول وأن تؤكد أهميتها وأن تكون في النهاية أبرز وسائل التفاضل والتمييز بين الدول .

وعلى قدر تقدم الدولة في مضمار الحضارة على قدر حفاوتها بالثقافة كإحدى الخدمات العامة التي تلتزم الدولة بتقديمها لمواطنيها . وعندما تصبح الثقافة إحدى الضرورات الأساسية في حياة المواطنين في إحدى الدول فذلك شاهد على أن هذه الدولة تضع نفسها حيث تريد في صف الدول المتقدمة . وحيث تتوضع الثقافة وتبحث عن مكانها في حياة المواطنين في إحدى الدول فذلك شاهد على أن هذه الدولة لا تعدو أن تكون دولة نامية تحاول أن تجد لها مكاناً في السباق الخطير الذي تحاول كل دولة أن تجد لها مكاناً في حلبته أو في مضماره .

والثقافة هي الوجه الجميل لعملة واحدة وجهها الآخر هو التعليم . وإذا مضينا في التشبيه فإن التعليم وهو الخدمة الأساسية التي تلتزم بها الدولة في مصر العربية هي الوجه المكتوب من وجهي العملة ، أما الثقافة - وهي الخدمة اليافعة العمر التي تحاول الدولة إتاحتها للناس في بلادنا - فهي الوجه المصور الذي يجلوه الفن للعين المجردة فيمتعها بجمال الصورة وطلعتها قبل أن تبجد العقل والبصيرة بالقراءة والفهم . وإذا كانت الدولة تلزم المواطنين بالتعليم وتسميه في مرحلته الأساسية التعليم الإلزامي فإن واجب الدولة أن تتيح للمواطنين الحق في المقابل الجذاب للتعليم وهو الثقافة . من أجل ذلك فإنني أعتبر الثقافة هي الوجه الجذاب للمعرفة

التي تختفي منها صورة المعلم المتجهم وعصا المؤدب ، ورهبة الفصل الدراسي ومحنة الامتحانات الخاصة والعامة .

وإذا كانت الثقافة قد دخلت مضمار الخدمات العامة ، التي تلتزم الدولة بتوفيرها للمواطنين على استحياء شديد منذ السنوات المتوسطة في القرن الحالى الذى أوشك أن ينصرم ويستسلم لبوادر قرن لاحق ، فإن ضرورتها لحياة الناس قد وضحت وضوحاً لا يحتاج إلى دليل . وكان من أوجب واجبات الدولة أن تلتفت الثقافة قوية نحو هذا القادم على استحياء في مضمار الخدمات الأساسية وهو الخدمة الثقافية ، وأن تأخذ بناصرها وتكفل لها الاعتمادات والإمكانات . ومع ذلك فقد ظلت الثقافة ولا سيما بعد نكسة يونيو تتنقب برقع الحياء ، وتتوارى أمام سؤاليين بالغى الأهمية ، ظلاً طويلاً يقفان في وجه الثقافة وهما : هل توفير لقمة العيش للناس أوجب في ترتيب مسئوليات الدولة أو توفير الثقافة ؟ . وهل توفير سلاح الدفاع عن الوطن المستباح ألزم في ترتيب واجبات الدولة أو إتاحة الثقافة ؟ . وكانت الإجابة المبادرة عن السؤالين إجابة واحدة وهى على ظاهر الأمر إجابة لا يختلف عليها اثنان . وهى أن لقمة العيش أحق وقطعة السلاح ألزم . وبالتالي فقد ظلت الاعتمادات المالية التى ترصد للثقافة تتواضع وتراجع حتى أصبحت لا تكفى لمواجهة مطلب واحد من مطالب الثقافة . . .

ومن دواعى الأسف أن أقرر باقتناع أن طرح القضية بهذه الصورة أو تقديم السؤالين بهذا الأسلوب قد كان ينطوى على ظلم بين بالنسبة لقضية الثقافة ولفهم الثقافة ، ولوقع الثقافة من الإنسان على هذه الأرض . فإذا كان الزاد والعتاد أولى برصد الأموال وحشد الجهود فقد كانت الثقافة وستظل زاداً وعتاداً ، وبغير الثقافة لا يهضم زاد وبغير الثقافة لا يقدح زناد . ولعل ما حدث في أكتوبر العظيم هو الذى يقودنا إلى هذه الحقيقة . . فقد كانت الثقافة زاد المحاربين ، وقد كانت الثقافة عدتهم فى التوفر على أساليب الحرب ومعدات القتال ، وقد كانت الثقافة هى الشعلة التى ألهبت عزائمهم وشجذت بواعث الإيمان فيهم .

فإذا كان لى أن أتحدث عن دور الثقافة بعد أكتوبر العظيم فما كان يجوز

لى أن أقدم لهذا الحديث بغير ما قدمت من شأن الثقافة وخطرها بالنسبة للخدمات الأساسية التى تلتزم الدولة بتوفيرها ، ومن تعريف للثقافة بأنها الوجه الجذاب للمعرفة الإنسانية التى تتحول إلى سلوك فى الحياة .

وإذا كان أكتوبر العظيم قد استطاع أن يعبر بنا مفازة النكسة وسواد ظلمتها ، وأن يعبر بنا مرارة الهزيمة لينقلنا إلى آفاق النصر وآلاء الأمل ، فإن دور الثقافة فى هذا العبور وفى هذا الانتقال وفى مرحلة ما بعد النصر هو من أخطر الأدوار وأوجبها بالتصدى والاعتبار .

وإذا سلمنا بأن الثقافة هى الوجه المشرق للعملة وهى الصورة الجذابة للمعرفة وهى محصلة جدول الضرب دون عصا العلم ، وهى ثمرة العلم دون رهبة الفصل ، فقد أصبح من أوجب واجبات وزارة الثقافة ومن ورائها الدولة أن تتيح لجميع المواطنين من أسباب الثقافة ، ومن ألوان الثقافة ، ومن عطاء الثقافة مايلى :

أولا : فى مجال الكلمة المطبوعة أو المخطوطة :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يجد الكتاب الشائق بصوره ، الجذاب بطريقة إخراجة ، الذى يقدم له كل ألوان المعرفة سواء عن نفسه أو عن وطنه أو عن وجوده أو عن عالمه .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد الكتاب الوافى بمضمونه الحافل بمحتواه المتاح بسعره يقدم له حاجته من العلم ومن الأدب ومن الفن بكل ألوانه ومن مختلف منابعه وبكل اللغات التى يحتاج إليها تعليمه .

من حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد الكتاب الذى يستثير رغبته فى المعرفة ، والذى يلبي حاجته إلى الاستزادة ، والذى ينقع غلته من التزود ، وأن يكون سعره فى متناوله أو استعارته مكفولة ميسرة .

من حق هؤلاء جميعاً أن يجدوا المجلة الحافلة بكل جديد فى العلم وفى الأدب وفى الفن . وبخاصة المجلات ذات التخصص ، منها ما يطبع فى مصر ومنها ما يستورد من الخارج من البلاد المختلفة .

من حق هؤلاء جميعاً أن يجدوا كل هذا متاحاً لمن يشاء . ولن يقدر على شرائه وعلى اقتنائه . ومن حق هؤلاء جميعاً أن يجدوه متاحاً لمن لا يملك القدرة على الشراء والاقتناء أن يجد الفرصة المواتية للاستعارة والاطلاع في المكتبات العامة وفي المكتبات الخاصة ، وفي المكتبات المحلية وفي المكتبات المدرسية .

وهذه الحقوق تعمل وزارة الثقافة بعد أكتوبر العظيم على إتاحتها وعلى توفيرها ، ولعل الدولة أن تقدم لها من الاعتمادات ما يكفل لها تحقيق ذلك .

ثانياً : في مجال الكلمة المسموعة أو المقولة :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يجد الكلمة التي يهفو إلى سماعها في مسرح خاص بالطفولة ، سواء كان مسرحاً للعرائس والدمى ، أو مسرحاً للأداء الدرامي من لداته الأطفال ، وأن يجد قاعة الموسيقى التي يستمتع فيها لألحان الموسيقى العربية والموسيقى العالمية ، وأن يجد قاعة الندوة التي يستمتع فيها إلى ألوان من الحوار الذي يغذى رغبته في المعرفة ، وتطلعه للاستفادة وانجذابه نحو المجهول .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد الكلمة التي تعبر عن مشاعره وتحكى نوازع قلبه وهوائف عقله ، في مسرح يقدم ما يمتعه وما يصقل مواهبه وما يشجذ قواه ، وينقل إليه روائع المسرح العربي وروائع المسرح العالمي وألوان الفكاهة والمتعة الوجدانية .

من حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد المسرح الذي يستطيع أن يغسل فيه متاعبه وأن ينسى في الاستمتاع بعطائه كل ما حاق به من جهد وما ألم به من تعب ، من حق هؤلاء جميعاً أن ينسوا صراعات الحياة ومتاعب العمل ومطالب العيش في سهرة ممتعة ، يتذوقون فيها الفن فوق خشبة مسرح أو قاعة موسيقى أو حلبة من حلبات السيرك ، أو محفل من محافل الأدب والشعر بكل الوسائل الميسرة والتكاليف التي لا تتجاوز دخولهم ومواردهم .

وكل هذا تلتزم وزارة الثقافة بأن تقدمه وبأن تكفله للمواطنين ، وهي حريصة

كل الحرص على ألا يكلفهم من أمرهم شططاً ولا يثقل عليهم أو يقلب متعتهم غمّاً ويجعل مسرتهم همّاً . . . ولعل الدولة بدورها لا ترضى على وزارة الثقافة بما يكفل لها أن تنى بالتزامها وأن تؤدي واجبها وأن تكفل لأصحاب هذا العطاء من الفنانين والموهوبين حقهم في الحياة الكريمة وفي العطاء المقابل .

ثالثاً : في مجال الكلمة المرئية بالسينما :

من حق كل طفل من أطفالنا أن يجد الكلمة التي يحبها وأن يراها على شاشة السينما ، سواء في الأفلام الروائية التي تحكى له من وحي طفولته ومن أداء لداته من الأطفال ما يشبع حاجته وما يوفر له المتعة والموعظة . أو في الأفلام التسجيلية التي تنقل إليه المعارف في مختلف ألوانها في أبواب العلم وأبواب الفن ، ومن حق كل شاب من شبابنا أن يجد الرواية السينمائية التي تمتعه والتي تصقل معرفته بالحياة والتي تتيح له النماذج الطيبة والأسوة الحسنة ، والتي تجعله على بينة مما يجري في عالمه والتي تعبر بصدق عن مجتمعه . . عن آماله وآلامه ، والتي تبصره وتأخذ بناصره في مضمار الحياة ، وأن يجد الأفلام التسجيلية والأفلام التعليمية ، وأن تتاح له فرصة تنمية مواهبه وصقلها في مجالات السينما المختلفة ، سواء في المعاهد المتخصصة أو في مراكز التدريب أو في نوادي السينما وجمعيات الثقافة السينمائية .

ومن حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد دار السينما سواء في القرية أو في المدينة أو في العاصمة التي تحسن استقباله بما تقدمه له من الأفلام الجيدة وبما توفره له من الراحة والمتعة ونظافة الموقع ورقة الحاشية واستكمال المرافق ، وألا يقابل بالإهمال أو بالإهانة أو بالاستغلال .

وكل هذا تلتزم وزارة الثقافة بتوفيره وتديره ورقابته والإشراف على تقديمه وتقويمه ، وهي مسئولة أمام المواطنين مثل مسئوليتها أمام الدولة التي تلتزم بدورها أن تقدم لها الاعتمادات المالية والإمكانات المادية بالقدر الذي يفي بهذه الالتزامات .

رابعاً : فى مجال الكلمة المصورة فى المتحف والمعرض :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يشهد الكلمة المصورة مجسدة فى متحف يروقه ويجتذبه ويستثير نوازع المعرفة وحب الاستطلاع فيه ، وأن يجد المعرض الذى يقدم له الصورة من إنتاجه ومن إبداع لداته ومن تعبير أقرانه ، سواء فى مصر أو فى الخارج ، وأن يجد هناك إلى جانب الصورة من يشرحها له ومن يقربها إلى فهمه ومن يحببها إلى تذوقه .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد إبداع يراعه وتصوير ريسته ونتاج موهبته ومواهب عشيرته من الشباب مسجلة ومقدمة فى معارض تملأ حياة الناس فى الريف والحضر ، وأن يلتقى بأقرانه فى صعيدها وأن يدور بينه وبينهم حوار حول معانيها ومراميها وألوان الإبداع فيها .

من حق كل مواطن أن يجد المعارض التى تغرى بالارتياح وبالمشاهدة وبالإمتاع وبالتفاعل مع النفس والتخاطب مع الوجدان ، وأن يجد المتاحف التى يستعيز بارتياحها عن معاهد الفنون لأنه يجد فيها مدارس الفن مجتمعة ونفحات الفنانين متقابلة . ويجد فيها الراحة والمتعة ويلتمس فيها الدراسة والهواية .

من حق هؤلاء جميعاً أن نبجلى لهم روائع الفن من آثار العصور الخوالى ، من حقهم أن يعايشوا مصر الفرعونية وأن يمجدوا مصر القبطية ، وأن يؤصلوا مصر الإسلامية وأن يستجلوا روائع الماضى وأن يمجدوا الشخصية المعاصرة ، وكل هذه الحقوق تلتزم وزارة الثقافة بأن تكفلها وأن تقدمها للمواطنين وأن تجعلها فى متناول الجميع سواء كانوا فى العواصم أو فى الأقاليم . بل إن حق هؤلاء الذين حرّموا طويلاً من ثمرات الثقافة وإبداع الفنون والآداب أن يعوضوا بإتاحة كل الفرص لهم بواسطة بيوت الثقافة وقوافل الثقافة ، وأن تكرس الجهود لمدهم بالزاد الثقافى فى مختلف المجالات . وعلى الدولة أن تؤدى بدورها حق هؤلاء فيما ترصده من الاعتمادات وما توفره من الإمكانيات .

وبعد فإن دور الثقافة بعد أكتوبر العظيم أكبر وأشمل من أن تتسع له هذه

الصفحات ، ويكفى أن تكون رسالة هذا الشعب هو أن يعيد صياغة الحياة على أرضه . وإن أول أداة وأهم أداة لصياغة الحياة هي الإنسان . فإذا كان واجبنا أن نعيد صياغة الحياة فإن أوجب واجباتنا أن نعيد صياغة الإنسان فهو صانع الحياة وبنائها المقتدر . وهو الذى صنع لهذه الأمة النصروهيأ لها الكرامة واسترد لها الاعتبار ، فمن حقه علينا أن نوفر له كافة الوسائل لكى يعيد صياغة نفسه بصورة أفضل لحياة أفضل . . .

والإنسان على هذه الأرض من وجهة نظر الثقافة واحد من اثنين :

الأول : هو المثقف صاحب العطاء الذى يوفر الثقافة من عطاء موهبته وملكاته أو من عطاء دراسته وتحصيله . ودور وزارة الثقافة بالنسبة لهذا الإنسان أن توفر له كل أسباب الرعاية المادية والأدبية وأن تعمل على تنمية قدراته على العطاء وأن تكفل له كامل الحرية فى الانفعال والمعاناة والتعبير وحرية القنوات الموصلة لعطائه . وأن تضع إمكانات الوزارة فى عونته وفى تقديم عطائه وإنتاجه وحصيلته دراسته للمواطنين .

الثانى : هو المواطن صاحب الحق فى العطاء الثقافى بمختلف ألوانه من أدب وفن وعلم ومن مختلف الينابيع سواء العربية أو الإنسانية . ودور وزارة الثقافة بالنسبة لهذا الإنسان أن تمكنه بل تدعوه لممارسة حقه فى تلقى هذا العطاء والانفعال به انفعالا ينعكس على سلوكه فى المجتمع وتصرفه فى الحياة تصرفاً أفضل يضاعف من قدرته على الإنتاج من أجل البناء والتنمية .

على أن رسالة الثقافة بعد أكتوبر العظيم لا يمكن أن تنهض بها وزارة الثقافة منفردة أو بمعزل عن الوزارات الأخرى فى الدولة بل لابد لها من تعاون مخطط ومدرّس مع أغلب الوزارات وفى مقدمتها وزارة الإعلام التى تملك من الوسائل أقدرها وأسرعها على نقل العطاء الثقافى وبثه بين المواطنين سواء فى داخل البلاد فى مختلف المواقع وبخاصة فى المواقع الريفية والنائية التى لا ييسر الوصول إليها بالأدوات الثقافية المألوفة . كالمسرح والسينما ، بل فى خارج البلاد فى الوطن العربى الكبير وفى الدول الأخرى .

وكذلك بالنسبة لوزارتى التربية والتعليم العالى بالمشاركة فى إخراج الكتاب المدرسى على أفضل صورة تجعله جذاباً مرغوباً وفى تقديم الوسائل التعليمية عن طريق المصورات والأفلام التسجيلية والتعليمية وتنمية هوايات الطلبة والطالبات فى مختلف الفنون واستثمار إمكانات المدارس والمعاهد والجامعات المادية والبشرية فى امتداد رقعة الثقافة والفرج بين الثقافة والتعليم .

إن التعاون الكامل بين وزارة الثقافة وبخاصة قطاع الآثار وبين وزارة السياحة أمر بالغ الأهمية وهوبلا شك سيؤدى إلى ازدهار السياحة الثقافية ، وهى من الأنشطة الهامة التى تمثل عائداً ضخماً بالنسبة للدول ، وكذلك ازدهار الثقافة السياحية وهى بدورها عامل من عوامل الإثراء التعليمى والثقافى .

ومع وزارة الشباب يقوم تعاون بناء من أجل أهم قطاع فى حياة الأمة . وهو قطاع الشباب وتلبية احتياجاته فى مجالات الثقافة المختلفة سواء من الكلمة المطبوعة أو الكلمة المسموعة أو الكلمة المرئية أو المصورة ، والتعبير عن طاقاته الإبداعية بالمشاركة فى أنشطة نوادى الشباب والرياضة والساحات الشعبية والأندية الريفية . ومع وزارة الصحة فى نشر الثقافة الصحية بكافة الوسائل المتاحة لوزارة الثقافة من كتاب إلى سينما إلى مسرح إلى معرض ومتحف وبالنسبة لتنظيم الأسرة فإن قصور ومراكز وبيوت الثقافة وقوافلها تستطيع أن تقوم وهى تقوم فعلا بدور فعال وتسهم بالندوة والمحاضرة والفيلم فى التوعية بذلك .

ومع وزارة الزراعة فى الثقافة الزراعية والإرشاد الزراعى والتنسيق بين القوافل الزراعية والقوافل الثقافية ، فى توصيل المادة الثقافية إلى المواطنين فى المناطق الريفية والنائية .

ومع وزارة الشؤون الاجتماعية فى معالجة المشكلات الاجتماعية المتعلقة بحياة الأفراد وحياة الأسر ومعالجة الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد التى لا تتفق مع القيم الحقيقية لمجتمع يقوم على العلم والإيمان .

والتعاون بين وزارة الثقافة ووزارتى الأوقاف وشئون الأزهر فى نشر الثقافة الأثرية والثقافة الدينية والاحتفال بالمناسبات الإسلامية احتفالاً يجردها من الشوائب .

والعمل على تثبيت القيم الدينية والمعتقدات السليمة .

أما التعاون مع وزارة الخارجية فيبرز في مجال علاقات الثقافة الخارجية سواء بالدول العربية أو الإسلامية أو الأجنبية ، وكذلك بمختلف المنظمات والهيئات الدولية وعقد المعاهدات والاتفاقات والبرامج التنفيذية لتقوية هذه العلاقات وتحقيق التبادل الثقافي والفني بشتى الصور التى تعود بالنفع المؤكد على الجانبين من تبادل الخبرات والوفود والفرق الفنية والمعارض ، ولا شك أن نموذجاً واحداً من أبرز النماذج الناجحة في هذا المضمار معارض آثار توت عنخ آمون التى أقامتها وزارة الثقافة في اليابان وفي فرنسا ثم في إنجلترا وأخيراً في الاتحاد السوفيتى ، وما حققته سواء من العائد المادى أو الأدبى لشاهد على صورة من أجمل صور التعاون .

وكما أسلفنا فإن أكتوبر العظيم قد زاد في إحساس وزارة الثقافة بمسئوليتها عن تلبية حاجة المواطنين ، بل حاجة الأشقاء من أبناء الوطن العربى ، أو على الأصح تلبية حق هؤلاء جميعاً بمختلف أعمارهم وفئاتهم في العطاء الثقافى بمختلف ألوانه ومن أجل ذلك فقد وضعت خططها وتخطيط مشروعاتها وأنشطتها من الآن إلى عام ٢٠٠٠ أو إلى مستهل القرن الحادى والعشرين على أساس تحقيق حق كل مواطن في العطاء الثقافى باعتباره أمراً حيوياً كحاجته إلى الغذاء وإلى السلاح ليزود به عن وطنه .

وإذا كان لى أن ألخص دور وزارة الثقافة بعد أكتوبر العظيم فهو العمل على تحقيق المعرفة الجذابة والمتعة الوجدانية للإنسان بكل الوسائل المتاحة أو التى يستنبطها العلم في المستقبل . إسهاماً منها فيما دعا إليه الرئيس أنور السادات من إعادة بناء الإنسان من أجل دفع التنمية الشاملة لإقامة مجتمع العلم والإيمان مجتمع الكفاية والعدل مجتمع الرخاء والأمان .

والله ولى التوفيق

محتويات الكتاب



[illegible]

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٤/٤٦٩٢

* مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٤ *

١/٧٤/٢٥٤

الإعلام المصري

عودة العربي للتاريخ

المرأة في حرب أكتوبر

مواد خام للمستقبل

الكعكة تريد حجماً

جيل سيئ السمعة

سيكولوجية المقاتل

الثقافة حق الجميع

ماضي

حركة في داخل المجتمع

مستقبل بلاد معجزات

ورقة عمل للأدب والفن

عملة اسمها الأمل

سيأتى النور

الجدية سبيلنا

الإدارة بعد معركة العبور

